تفسير

سورة محمد

آية الله الشيخ
عباس الكعبي

اسم الكتاب: تفسير سورة محمد

تأليف: آية الله الشيخ عباس الكعبي

تدقيق وتصحيح: الدكتور الشيخ حسين اليوسف

الطبعة: الأولى، ٢٠٢٥م

نشر: دار الوفاء للثقافة والإعلام

البريد الإلكتروني: mediaalwafa@gmail.com

ISBN: 978-614-464-279-5

الموقع الرسمي

daralwaffa

الفهرس

مقدمة الناشر ١١
مقدمة المؤلف ١٣

المحاضرة الأولى - الآيات ١-٣

في تفسير سورة محمّد صلى الله عليه وآله ١٧
خصائصها ١٧
الروايات الواردة في فضلها ١٩
مضمون السورة ٢١
تفسير آياتها ٢٣
تعريف الكفر لغةً واصطلاحًا ٢٣
أقسام الكافر ٢٤
تسمية السورة باسم النبيّ صلى الله عليه وآله ٢٥
تكفير الذنوب لجبهة الحق ٢٧
روايتان في دور اتّباع القيادة الشرعية في تكفير السيئات والنجاة ٢٨
نكات قرآنية ٣٠

المحاضرة الثانية - الآيات ٤-٦

أحكام المواجهة الميدانية للعدو ٣٧
نهاية الاشتباك مع الأعداء ٤٠
أحكام الأسير ٤٠
فلسفة الجهاد في سبيل الله ٤٢

سبب عدم انتقام الله من الكافرين والظالمين ٤٥
فضائل الشهداء والمجاهدين ٤٦
روايات في فضل الجهاد ٤٩

المحاضرة الثالثة - الآيات ٧-٩

نصرة الله والإمداد الغيبي ٥٥
نصرة الله ٥٥
النصر الإلهيّ ومصاديق نصرة الله ٥٦
أسباب النصر الإلهيّ ٥٧
ضرورة الاعتصام بالله ٦٣
كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام ٦٥
نصرة الله تعالى للأنبياء عليهم السلام ٦٧
في معنى التَّعس ٧٠
عوامل إحباط الأعمال ٧١

المحاضرة الرابعة - الآيات ١٠-١٤

المقارنة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل ٧٥
مراتب التوحيد والولاية العامة ٧٧
الفرق بين الولايات الثلاث ٧٩
المقارنة بين جبهة الحق والباطل في الدنيا والآخرة ٨٢
أقسام الحياة ٨٢
مسخ الهوية الإنسانية ٨٦

المحاضرة الخامسة - الآيات ١٤-١٥

مقارنة بين فريق الحق وفريق الباطل ٩٣

تزيين سوء العمل ٩٥
عوامل التزيين في القرآن ٩٥
مقايسة المصير في الجنة والنار ٩٧
حقيقة خمر الجنة ٩٩
حقيقة الأنهار الأربعة ١٠٠
الشراب الطهور وحوض الكوثر ١٠١
لا قيمة للعلم بلا عمل ١٠٣
معنى الكوثر ١٠٥

المحاضرة السادسة - الآيات ١٦-١٨

المنافقون وأقسامهم ١١١
أقسام النفاق ١١١
أصحاب التيارات وولاية النبيّ صلى الله عليه وآله ١١٤
روايات في النفاق ١١٦
الفرق بين استماع المؤمنين وغيرهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله ١١٧
سبب الطبع على القلب ١١٩
المقصود بالهداية ١٢١
معنى أشراط الساعة ومصاديقها ١٢٢

المحاضرة السابعة - الآيات ١٩-٢٣

أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام ١٢٧
معنى استغفار الأنبياء والأئمة عليهم السلام ١٢٨
مراتب الذنب ١٢٩
استغفار النبيّ صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء عليهم السلام في القرآن ١٣١
بحث فلسفي في استغفار الأنبياء عليهم السلام ١٣٣

الاستغفار للمؤمنين ١٣٤
الفرق بين المؤمن والمنافق ١٣٥
الفرق بين التقية والنفاق والمداراة ١٣٨
في معاني التولّي ١٣٩

المحاضرة الثامنة - الآيات ٢٤-٢٦

الكفار والمنافقون وعدم التدبر في القرآن ١٤٥
الفرق بين التدبّر والتأويل ١٤٦
روايات في الحثّ على التدبّر ١٤٧
كيفية التدبّر في القرآن الكريم ١٤٨
الأمّة بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله في خطبة الزهراء عليها السلام ١٥٠
علامات قسوة القلب ١٥١
مواصفات المؤمن ١٥٣
تعلّم الكتاب والحكمة ١٥٤
عرض وقائع الحياة على القرآن ١٥٤
أسباب الارتداد ١٥٦

المحاضرة التاسعة - الآيات ٢٧-٣٠

حال المنافقين في الآخرة ١٦١
مسألة فقهية في الفرار من الزّحف ١٦٢
الآثار غير الفقهية للفرار من الزحف ١٦٣
تحذير المنافقين ١٦٥
اتخاذ البطانة ١٦٦
كيفية معرفة المنافقين ١٦٧
روايات في لحن القول ١٦٩

أصناف الأحاديث الواردة في حبّ أمير المؤمنين عليه السلام وبغضه ١٧٠
أقسام الإيمان والنفاق ١٧١
في كيفية علم الله تعالى ١٧٢

المحاضرة العاشرة - الآيات ٣١-٣٣

ما هي وظائفنا تجاه المنافقين المعاصرين؟ ١٧٧
التأويل والتنزيل ١٧٩
ما هو الربط بين قيادة الحقّ وقيادة الباطل وبين الطاعة وارتكاب المعاصي؟ ١٨٠
الأقوال في الأخبار ١٨٢
أقسام سنن الله تعالى ١٨٤
الهدف من البلاء الإلهي ١٨٤
فشل أعمال جبهة الباطل ١٨٦
عوامل حبط الأعمال ١٨٧
روايات في بطلان العمل بدون ولاية ١٨٩

المحاضرة الحادية عشرة - الآيات ٣٣-٣٦

الأقوال الأخرى في بطلان العمل ١٩٥
القول المختار ١٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا...﴾ ١٩٨
المراد بالدعوة إلى السِّلم في الآية ٢٠٠
عدم جواز الاستسلام ٢٠١
دعوى المنافاة بين آية رفض السّلم وآية قبوله ٢٠٤
النهي عن حبّ الدنيا ٢٠٥
مراحل حياة الإنسان ٢٠٦

التقوى خلاصة خير الدنيا والآخرة ٢٠٧

﴿المحاضرة الثانية عشرة - الآيات ٣٦-٣٨﴾

انقسامات المجتمع في صدر الإسلام ٢١٣
كيفية انتصار الإسلام ٢١٥
صفة أكثرية الناس ٢١٦
قصة كاظم كربلائي ٢١٧
الإنفاق في سبيل الله وصفة البخل ٢١٨
عوامل البخل ٢١٩
علاج البخل ٢٢٠
استبدال قوم بقوم آخرين ٢٢٢
خصائص المجتمع المرتد سياسيًا واجتماعيًا ٢٢٣
المجتمع المؤمن المجاهد ٢٢٤
الروايات الواردة في سلمان الفارسي وقومه ٢٢٦

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدى ورحمة للعالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

يسر دار النشر أن تقدم للقارئ الكريم هذا السفر القيم، «تفسير سورة محمد»، بقلم سماحة آية الله الشيخ عباس الكعبي، عضو مجلس خبراء القيادة في الجمهورية الإسلامية. يجمع هذا التفسير بين العمق العلمي والدقة المنهجية، حيث يقدم المؤلف دراسة شاملة لسورة محمد ﷺ مستنيراً بالمصادر القرآنية والحديثية، مع تسليط الضوء على أبعادها العقائدية، الأخلاقية، الاجتماعية، والجهادية.

ويتميز هذا التفسير بأسلوبه التحليلي الذي يربط بين معاني الآيات والسياق العام للرسالة الإسلامية، مما يجعله مرجعًا مهمًا للباحثين والمهتمين بالعلوم القرآنية. كما أن هذا الكتاب في الأصل عبارة عن محاضرات قيّمة ألقاها سماحة الشيخ الكعبي خلال شهر رمضان المبارك بعام ٤٤٤١ هـ، حيث طرح فيها رؤى قرآنية معمقة بأسلوب علمي وروحي يجمع بين الأصالة والتجديد.

نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة نافعة للمكتبة الإسلامية، وأن يسهم في تعميق فهم معاني القرآن الكريم، مستلهمين من هديه ما يقودنا إلى الرشد والصلاح في مختلف مجالات الحياة.

والله ولي التوفيق.

دار الوفاء للثقافة والإعلام

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً للناس، وبينات من الهدى والفرقان، وجعله نورًا يضيء طريق المؤمنين، ومنهجًا لحياة الأمم في صراعها مع الباطل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الهداة المهديين، الذين حملوا رسالة الحق، وصانوا شريعة الإسلام، وأقاموا العدل الإلهي في الأرض.

أما بعد، فإن سورة محمد، التي تُعرف أيضًا بسورة القتال أو الذين كفروا، تعدّ من السور المدنية التي تناولت مواضيع مصيرية تتعلق بالاصطفاف بين جبهة الحق وجبهة الباطل، وأحكام الجهاد والمواجهة مع أعداء الدين، وأثر ذلك على مصير الأمم والمجتمعات. وقد ركزت هذه السورة على أهمية التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والالتزام بالقيادة الشرعية، باعتبار ذلك الأساس في تحقيق النصر الإلهي وإقامة الدولة الإسلامية القوية.

في هذا الكتاب، سعيتُ إلى تقديم تفسير شامل وتحليل دقيق لمضامين هذه السورة المباركة، مستندًا إلى المنهج التفسيري الموضوعي الذي يعتمد على التدبر في النص القرآني، والاستفادة من الروايات الشريفة، والتأمل في السياق التاريخي والاجتماعي لنزول السورة، وربط ذلك بالواقع المعاصر.

تناولتُ في هذا البحث عدة محاور أساسية، منها:

١. الخصائص العامة لسورة محمد، من حيث نزولها، وترتيبها في المصحف، وأسماؤها المتعددة، وموضوعها الأساسي.

٢. التفسير الموضوعي للآيات، مع تسليط الضوء على الأحكام المتعلقة بالقتال والجهاد في سبيل الله، وشروط المواجهة المشروعة، وأهمية الصبر

والثبات في تحقيق النصر.

٣. معالم الاصطفاف بين الحق والباطل، ودور الإيمان والعمل الصالح في تثبيت جبهة الحق، مقابل فساد أعمال الكافرين والمنافقين.

٤. السنن الإلهية في النصر والهزيمة، وكيف يحقق المؤمنون العزة والتمكين من خلال الالتزام بمبادئ الإسلام وقيم الجهاد والتضحية.

٥. دور القيادة الشرعية في توجيه الأمة، وأهمية الالتفاف حول القائد الحق، باعتبار ذلك الضمانة الأساسية لاستمرار خط الإسلام الأصيل.

٦. الرؤية القرآنية لمسار التاريخ والمجتمعات، وكيف تكررت سنن الله في مواجهة الطغاة والمستكبرين، مما يجعل هذه السورة ذات بعد تطبيقي في قراءة الواقع المعاصر.

وقد حرصتُ في هذا التفسير على تقديم رؤية متكاملة، تعكس البعد العقائدي، والتشريعي، والاجتماعي، والسياسي لسورة محمد، مع التأكيد على العبر والدروس العملية التي يمكن أن تستفيد منها الأمة الإسلامية في مواجهة التحديات الفكرية والسياسية التي تعيشها اليوم.

إننا نعيش في مرحلة حساسة، حيث تسعى قوى الطغيان والاستكبار إلى تشويه معاني الجهاد والمقاومة، وتضليل الأمة عن حقيقة الصراع بين الحق والباطل. ومن هنا، فإن الرجوع إلى القرآن الكريم، واستلهام معانيه العميقة، يعدّ ضرورة حتمية لإعادة بناء الوعي الإسلامي.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل لبنة في بناء الفكر القرآني الواعي، وسبيلاً لإحياء قيم الإسلام الأصيل، وأن ينفع به المؤمنين، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، والله ولي التوفيق.

قم المقدسة - عباس الكعبي

المحاضرة الأولى

﴿اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ اَضَلَّ اَعْمٰالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ ءٰامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَءٰامَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلٰى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَاَصْلَحَ بٰالَهُمْ ۝٢ ذٰلِكَ بِاَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبٰاطِلَ وَاَنَّ الَّذِينَ ءٰامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَمْثٰالَهُم﴾

في تفسير سورة محمّد صلى الله عليه وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام المصطفى أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين، ولا سيّما بقية الله في الأرضين.

يدور بحثنا الحالي - بفضل الله تعالى وتوفيقه - في هذه الليالي الرمضانية المباركة حول تفسير سورة محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله.

خصائصها

قبل أن نشرع في الحديث عن تفسير هذه السورة المباركة، سنتحدّث عن جملة من الأمور المهمة التي ترتبط بخصائصها، فنقول:

أولًا - نزولها: يتّضح من خلال النظر إلى ما تطرّقت إليه هذه السورة أنّها مدنية، وذلك نظرًا لمضمونها؛ لأنّ السور المكيّة تتحدّث عن الأمور العقائدية وما يشتمل على ترسيخ العقيدة، لكنّ السور المدنية تتحدّث عن الجهاد وتأسيس الدولة وأحكام الدولة الإسلامية وعلاقاتها الداخلية و الخارجية، وكذلك تتحدّث عن أحكام الشريعة. فهذه ضابطة عامة لتشخيص المكّي من المدني في القرآن الكريم؛ فأيُّ سورة في القرآن الكريم تتحدّث عن بحث الجهاد أو الفقه أو أحكام

الدولة أو أحكام تتعلق بالعلاقات الداخلية أو الدولية للدولة أو العهود، لا شك في أنّ تلك السورة أو الآيات مدنية.

ثانيًا - موضوعها: إنّ موضوع هذه السورة الذي تدور حوله آياتها الشريفة هو الاصطفاف بين جبهة الحقّ والباطل وأحكام هذا الاصطفاف في البُعدين المحلّي (الداخلي) والدولي (الخارجي) للدولة الإسلامية.

ثالثًا - أسماؤها: الاسم المعروف الذي يُطلق على هذه السورة المباركة هو (سورة محمّد)، وهو اسم النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله، والاسم الآخر لها هو (سورة القتال) نظرًا إلى أنّ إحدى آياتها تتحدّث عن القتال ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾[1]، والاسم الآخر هو (سورة الذين كفروا)، وهو مستوحى من آية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] أيضًا.

رابعًا - ترتيب نزولها: تُعدُّ هذه السورة حسب ترتيب النزول، السورة الخامسة والتسعون، فنزلت قبل سورة الحديد، ونزلت بعدها سورة الرعد. أمّا الفائدة المترتبة على بحث ترتيب نزول السور، فهي أنّ ذلك يساعد على فهم أجواء السورة والظروف المحيطة بها، وإدراك مضمونها ومحتواها، ومعرفة أغراضها.

خامسًا - ترتيبها في المصحف: هي السورة السابعة والأربعون.

سادسًا - عدد آياتها: عدد آياتها ثمان وثلاثون آية.

سابعًا - حجمها: تُعتبر هذه السورة من السور المثاني؛ أي السور التي تحتوي على مقدار حزب من القرآن، حيث إنّ القرآن يُقسّم إلى سور، وأجزاء، وأحزاب، فهي تكون بهذا الحجم.

ثامنًا - فضلها: من خلال الروايات، نستطيع أن نعرف مضمون هذه السورة

---

١. محمد: ٢٠

٢. محمد: ١

وفضلها أيضًا، وليس الفضل هو الفضل الشكلي فحسب؛ بل الفضل فيما يرتبط بالمضمون، فعلى الإنسان القارئ للقرآن أن يعتني بهذا المضمون ويطبقه في حياته.

الروايات الواردة في فضلها

الرواية الأولى: روى الشيخ الصدوق بإسناده عن البطائني قال:

أولًا: «**من قرأ سورة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يذنب أبدًا**». يعني أنّ هذه السورة من ناحية المضمون تساعد على قضية جهاد النفس وتحصيل التقوى.

ثانيًا: «**ولم يدخله شكٌّ في دينه أبـدًا**». من ناحية المضمون الإيماني يتمكّن من أن يحافظ عليه.

ثالثًا: «**ولم يبتله الله بفقرٍ أبدًا**». إنّ هذه الرواية تنطوي على فائدة اقتصادية أيضًا؛ بمعنى أنّ الإنسان إذا التزم بمضمونها، فسيحصل على نوع من أنواع التنمية الاقتصادية.

رابعًا: «**ولا خوف من سلطانٍ أبـدًا**». بمعنى أنّـه لا يخالطه خوف من الظالمين، ويكون شجاعًا في مواجهتهم.

خامسًا: «**ولم يزل محفوظًا من الشكِّ والكفر أبدًا**». أي حتى يموت، فينال حُسن العاقبة بهذا الالتزام.

وسادسًا: «**فإذا مات، وكّلَ الله به في قبره ألفَ ملكٍ يُصلّون في قبره، ويكون ثواب صلاتهم له، ويشيّعونه حتّى يُوقفوه موقفَ الآمنين عند الله عزّ وجلّ**». فلماذا تتحقّق له هذه الأمور؟ لأنّه:

سابعًا: «**ويكون في أمان الله وأمان محمّد** صلى الله عليه وآله»[1].

---

١. الرواية من كتاب بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٣٠٣، نقلًا عن ثواب الأعمال للشيخ الصدوق.

إذًا؛ إنّ مضمون هذه السورة فيه نوع من الالتزام الإيمانيّ، والالتزام الشرعي، والالتزام بمبدأ القيادة الشرعية المتمثّلة في شخصية رسول الله الأقدس ﷺ، وهذا ما يدعو إلى أمان الأمة وأمان المجتمع الإسلامي الملتزم بهذا المفاد والمضمون.

الرواية الثانية: روي في كتاب ثواب الأعمال: عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «من أراد أن يعرفَ حالنا وحال أعدائنا، فليقرأ سورة محمّد ﷺ؛ فإنّه يراها آيةً فينا، وآيةً فيهم»[1].

معنى ذلك؛ أنّ هذه السورة هي سورة الولاية لمحمّد وآل محمّد، وهي أيضًا سورة البراءة من أعداء محمّد وآل محمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من خلال الحضور في ميدان المواجهة والمعركة والحضور الجهادي الفاعل والنشيط؛ أي أنّ ذلك يعني تطبيق مبدأ «سلمٌ لمن سالمكم وحربٌ لمن حاربكم». إنّ بعض السور يدلُّ مضمونها على الولاية؛ مثل سورة المائدة، وبعض السور يدلُّ مضمونها على البراءة؛ مثل سورة البراءة، لكنّ هذه السورة جمعت بمفادها بين الولاية والبراءة معًا؛ أي التولّي والتبرّي. وهذا المحتوى قد ورد في رواية أخرى أيضًا.

الرواية الثالثة: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال في فضل هذه السورة المباركة: «**آية فينا، وآية في بني أمية**»[2]. ربّما كانت الآية التي يقصدها أمير المؤمنين أنّها في بني أميّة هي قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِنۡ تَوَلَّيۡتُمۡ أَنۡ تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾[3]. وسنتحدّث عن هذا المضمون - إن شاء الله تعالى - فيما يأتي.

---

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٨٤.

٣. محمد: ٢٢

إذًا؛ هذه السورة تتحدّث عن الإسلام العلوي والإسلام الأموي في ميدان المواجهة والمعركة. وهذا بُعد آخر من أبعاد هذه الرواية الشريفة.

بات من الواضح والبيّن من خلال دلالة محتوى السورة ومن خلال ما أشرنا إليه من فضائلها المهمّة المباركة أنّها عن أيّ شيء تتحدّث، لكن مع ذلك كلّه إذا أردنا أن نختزل المضمون، نقول: إنّ هذه السورة ترسم حالة الاصطفاف بين معسكرين:

المعسكر الأول: هو معسكر جبهة الحقّ المتمثّل بالمؤمنين الصالحين التابعين تبعية مطلقة للقيادة الإلهيّة المتمثّلة بشخصية النبيّ محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله.

المعسكر الثاني: وهو معسكر جبهة الباطل المتمثّل بمشركي قريش الذين يواجهون خط الإيمان بكل قواهم.

فاتّضح إذًا أنّ السورة قد تصوّر لنا الاصطفاف بين هذين المعسكرين: معسكر الحق، ومعسكر الباطل.

مضمون السورة

سؤال: أيختصُّ مضمون هذه السورة بتاريخ الإسلام الذي يرتبط بالماضي فقط، أم إنّه قد تجاوز المرحلية وإنّ فيها دروسًا تتعلّق بالحاضر والمستقبل أيضًا؟

الجواب: إنها تنطوي على دروس تتعلّق بالحاضر المعاصر وبالمستقبل أيضًا، ونكتشف ونعرف هذه الدروس من الآية الثالثة منها، وهي قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَمْثٰالَهُم﴾[1]، فعندما يذكر الله تبارك وتعالى هذا الاصطفاف بين جبهة الحقّ والباطل، فإنّه سبحانه يتحدّث عن تكرار التاريخ

١. محمد: ٣

وتجدّده في كلّ زمانٍ ومكان.

ومن الأمور التي تتحدّث عنها هذه السورة أيضًا هي: طبيعة المعركة، ونتيجة المعركة، والدروس المكتسبة من المعركة والمستقاة منها، والمترتبة عليها. ومنها: تطبيق المعركة - كما قلنا - في كل زمانٍ ومكان؛ باصطفاف جبهة الحق مع القيادة الشرعية ضدّ جبهة الباطل. وهذا الدرس الذي يستشفُّ من هذه السورة - كما قلنا - يشرح خطّ ولاية الرسول وآل الرسول صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لكنّ تحقيق ذلك على أرض الواقع يكون في ميدان المعركة في مجالي النظرية والتطبيق، وليس في الاعتقاد النظري فحسب؛ فالميدان هو الخطُّ الفاصل بين الولاية الحقيقية والولاية الشكلية، وميدان المواجهة والمعركة هو الخطُّ الفاصل بين التولّي والتبرّي الحقيقيين وغيرهما.

وكذلك؛ تتحدّث السورة المباركة عن خط الأعداء، وتعرّج إلى بيان طبيعة المنافقين وخُذلانهم للحق أيضًا، وعن خطِّ الإيمان، والقيادة الشرعية، وعن المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

وكذلك؛ تتعرّض هذه السورة إلى الحديث عن السُنن الإلهيّة في الانتصار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

وتتحدّث عن حالة تحذير للمؤمنين، وذلك في الآية الأخيرة من السورة بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2]. أي أنّكم إذا تركتم المعركة والميدان، فإنّ الله يستبدلكم بقوم غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم.

وكذلك؛ تتحدّث عن سُنّة من السُّنن الإلهيّة؛ وهي سُنّة الاستبدال، فأنت تستطيع أن تغيّر مسير الجهاد إلى مسير الاستسلام. وهذا الكلام ممّا يدخل في مضمون السورة أيضًا.

---

١. محمد: ٧

٢. محمد: ٣٨

تفسير آياتها

أمّا الآيات التي نريد أن نتحدّث عنها الآن، فهي الآيات الأولى من السورة المباركة. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[1].

يُشير مجمل هذه الآيات الشريفة من السورة - وهي من الآية الأولى إلى الثالثة - إلى إجمال مضمون السورة، ثمّ يكون الحديث عن المصاديق، وهذا هو الاصطفاف.

تعريف الكفر لغةً واصطلاحًا

الكفر لغةً: الكفر في اللغة: التغطية، فالكافر هو الذي يُغطّي الحقّ والحقيقة والفطرة، مثل الفلّاح الذي يُغطّي البذرة.

الكفر اصطلاحًا: أمّا من ناحية المصطلح؛ فإنّ الكافر يُطلق على غير المسلم، ولكن هل المقصود بكلمة الكفر في القرآن الكريم كلّ شخصٍ غير مسلم؛ حتى لو كان غير المسلم كافرًا مسالمًا، أو كافرًا محايدًا، أو كافرًا معاهدًا؟ أي ربّما يكون الكافر معاهدًا، أو في ذمّة الإسلام، أو من أهل الكتاب.

الجواب: «إذا كان ذمّيًّا، فلا.

---

١. محمد: ١-٣

أقسام الكافر

يقسم الكافر إلى قسمين: كافر مقصّر، وكافر قاصر.

واليوم، أكثر الكُفّار في العالم في أمريكا وفي أوروبا وفي أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية وفي آسيا وفي أيّ مكان في العالم؛ أكثرهم أمّيون، وليس الأمّي هنا بمعنى أنّهم لا يقرأون ولا يكتبون؛ بل بمعنى أنّهم لم تصل إليهم حقيقة الإسلام بشكل واقعيّ، ولو تعرّفوا على حقيقة الإسلام لآمنوا به، فهؤلاء كفّار قاصرون. وليس الكافر القاصر هو الذي لم يسمع بوجود الدّين الإسلامي؛ بل حتى لو سمع بوجود دين الإسلام، لكنّه لا يعرف طبيعة الإسلام وحقيقته خاصةً في هذا الزمان؛ فمن خلال وجود الدواعش والتكفيريين ترتسم - على ما يظهر - بذهن هذا الكافر الصورة المشوهة للمسلم وللإسلام، فيقولون له: المسلم يعني الانتحاري، والمسلم يقتل الأبرياء، فيقرنون كلمة المسلم بتلك المفاهيم البعيدة كلّ البعد عن المسلم والدين الإسلامي، فهذا الكافر الذي يتشبّع بها يبتعد عن الإسلام. وأنا لا أقول بأنّ هذا الكافر يتملك الحجّة يوم القيامة، وإنّما أقول: إنّه كافر قاصر.

وبالمصطلح القرآني، يسمّى هذا الكافر القاصر بالكافر المستضعف. أمّا كلمة الكفر في الاصطلاح القرآني، وهذا التشدّد على الكافر، فهو الكافر المعاند، الكافر الحقود، الكافر المتكبّر والمستكبر؛ لذلك، بدأت هذه الآية هكذا: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُم﴾. الصّد عن سبيل الله؛ إمّا بمعنى الإعـراض عن سبيل الله؛ أي انصرف عن سبيل الله بنفسه؛ لكبره ولجاجته وعناده، أو صرف غيره أو منع غيره، فهذا هو معنى الصَّد. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُم﴾[1]. أضلّ أعمالهم يعني ضيّع أعمالهم وأبطلها، وهذا التضييع والإبطال يُسمّى في الثقافة القرآنية بحبط الأعمال، كما نقرأ إن شاء الله

---

١. محمد: ١

في الآيات الأخرى.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ إشارة إلى جبهة الباطل المتمثّلة في مشركي قريش في مواجهة جبهة الحقّ؛ ولذلك، يلاحظ دائمًا أنّ كلمة الكفر في القرآن فيها قيود تُقيّد بها حتى إذا أتت بنحوٍ مطلق، ومن جملة أمثلة تلك القيود: الكافر المعتدي، والكافر الظالم، والكافر الطاغوت، والكافر المحارب. والكافر الذي يصدُّ عن سبيل الله، والكافر الذي يفتن الأمّة ويفتن المسلمين بشركه، والكافر الذي يتحرّك في مواجهة الإسلام ويمنع الدعوة إلى الله تبارك وتعالى أن تصل إلى الأمّة، هو الكافر الظالم. والكافر الطاغوت ليس هو الكافر المستضعف، وهذه نقطة مهمّة، وهي أنّ الصّد - كما قلنا - الإعراض أو المنع، وطبعًا المنع أقوى، فليس بمعنى مجرّد الإعراض. **ضلّ**: يعني تاه عن الطريق؛ فمعنى ﴿اَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾؛ أنّ أعمالهم تتيه ولا تصل إلى نتيجة، فالنتيجة المتوخّاة، والأهداف التي يرسمونها لا يصلون إليها في مواجهة الحقّ، ولا شكّ في أنّهم لم يصلوا إلى النتيجة المطلوبة في مواجهة الحقّ ولا يستطيعون أن يقابلوا أهل الحقّ. وهنا بحث تفصيلي بالنسبة لقاعدة نفي السبيل لا يتّسع له المقام، لكن ربما تكون قاعدة نفي السبيل، ﴿لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1]، ليست مختصة بنفي السبيل التشريعي فقط، والإمام الراحل في كتاب البيع بحث هذه القاعدة السبيل؛ حيث يقول بنفي السبيل تكوينًا وتشريعًا؛ يعني أنّ الله سبحانه قد وضع قوةً وسلطةً لجبهة الإيمان على جبهة الباطل، إن التزمنا بالإيمان طبعًا وبلوازم هذه الجبهة كما سنتحدّث عنه إن شاء الله.

تسمية السورة باسم النبيّ ﷺ

إنّ هذه السورة سُمّيت بسورة الرسول الأكرم؛ أي باسمه المبارك؛ إذ إنّها في الآية الثانية، في مقابل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾، تتحدّث عن جبهة الحقّ

١. النساء: ١٤١

بهذه المواصفات ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[1]. فالإيمان والعمل الصالح وحدهما من دون الالتزام المطلق بالقيادة الشرعية المتمثّلة بشخصية الرسول الأكرم؛ خاصّةً في ميدان المعركة، لا يكفيان، وكأنّما القيادة الشرعية روح الإسلام الأصيل وتجسيد للإيمان والعمل الصالح.

سُمّيت هذه السورة باسم الرسول الأكرم، ولا شكّ في أنّ القرآن الكريم عادة لا يُخاطب الرسول الأكرم باسمه الخاصّ؛ فالله تعالى يخاطب الرسول ﷺ بـ: يا أيّها النّبي، ويا أيّها الرسول، بخلاف الأنبياء الآخرين فيخاطبهم بـ: يا نوح ويا هود؛ وذلك إجلالًا وتعظيمًا لشخصيّة الرسول الأقدس.

نعم؛ يوجد اسم الرسول الأكرم في أربعة مواضع، ولكن ليس بعنوان خطاب؛ بل كان ذلك إشارة إلى الرسول مع أصحابه، والرسول مع مستقبل الدعوة إلى الله، والرسول مع المقاومة والثبات، والرسول مع الالتزام بالشريعة، يعني فيها خطاب دلالة؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾[2]، فهي إشارة إلى صفة الرسالة وختم النبوة، أو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[3]، إشارة إلى الشخصيّة الحقوقيّة لرسول الله، وإلى أنّ الإسلام لابدّ أن يستمرّ حتى إذا كان القائد قد أُصيب ببلاء مثل الموت أو شهادة الإسلام، فالأهمّ واللازم أن يستمرّ، أو الآية الأخرى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[4]، وهذه الآية الشريفة تبيّن اصطفاف جبهة الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله؛ يعني يمنعون الدعوة إلى الله أن تصل إلى أهدافها، وجبهة الإيمان والعمل الصالح باتّباع القيادة الشرعية المتمثّلة بشخصيّة الرسول الأقدس، فجبهة

١. محمد: ٢
٢. الأحزاب: ٤٠
٣. آل عمران: ١٤٤
٤. الفتح: ٢٩

الباطل ﴿اَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾، ضيّعها الله، كما سنتحدّث عنها إن شاء الله. لكن ما هو نصيب جبهة الحق؟

تكفير الذنوب لجبهة الحق

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ﴾، فيكون المقصود بتكفير السيئات سترها وضمّها وحجبها، والمقصود بهذه السيئات الذنوب الصغار؛ يعني أنّ الله تبارك وتعالى يعفو عن هذا الذي يتّبع القيادة الشرعية الصالحة ويتّبع الإسلام تبعية مطلقة، إذا كان قد ارتكب بعض الزّلات والأخطاء الصغيرة. طبعًا؛ عندنا آيات تقول بشكل مطلق: ﴿اِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. إنّ مثل هذه الآيات التي تتحدّث عن غُفران الذنوب جميعًا تتحدّث عن غفران الذنوب بالتوبة والإنابة إلى الله سبحانه، ولكن توجد بعض الذنوب لا يغفرها الله تبارك وتعالى، فيقول عنها في هذه الآية: ﴿اِنَّ اللّٰهَ لٰا يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهٖ وَيَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰٓاءُ﴾، وهذا الشرك إذا كان بلا توبة، فإنّه لن يغفر؛ وإلا فالكثير من المشركين يصبحون مسلمين بالتوبة والإنابة الى الله. إذًا؛ معنى ﴿اِنَّ اللّٰهَ لٰا يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهٖ﴾ إذا كان بلا توبة. ﴿وَيَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ﴾، وما دون الشرك ربّما يكون غفرانه بدون توبة، وإلا كيف يغفره الله إذا كان مع التوبة؟ فهذه نقطة ينبغي الالتفات إليها، فالأمر هنا مثل تكفير السيئات ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ﴾؛ يعني لو تركوا الذنوب الكبار، ولكن بأيّ دليلٍ يعفو الله تبارك وتعالى عن الذنوب الصغار؟ المقصود من تكفير السيئات الذنوب الصغار بدليل الآية الشريفة ﴿اِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰآئِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ﴾[1]، فهي صريحة بذلك بدليل هذه المقابلة. إذًا؛ جميع الذنوب تُغفر بالتوبة؛ فأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا، فالشرك لا يُغفر بلا توبة، والتكفير وحده لا يكفي، ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ﴾، فالتكفير ينبغي أن يستتبع ستر العيوب - يا ستار العيوب! - والستر مقدّمة للغفران، والغفران مقدّمة للرحمة الخاصّة الإلهيّة.

---

١. النساء: ٣١

فهذه أربع مراحل، هي: التكفير، والستر، والغفران، والرحمة الخاصّة الإلهيّة؛ ولذا، فإنّ الله تبارك وتعالى غفور رحيم، وهذه الرحمة الخاصّة الإلهيّة تشملنا - إن شاء الله - وندخل الجنّة من خلالها إذا كان هناك تكفير للسيّئات؛ لذلك، لا تكتفي الآية الشريفة بـ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1]؛ يعني تكفير السيّئات بلا إصلاح البال لا ينفعنا، فماذا يعني إصلاح البال؟ المقصود بالبال الأمر، والخاطر، والقلب، والشأن. فأصلح بالهم؛ يعني أنّ الله تبارك وتعالى، بعد تكفير السيئات وسترنا وغفران ذنوبنا وشمولنا للرحمة الخاصّة الإلهيّة، يصلح بالنا ويصلح قلبنا ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]؛ يعني أنّ ذلك الإنسان قد صار مع القيادة الشرعية، فتلك الأضغان والأحقاد تزول وترتفع تدريجيًا ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[3]، و﴿لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]. إذًا؛ تكفير السيئات يستتبع إصلاح البال.

روايتان في دور اتّباع القيادة الشرعية في تكفير السيئات والنجاة

نذكر هنا روايتين مهمّتين فيما يتعلّق بدور اتّباع القيادة الشرعية في تكفير السيئات والنجاة، فمن دون هذه القيادة الشرعية؛ حتى لو كان الإنسان ظاهرًا مؤمنًا ويعمل الصالحات، فهذا الإيمان والعمل الصالح وحدهما لا ينفعانه.

الرواية الأولى: من كتاب الكافي الشريف، وهي حديث قدسيّ مهمّ جدًا: عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى عن هشام بن سالم عن حبيب السجستاني عن أبي جعفر عليه السلام الإمام الباقر، قال: «**قال الله تبارك وتعالى: لأُعذّبنَّ كلَّ رعيّةٍ في الإسلام دانت بولاية كلّ إمامٍ جائر** - يعني أنّ هذا المواطن

---

١. محمد: ٢

٢. الشعراء: ٨٩-٨٨

٣. الأعراف: ٤٣

٤. الحشر: ١٠

المسلم، إذا صار تابعًا للحاكم الجائر، فإنّه يستحقُّ العذاب الإلهيّ - **ليس من الله وإن كانت الرعيّةُ في أعمالها برّةً تقيّةً** - أي حتى لو كان يصوم شهر رمضان ويصلي صلاة الليل ويختم القرآن ويقرأ دعاء الجوشن الكبير، ولكنّه تابعٌ للحاكم الظالم، ولم يكفر بالطاغوت، فإنّ الله تبارك وتعالى يعذّبه - **ولأعفُونَّ عن كلِّ رعيّةٍ في الإسلام دانت بولاية كلِّ إمامٍ عادلٍ من الله وإن كانتِ الرعيّةُ في أنفسها ظالمةً مسيئةً**»[1] - يعني حتى لو كان عنده ظلم وإساءة لنفسه، فطالما كان تابعًا للقيادة الشرعية، فإنّ الله تبارك وتعالى يعفو عنه - وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[2]، بشرط الالتزام بخطّ القيادة الشرعية طبعًا المتمثّلة بشخصية الرسول الأقدس وأهل بيته، وتبعية ولاية محمّد وآل محمّد ﷺ، وهذا الأمر يحتاج إلى إرادة من الإنسان.

الرواية الثانية: وفيها إشارة إلى هذا الموضوع: «**مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَللَّهِ أَصْلَحَ اَللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَلنَّاسِ**»[3]. هذا فيما يتعلّق بإصلاح البال إضافةً إلى تكفير السيّئات.

وهنا نطرح السؤال الآتي: لماذا يضيع الله سبحانه أعمال الكفار الذين يمنعون عن سبيل الله وعن خطّ الدعوة، ويبطل أعمالهم، لكنّ جبهة الحقّ والإيمان ببركة القيادة الشرعية يكفّر الله سيئاتهم ويصلح بالهم ويعطيهم قلبًا سليمًا ويستطيعون أن ينطلقوا في الحياة؟ ما هو السبب؟ هو لهذا الاصطفاف، الاصطفاف بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، الالتزام بالحقّ والتسليم للحق شعبة من التوحيد، إذا التزم الإنسان بالحق، كما أنّه إذا كان الإنسان مع الباطل، فهو شعبة من الشرك والكفر والطغيان؛ لذلك، تقول الآية الشريفة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ

---

١. الكافي، ج١، ص٣٧٦، باب فيمن دان الله عز وجل بغير إمام من الله جل جلاله

٢. محمد: ٢

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ٢٤٢

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾[1]، الله يضيع أعمالهم؛ لأنّهم أتباع الباطل، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[2].

سؤال: هل هذا الأمر خاصٌّ بزمن رسول الله ﷺ حيث كان مشركو قريش وجبهة الإسلام بقيادة الرسول؟ الجواب: كلا؛ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[3]؛ فإنّ تلك الأمثلة قابلة للتطبيق على مرّ الزمان.

تحدّثنا فيما مضى إلى الآية الثالثة، والآن نريد أن نخوض في بعض الأبحاث من خلال هذه الآيات عن طريق السؤال والجواب.

نكات قرآنية

السؤال الأول: ما هو منشأ اتّباع الباطل؟ لماذا يتّبع بعض الناس الباطل؟

إنّ الباطل هو ما ليس بحقّ؛ فنقرأ نحن في دعاء الافتتاح هذه الأيام «اللهمَّ مَا عَرَّفْتَنا مِنَ الْحَقِّ فَحَمِّلْناهُ، وَمَا قَصُرْنا عَنْهُ فَبَلِّغْناهُ». فالمنشأ هو:

أولًا: الإلحاد النظري والعملي. إذا كان الإنسان مبتعدًا عن الله، فإنّه سيصير من أهل الباطل.

ثانيًا: النزعة الذاتية، حبّ الذات، والحالة النفعية، والمصالح الشخصية؛ من الثروة، والشهوة، والهوى والنفس، وحبّ الدنيا، وحبّ الجاه، وحبّ الشهرة، وهذا يسبب تبعية الباطل.

ثالثًا: الاستئثار بالسلطة، فإذا كان لدى شخص من الأشخاص سلطة ومنصب ويريد أن يحتفظ بما هو عليه بأيّ وسيلة وبأيّ ثمن كان حتى لو لم يكن ذلك من حقّه، فهذا هو الاستئثار بالسلطة.

---

١. محمد: ٣

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

رابعًا: خداع الشيطان. المكر الشيطاني هو فقدان البصيرة.

خامسًا: الرغبات والغفلة.

فهذه الأمور كلّها تسبب اتّباع الإنسان للباطل.

السؤال الثاني: لماذا بدأت الآية الشريفة ﴿اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ اَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾[1] من دون مقدّمة؟ فإنّها شرعت بالتحذير من الكفّار وإعلان خطّ العداء و(اعرف عدوك)، فركّزت من البداية على العدو وعلى معرفته، فما هو السبب؟

هناك آيات في القرآن، وفي أحد عشر موردًا على أقل تقدير، تركّز على معرفة العدو وعلى فضحه؛ مثل هذه الآية المباركة من سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿بَرَاٰءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[3]، وفي سورة الأحزاب خطابًا للنّبيّ الأكرم ﷺ: ﴿اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾[4]، وفي هذه السورة المباركة أيضًا: ﴿اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ اَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾[5]، وفي سورة الممتحنة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾[6]، وسورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاٰءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[7]، وسورة المعارج: ﴿سَاَلَ سَاٰئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[8]، ويبدأ

---

١. محمد:١

٢. الأنعام:١

٣. التوبة:١

٤. الأحزاب:١

٥. محمد:١

٦. الممتحنة:١

٧. المنافقين:١

٨. المعارج:١

بداية سريعة في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[1]، وسورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[2]، وسورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[3]، وسورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4].

إذًا؛ هذه السور تبدأ مباشرة من معرفة العدوّ والتنكيل به ومواجهته، حتى أنّ بعض السور التي قرأناها تركّز على أنّ الشدّة على العدوّ مقدّمةً على الرحمة الداخلية معه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[5]، وهذا يعني أنّ عبادة الله سبحانه و﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ تأتي بعد مرحلة الشدّة على العدوّ والحزم.

السؤال الثالث: ماذا يفعل العدوّ عندما يريد أن يمنعنا عن ميدان الدعوة إلى الله وتبليغ الدين ونشر المعارف الإلهيّة والانتصار للإسلام؟

أولًا: يستخدم الأسلوب الإعلامي، الإعلام الكاذب؛ فمثلًا: قال النبيّ شعيب ناصحًا قومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[6]؛ يعني لا تجلسوا في الطريق، فتصدّوا بالكذب والافتتان مَن آثر أن يكون مع شعيب النبيّ.

ثانيًا: السخريّة من المؤمنين - وهي من الأسلوب الإعلامي -، فيسخرون من المؤمنين وينكّلون بهم، ويشهّرون بهم حتى يسقطوهم من الأعين، السخرية بأهل الإيمان وتثبيط العزم وتضعيف النفوس ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ

---

١. البينة: ١
٢. الفيل: ١
٣. الكافرون: ٢-١
٤. المسد: ١
٥. الفتح: ٢٩
٦. الأعراف: ٨٦

وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، أو يقومون بإشاعة الفحشاء بين المؤمنين وتكثير هذه الفحشاء والتفسّخ الأخلاقي والتركيز على ذلك من خلال خط الإعلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءامَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

إذًا؛ الصدّ عن سبيل الله أسلوب إعلامي.

ثالثًا: منع إقامة الشعائر؛ هو أحد أساليب المنع من الدعوة ومن خط الحق ﴿وَما لَهُمْ أَلّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[3]. مثل بعض الحكومات التي تُهدّم المساجد، وتمنع الحسينيات، وتحاول أن تتسلّط عليها، وهذا صدٌّ عن سبيل الله.

رابعًا: منع الهجرة في سبيل الله مع الرسول والتنكيل بالذين يهاجرون في سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

خامسًا: التخذيل عن الجهاد، فيثبّطون الهمم بقولهم: لماذا تذهب مع المجاهدين؟ لا تذهب إنّهم جميعًا قد بدأوا بترك الجهاد، فلابدَّ أن تعيش كما يعيش الناس. وهذا النوع صدٌّ عن سبيل الله، وهو أسلوب المنافقين ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾[5] أو ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

---

١. التوبة: ٧٩

٢. النور: ١٩

٣. الأنفال: ٣٤

٤. الحج: ٢٥

٥. النساء: ٧٢

فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[1].

سادسًا: النّهي عن الإنفاق في سبيل الله. إنّ جبهة الحقّ تحتاج إلى ثروة؛ فرسول الله ﷺ انتصر بسيف عليٍّ ومال خديجة، فهؤلاء يمنعون أن تصل الأموال إلى المجاهدين. الآية الشريفة تقول: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنٰافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

سابعًا: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف؛ كما في قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3]. هذا أسلوب أيضًا للصدِّ عن سبيل الله.

ثامنًا: إنفاق المال للصد عن سبيل الله. وهذا الأسلوب يختلف عن أسلوب منع الأموال من أن تصل إلى المجاهدين؛ فإنّهم ينفقون أموالًا كثيرةً حتى يوقفوا حركة الجهاد في سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[4]. ونحن شاهدنا بأعيننا أنّ أمريكا في هذا العصر قد أنفقت في قضية الدواعش والتكفيريين عشرات التريليونات من الدولارات كما يقولون، لكنّ محاولاتهم كلّها باءت بالفشل، فذهبت وصارت حسرة عليهم، والمنطقة اليومَ أخذت تتحوّل - والحمد لله - إلى منطقة تصب في صالح جبهة المقاومة. وللحديث تتمة - إن شاء الله تعالى - في الجلسة القادمة، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

١. التوبة: ٨١

٢. المنافقون: ٧-٥

٣. التوبة: ٦٧

٤. الأنفال: ٣٦

المحاضرة الثانية

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٦-٤

أحكام المواجهة الميدانية للعدو

هذه الآية الشريفة تتحدّث عن أحكام الاشتباك والمواجهة الميدانية في القتال. الفاء في كلمة ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للتفريع؛ يعني يتفرّع على الاصطفاف بين جبهة الحقّ والباطل، حيث تحدّثت الآية السابقة عن هذا الاصطفاف، فيتفرّع عنه مواجهة الكفّار الظالمين المعتدين الطُغاة المحاربين لله وللرسول، الذين يصفهم القرآن الكريم في آيات عديدة بأنّهم هم العائق الكبير في مسير الحق، ويستفيدون من كلّ إمكانياتهم لمواجهة الحقّ؛ مثلًا: يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1]، وهذا يعني أنّهم بالتالي متصدّون. أو يقول تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[2]، والإلّ: يعني العهد؛ أي لا يلتزمون بالعهود. والذمة: أي لا يراعون شخصية وكرامة للإنسان المؤمن؛ بل إنّهم يحاولون دائمًا إذلال المؤمنين وإضعافهم وضربهم، والله تبارك وتعالى في الآيات السابقة وصفهم بأنّ أعمالهم ضائعة ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ بمعنى أنه لا يستطيع هؤلاء أن يحقّقوا أهدافهم، ووعد المؤمنين في الآيات السابقة بغلبة الحق على الباطل، وذلك بأنّ الله تبارك وتعالى يكفّر السيئات عن المؤمنين (جبهة الحق) ﴿وَأَصْلَحَ

---

١. البقرة: ٢١٧

٢. التوبة: ١٠

بِاَلَهُمۡ﴾. وفي آيات أخرى يصرّح بغلبة الحقّ على الباطل؛ مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ اَنۡ يُحِقَّ الۡحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ الۡكَافِرِينَ﴾[1].

إذًا؛ من خلال هذا الأمر، إذا حدث اشتباك ومواجهة عسكرية بين جبهة الحق وجبهة الباطل التي تتّصف بهذه الأوصاف؛ إذا حصل اشتباك ولقاء في الحرب والميدان؛ لا في الطريق، ولا في المدن، ولا في البلدان المسالمة ﴿فَاِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرۡبَ الرِّقَابِ﴾[2]. المقصود باللقاء هنا: اللقاء في الحرب، وليس اللقاء في المدن والمحافظات والبلدان. كما إذا رأى شخص مثلًا أحد الكفار، فيقول: هذا كافر، فيجب قتله، فهنا الكافر ليس بمحارب، فليس كلُّ كافرٍ محاربًا، وإنّما هذا الأمر في المقام يتعلّق بميدان الاشتباك ﴿فَاِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرۡبَ الرِّقَابِ﴾، ضرب الرقاب كناية عن القتل، بمعنى أنّه لا تتردّدوا في قتل هذا الكافر الظالم الطاغي الذي اعتدى، ويحاول إضعاف المؤمنين وإذلالهم، لا تتردّدوا في قتله في ميدان المواجهة؛ سواء أكان هذا القتل بالضرب أم بالطعن بالرماح أم بالرمي بالسهام أم بالأسلحة المعاصرة، مثل الرمي بالسلاح الفردي أو الطعن بالسكين أو التفجير أو بنار المدفعية أو الصواريخ أو الطائرات المسيّرة، فالمقصود من ضرب الرقاب الغِلظة والشدّة في ميدان المواجهة؛ كما يقول الله تعالى: ﴿جَاهِدِ الۡكُفَّارَ وَالۡمُنَافِقِينَ وَاغۡلُظۡ عَلَيۡهِم﴾[3]. المقصود بضرب الرقاب هو هذا، وإلّا فضرب الرقاب ليس له موضوعية بنفسه فضلًا عن قطع الرقاب، فهو ليس له موضوعية أيضًا، فهو كناية عن القتل في ميدان الاشتباك، فإذا لم تقتله في المواجهة، فهو يقتلك.

وهناك آيات أُخرى تشرح هذا الأمر؛ فمثلًا: في شرح ما جرى في غزوة بدر، وتسديد ملائكة الله تبارك وتعالى يقول: ﴿اِذۡ يُوحِي رَبُّكَ اِلَى الۡمَلَائِكَةِ اَنِّي مَعَكُمۡ

١. الأنفال: ٧

٢. محمد: ٤

٣. التوبة: ٧٣

﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1]؛ يعني: في ميدان المواجهة والاشتباك، ينصر الله تبارك وتعالى جبهة الحقّ عن طريق إلقاء الرعب في قلوب جبهة الباطل وجبهة الطغيان، والله يأمر الملائكة بأن تُسدّد جبهة الحق.

ونحن رأينا هذا في عصرنا؛ فمثلًا: في حرب تموز حرب الثلاثة والثلاثين يومًا، كان حزب الله لبنان في مواجهة الجيش الفاتك الصهيوني، وكان الإخوة في الاشتباك في الخطوط الأمامية، يجعلون مجاهدًا واحدًا في «الدِّشَم»؛ أي في السواتر الأمامية التي يسمّونها الدشم، فكانت مهمّة هذا الشخص المجاهد الواحد أن يقابل فوجًا، واستطاعوا، فشخص واحد ينتصر على فوج، فقد كان الإسرائيليون خائفين مذعورين.

الأمر المهم الذي ينبغي الالتفات إليه هو أنّ تسديد الملائكة هذا وإلقاء الرعب لا يختصُّ فقط بغزوة بدر؛ بل دائمًا وأبدًا، في الاشتباك بين جبهة الحق وجبهة الباطل، يجعل الله الرعب في قلوب الكفّار ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾[2]، فهذه الآية الشريفة لم تقل: فضرب الرقاب؛ بل فاضربوا فوق الأعناق، وفوق الأعناق يعني اضربوا رؤوسهم؛ أي اقتلوهم. ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[3]، بَنَان: يعني هذه اليد التي تحمل السلاح، اقطعوا أيدهم؛ أي حتى لا يحملوا السلاح.

إذًا؛ الضرب فوق الأعناق أو ضرب الرقاب أو القطع الذي يتعلّق بالبَنَان بنفسه لا موضوعية له؛ فلأيّ شيء تكون الموضوعية؟ الجواب: للقتل والغلبة على الكفار. فلماذا هؤلاء يستحقّون القتل؟ يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ

---

١. الأنفال: ١٢

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

وَرَسُولَهُۥ﴾[1]، فهم أهل شقاق وحرب ضدّ الله وضدّ الرسول ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2]. إذًا؛ اتّضح الأمر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[3]؛ أي في ميدان الاشتباك العسكري تحت قيادة عسكرية؛ من فوج، أو كتيبة، أو فصيل، أو مجموعة تقدّمت في الميدان بمهمّة قتالية، يتوكّلون على الله ولا يتردّدون في إنجاز تلك المهمّة؛ لأنّ هؤلاء الذين يواجهونهم يستحقّون القتل نتيجة الجرائم التي ارتكبوها.

نهاية الاشتباك مع الأعداء

ثمّ إنّ هذا الاشتباك إلى أيّ مرحلة يستمر؟ متى تنتهي المنازلة والاشتباك؟ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾[4]، غاية الاشتباك القهر والغلبة والاستيلاء على العدو والانتصار عليه، وهذا معنى الإثخان. طبعًا؛ الإثخان يعني المبالغة في القتل والغلبة والقهر والاستيلاء.

أحكام الأسير

وتوجد آية أخرى تتحدّث عن هذا الإثخان؛ إذ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5]؛ يعني قبل الإثخان وقبل إنهاء المعركة لا يجوز أسر العدو؛ لأنّ هذا الذي تأسره أثناء الحرب وأثناء المعركة قد ينقلب عليك ولا تستطيع السيطرة عليه، فقد تنعكس المعادلة ويستولي هو عليك، وتتبدّل المعركة ضدّ الحقّ؛ بل يكون الأسر بعد هزيمة العدو بشكل كامل، فما تبقّى من الأعداء الذين كانوا

١. الحشر: ٤
٢. نفس المصدر
٣. محمد: ٤
٤. نفس المصدر
٥. الأنفال: ٦٧

مثخنين بالجراح أو ثقالًا شُلّت حركتهم وكنتم أنتم مستولين عليهم، حينئذ تأخذونهم أسرى. تقول الآية: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[1]، شدوا الوثاق: يعني أحكموا الربط، اربطوهم؛ بحيث يكونون تحت قبضتكم، فالمعنى يصبح: بعد الإكثار من قتلهم والغلبة عليهم وحسم المعركة، تصل النوبة إلى أسر الباقين الذين استوليتم عليهم بشدّ الوثاق وإحكام السيطرة. والوثاق: يعني الحبل، ربط كلّ شيء.

ثمّ إنّ الشدّ ليس له موضوعية هنا أيضًا، فقد تكون أنت صاحب سيطرة عليه من دون شدٍّ.

وبعد الأسر، تكون الدولة التي يرأسها إمام المسلمين مخيّرةً بين إطلاق سراح الأسير دون عوض؛ أي مَنًّا، وبين إطلاقه بعوض؛ أي فداءً، وهذا هو صريح الآية الشريفة؛ حيث تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بعد الأسر. طبعًا؛ من خلال آية سورة الأنفال التي تقول: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، يتضح أنّ الآية فيها نهي عن أخذ الأسير أثناء المعركة، والفقهاء يفتون بهذا الأمر، وهو أنّ أخذ الأسير أثناء المعركة لا يجوز. فهذه الآية من السورة المباركة تؤكد على هذا المبدأ أيضًا، وهو أنّ أخذ الأسير يكون بعد الإثخان.

وفي هذا الصدد، توجد مسألة شرعية أذكرها من كتاب الجواهر، يقول صاحب الجواهر: لا يجوز للإمام أن يأسر أحدًا من جيش العدو ما دامت الحرب قائمة، ولم تظهر له الغلبة فيها، أمّا إذا ظهرت له الغلبة على العدوّ، فالمشهور عدم جواز قتل الأسير، فالأسير الذي يؤسر لا يجوز قتله[3]؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا

---

١. محمد: ٤

٢. الأنفال: ٦٧

٣. جواهر الكلام، ج٢١، ص١٢٣.

﴿لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[1]؛ أي بعد شدّ الوثاق والأسر؛ ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[2]، بعد ذلك لا يجوز القتل؛ خلافًا للدواعش والتكفيريين الذين يأخذون الأسير وينكّلون به ويعذّبونه ويقطعون رأسه ويحرقونه، وهذا خلاف صريح الآية الشريفة، وفتوى فقهاء أهل البيت عليهم السلام كما ترون: حتى تضع الحرب أوزارها.

لكن توجد فتوى للشيخ الطوسي لا بأس بذكرها هنا، فقد نسب الشيخ الطوسي إلى الأصحاب أنّهم رووا أنّ الإمام مخيّر بين القتل وبين المنِّ وبين الفداء والاسترقاق بعد الإثخان.

ولكن بنظرنا القاصر أنّ هذه الفتوى خلاف صريح الآية الشريفة، فالآية صريحة بأنّه لا يجوز القتل ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، فإذا كانت هناك رواية أيضًا تنقل خلاف صريح الآية، لا يؤخذ بها، مضافًا إلى ذلك؛ عندنا روايات معارضة لهذه الفتوى التي يذكرها الشيخ الطوسي، وبالتالي فتوى الفقهاء المعاصرين ومراجع الشيعة، وكذلك فتوى صاحب الجواهر، هي عدم جواز قتل الأسير؛ بل من الإنسانية ومن قواعد حقوق الإنسان في الحرب أو ما يسمونه بـ (قانون الإنسان)، الإحسان إلى الأسير، ونحن أصحاب مدرسة أهل البيت نفتخر بذلك؛ حيث من فضائل أئمتنا ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3]، وما فعله أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إلى ابن ملجم المرادي أمر معروف وواضح، فلا حاجة للتوسع فيه.

فلسفة الجهاد في سبيل الله

على أيّة حال؛ وصلنا إلى قوله تعالى: «**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**». الأوزار:

---

١. محمد: ٤

٢. نفس المصدر

٣. الإنسان: ٨-٩

الأثقال، وهذه الآية الشريفة تعليل لا للتقييد؛ بمعنى أنّ حكم ضرب الرقاب والإثخان والأسر والاشتباك والجهاد في مواجهة جبهة الاستكبار والكفر الطاغي مستمر حتى وضع العدو عن القتال؛ يعني إلى أن تصل إلى قوّة ردع؛ إمّا من خلال عهد أو اتفاقية سلام بأن لا يعتدي العدوُّ على الدعوة الإسلامية والدعوة إلى الله والأمة الإسلامية والحالة الإسلامية والخط الإسلامي ويتنازل، أو أن يكون ضعيفًا بنحوٍ لا يكون بوسعه أن يشنَّ حربًا على المؤمنين وجبهة الإيمان وجبهة الحق؛ فمعادلة الردع يجب أن تكون قوية بحيث تصلون إلى هذه المرحلة «**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**»؛ يعني حتى ردع العدو عن القتال، وبالتعبير المعاصر؛ حتى صناعة التوازن في الرعب وقوة الردع، وهذا في المرحلة الأولى. أمّا اليوم، فالعدو يحاول أن يذلّ المجتمع الضعيف، فنحن مأمـورون بصناعة القوّة للإسلام وتحويل الضعف إلى قوّة بموجب آيات وروايات عديدة لا يتّسع المقام لبيانها. والشاهد على ذلك أنّ أحد أبعاد فلسفة الجهاد في الإسلام هو إنتاج القوّة واستخدامها في مواجهة العدوّ إلى درجة قهره وإضعافه وإذلاله؛ شريطة أن يكون هذا الجهاد تحت ظلّ قيادة كفوءة شرعية في زماننا متمثّلة هذه القيادة بقيادة الولي الفقيه النائب لبقية الله المنتظر وصاحب الدولة والسلطة والسلطان المبسوط اليد مثل الإمام الراحل ﷺ، والخلف الصالح للإمام الراحل آية الله العظمى الإمام الخامنئي حفظه الله. «**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**»؛ يعني حتى لا يستطيع العدو أن يستخدم السلاح في مواجهة جبهة الإيمان.

إذًا؛ فلسفة الجهاد في الإسلام؛ هي تحقيق العدل والأمن والسلم والصلح الدولي؛ لأنّ سيف الجهاد مسلولٌ ضدّ الطغاة والمستكبرين لإنقاذ المستضعفين؛ كفارًا كانوا أو مسلمين. وهذه نقطة مهمّة جدًا.

ومن هنا؛ نستطيع أن نقول: إنّ فلسفة الجهاد هي قلع جذور الفساد والظلم والاعتداء على البشرية جمعاء، وهذا معنى قوله تعالى: «**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**»؛ أي طالما يوجد الطاغي، ويوجد الظالم، يوجد المفسد في

الأرض، ويوجد معتدٍ على البشرية، فينبغي أن يكون هناك سيف جهاد مشهورًا لمواجهته، حتى ينتهي هذا الأمر، وهذا ما نفهمه من هذه الآية؛ لأنّها لبيان الغاية وتعليل لضرب الرقاب؛ أي أنّ ضرب الرقاب يستمر حتى نهاية الاشتباك ونهاية حالة الحرب.

ومن تطبيقات هذا المبدأ على أرض الواقع، ما حصل في الجمهورية الإسلامية، فالجمهورية الإسلامية، قبل انتصار الثورة الإسلامية، كانت من ناحية القوّة تابعة لأمريكا ولإسرائيل، بحيث عندما فرّ الشاه من إيران وانتصرت الثورة كان في إيران خمسة وخمسون ألف مستشار أمريكي، وهؤلاء فروا أيضًا، والجيش لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا. وبعد سنةٍ أو سنتين من انتصار الثورة، بدأت حرب صدام ضدّ الجمهورية الإسلامية، وكان في مواجهة صدام في البداية الشعب الإيراني الذي لا يجيد استخدام السلاح الفردي، فأنا بصفتي من أهل الأهواز، كانت عندنا هناك في خوزستان الفرقة الثانية والتسعون المدرّعة وفيها لواء واحد، وهذا اللواء فيه أربع دبابات، نعم، أربع دبابات فقط مقابل جيش صدام الذي كان مدعومًا من الشرق والغرب وأربع وأربعين حكومة. طبعًا؛ كانوا يظنون أنّهم سيصلون إلى طهران في مدّة وجيزة، ولكن بالتوكّل على الله وبالتعبئة الجهادية وبإطاعة الولي الفقيه، تشكّلت بالتدريج قوة إيرانية تحوّلت من قوّة تابعة لأمريكا والصهاينة إلى دولة تمتلك قوّة الردع الداخلي، بحيث إذا اعتُدي عليها تستطيع أن تدافع عن نفسها. وبعد تشكيل قوّة الردع، وصلت إلى مرحلة ثالثة؛ هي مرحلة قوّة الاشتباك المتبادل؛ بمعنى أنه إذا اعتدوا بضربة على الجمهورية الإسلامية، فبإمكانها أن ترد عليهم هذه الضربة. والآن قد وصلنا إلى قوّة الضربة الأولى (المبادرة)، وقوّة الردع هذه صنعت قوّة التوازن بحيث إنّ العدوّ يهاب هذه الدولة المقتدرة العزيزة، ويحاول الآن مواجهة الجمهورية الإسلامية بشكل آخر من خلال الحظر الاقتصادي ومن خلال الحرب الناعمة ومن خلال تجنيد العملاء . إذًا؛ هذه حالة معاصرة يمكن اعتبارها مصداقًا للآية.

سبب عدم انتقام الله من الكافرين والظالمين

تقول الآية الشريفة: «**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ**». قد يسأل سائل: لماذا لم ينتقم الله تبارك وتعالى من الكفّار الظالمين ويخلّصنا منهم؛ بزلزال، أو بطوفان، أو بعذاب كبير، وينتهي الأمر دون حاجة إلى الجهاد؟ تقول الآية: «**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ**»؛ أي لانتقم منهم، ولكن لماذا لم ينتقم؟ «وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ»، فالهدف من الجهاد هو اختبار وتجربة وامتحان لجبهة الحق.

وهناك فرق بين القاعدين والقائمين، بين المجاهدين والمتخلّفين، وهذا في ميدان الحساب الإلهيّ مهمٌّ؛ يعني هنا خبر لمبتدأ محذوف فيها تقديره: (والأمر ذلك)؛ أي أنّ هذا الصراع بين جبهة الحق وجبهة الباطل مستمر، ولابدّ من خوض المعركة والاشتباك لإنهاء الفساد والطغيان والظلم والاعتداء من ناحية الكفّار، عن طريق المواجهة والاستعداد والتهيؤ المستمر ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّه﴾[1] لجبهة الحق في مواجهة الباطل، لا الاتكال على الانتقام الإلهيّ؛ فالبعض يظنّ أنّ الدعاء وحده كافٍ في ذلك، فيدعو الله لينتقم منهم وينتهي الأمر من دون حركة، وهذا وحده غير كافٍ؛ بل يجب العمل بالتكليف. وجاء هذا المعنى في عدّة آيات أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[2]؛ أي لولا الجهاد وأنّ الله تبارك وتعالى يسخّر المجاهدين في مواجهة أهل الباطل والظلم والطغيان والفساد، لانتشر في عموم الكرة الأرضية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾[3]؛ يعني أنه لولا الجهاد، لما عُبِدَ الله على الأرض، ولتسلّط الطغاة وسيطروا على العالم، كما أنّهم

---

١. الأنفال: ٦٠

٢. البقرة: ٢٥١

٣. الحج: ٤٠

يريدون تلك السيطرة، لكنّهم لن يستطيعوا بإذن الله، فالعالم، عندما انتصرت الثورة الإسلامية، كان منقسمًا إلى معسكرين: معسكر شرق، ومعسكر غرب، وحرب باردة، واليوم انقسم العالم إلى قسمين: معسكر الاستكبار العالمي المتمثل بأمريكا والصهيونية الذين يمثّلون جبهة مشركي قريش في صدر الإسلام، والمعسكر الثاني؛ معسكر المقاومة الإسلامية، ومحور المقاومة الإسلامية اليوم هو المتصدّي والمعسكر القويّ للأمة الإسلامية؛ لاستعادة كرامة الأمة واستعادة بناء الأمة وعزّتها. نعم؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، فالله سبحانه يمكنه أن ينتقم، لكنّه شرّع هذا الجهاد؛ فإذا كانت الصلاة عمود الدين، فالجهاد أيّها الإخوة خيمة الدين، فهذا العمود يحتاج إلى خيمة؛ فالصلاة من دون هذه الخيمة لا معنى لها، والجهاد يحفظ هذه الصلاة. على أيّ حال؛ ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾. البلاء - كما قلنا - يعني الامتحان والتجربة، والآية تعليل لعدم الانتقام؛ يعني لماذا لا ينتقم الله سبحانه من الكفّار؟ من أجل البلاء الإلهيّ، وهو ضرورة في خوض المعركة. وتوجد آيات أيضًا تبيّن هذا المعنى؛ مثل الآية الشريفة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[3] للتمحيص: للامتحان، ففرق بين القاعد والمجاهد، وهذا من الضروري أن يكون واضحًا.

فضائل الشهداء والمجاهدين

ثم تقول الآية الشريفة ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤

١. الحج: ٤٠
٢. آل عمران: ١٤٢
٣. آل عمران: ١٤١

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1]، هذه فضائل الشهداء في سبيل الله. وتوجد قراءة أخرى لهذه الآية؛ وهي: (والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يُضّل أعمالهم)؛ يعني: المجاهدون، لكنّها خلاف قراءة الجمهور؛ فالقراءة الموجودة في المصاحف اليوم هي قراءة حفص عن عاصم ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2]؛ أي هذه فضائل الشهداء، وهي أقوى.

وكيف كان؛ فهذه الفضائل التي نذكرها الآن هي مشتركة بين الشهداء والمجاهدين، حتى عندنا في الروايات أنّ المجاهد المستمر في جهاده حتى لو مات في نهاية مسيرة الجهاد حتف أنفه، فقد مات شهيدًا في سبيل الله بشرط أن يكون مستمرًا على خطّ الجهاد في سبيل الله.فما هي تلك الفضائل؟ وما هي الآيات التي تدل عليها؟

أولًا: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي لن يبطل أعمالهم الصالحة، فكيف لن يبطل أعمالهم الصالحة؟ الشهيد عنده أعمال صالحة كثيرة في الدنيا، وهذه الأعمال الصالحة للشهيد تنمو وتزكو وتكثر وتترتّب عليها بركات وخيرات كثيرة لمجتمعه، وله في البرزخ ويوم القيامة أعماله، فأعمال الشهيد لا تضيع، كما لو أوقف شخص ماله وقف تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة، وهذا أوقف نفسه في سبيل الله، وفداها في سبيل الله؛ هذا الفداء في سبيل الله لن يضيع في الحساب الإلهيّ، فتأملوا هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾[3]، فإذا صار أحد الأشخاص مجاهدًا ولا يتخلّف عن القائد ومستعدًا لأن يفدي نفسه فداء للقائد وللإسلام، فماذا يحصل بعد ذلك؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾؛ أي عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾؛ أي تعب، تعب الجهاد وعرق الجهاد، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فقرٌ،

١. محمد: ٦-٤

٢. آل عمران: ١٦٩

٣. التوبة: ١٢٠

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾، أيُّ موقف أو عمل يغيظ الكافر المحارب لله وللرسول، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ انتصارًا أو هزيمةً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وأيّ إحسان أكبر من القتل في سبيل الله والشهادة في سبيله؟! ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، الذين قاتلوا في سبيل الله أيضًا لن يضل أعمالهم ويوفيهم أجورهم؛ سواء أكانوا مجاهدين أم شهداء، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وهذا أيضًا من بركات وجود الشهيد، فعمله وبركات عمله وخيراته تبقى إمدادًا إلهيًّا للمقاتلين بعدهًا.

ثانيًا: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾، السين للتأكيد، وليست سين الاستقبال التي تدخل على الفعل المضارع، وهو تأكيد على أنّ الهداية تشملهم، فما معنى أنّ الهداية تشمل الشهيد؟ المقصود؛ الهداية فيما يتعلّق بمبدأ الشهيد في الدنيا؛ يعني أنّ الحركة التي كان يتبعها الشهيد تهتدي وتسير على درب الشهيد، وهو يهتدي بعد شهادته إلى الدرجات الرفيعة العالية الإلهية.

ثالثًا: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، يصلح الله بال الشهيد؛ يعني أمر الشهيد، وشأنه، وقلبه، وهذا يعني أنّ بال الشهيد مرتاح، فهناك مجاهدون يسيرون على دربه، وهو همّه من ناحية ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]؛ رعايته وشفاعته وكرامته ولطفه وإشرافه بالنسبة إلى الحركة الجهادية. باله مرتاح، مثلما تقول الآية الأخرى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

رابعًا: «**وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**»، إنّ الله تبارك وتعالى يعرّفه الجنة

---

١. التوبة: ١٢١

٢. آل عمران: ١٦٩

٣. آل عمران: ١٧٠

ومقامه فيها، فيقول له: هذا مقامك الذي لا يضيع هناك، فيعرف موطنه ومنزله، ويمرح في الجنة حيث يشاء. طبعًا؛ يوجد قول ثانٍ في أنّ المقصود بعَرَّفها مأخوذ من العرف، والعرف هو طيبٌ ومسكٌ، فالله تبارك وتعالى يستقبل الشهداء في الجنة عن طريق الملائكة بريحٍ طيّبة يُعرّفها لهم؛ أي أنهم يعرفون الجنة من خلال ريحها وطيبها ومسكها.

روايات في فضل الجهاد

وفي ختام هذه المحاضرة نذكر مجموعة روايات تتعلّق بفضل الجهاد والشهادة، نذكرها لكم من وسائل الشيعة الباب الأول.

الرواية الأولى: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي السَّيْفِ وتَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ ولَا يُقِيمُ النَّاسَ إِلَّا السَّيْفُ والسُّيُوفُ مَقَالِيدُ الْجَنَّةِ والنَّارِ**»[1]. فماذا يعني قوله: الخير كلّه في السيف؟ هل يعني أنّ الإسلام يدافع عن العنف أو يروّج له؟ كلا؛ ليس المقصود ذلك؛ فهم أشّداء على الكفار رحماء بينهم، وإنما المقصود بذلك هو أنّ صناعة القوّة للإسلام بالجهاد في سبيل الله، فهو يصنع القوّة للإسلام، فالله تبارك وتعالى يريد للمجتمع الإسلامي أن يكون قويًا؛ لأنّ الله سبحانه يبغض المؤمن الضعيف الذي لا زِبْر له؛ أي لا قوّة له، فالمجتمع القويُّ هو المطلوب، والسيف كناية عن قوّة المجتمع الإسلامي وقوّة الأمّة الإسلامية. طبعًا؛ هذه القوّة ربّما تكون قوّة ثقافية وقوّة علمية وقوّة اقتصادية وقوّة اجتماعية وقوّة سياسية وقوة أمنية، لكنّ هذه القوّة كلّها، إذا كانت موجودة ولم تكن القوة العسكرية موجودة معها، فإنها تضيع، فالمستكبر يتسلّط ويأخذ هذه القوّة كلّها. هذا هو معنى (الخير كلّه في السيف). ثم يقول: والسيوف مقاليد الجنة والنار؛ أي في ميدان الاشتباك. إذًا؛ الجهاد يُحدّد مَن هم أهل الجنة ومن هم أهل النار، كما جاء في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قسيم

١. وسائل الشيعة، ج١٥، ص٩

النار والجنة؛ أي بسيفه البتّار الذي يفصل بين الحق والباطل على أحد المعاني.

الرواية الثانية: المجاهدون عندهم خطٌّ عسكري خاصٌّ يدخلون من خلاله إلى الجنة. الجنة فيها ثمانية أبواب، أحد تلك الأبواب باب الخط العسكري للجنة، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ بَابُ الْمُجَاهِدِينَ يَمْضُونَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مَفْتُوحٌ وَهُمْ مُتَقَلِّدُونَ بِسُيُوفِهِمْ وَالْجَمْعُ فِي الْمَوْقِفِ وَالْمَلَائِكَةُ تُرَحِّبُ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ فَمَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ عز وجل ذُلًّا وفَقْراً فِي مَعِيشَتِهِ وَمَحْقاً فِي دِينِهِ إِنَّ اللَّهَ عز وجل أَغْنَى أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا وَمَرَاكِزِ رِمَاحِهَا**»[1]. هذا الباب الخاص باب المجاهدين. أيّها الإخوة! باب الشهداء، هو باب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وباب شهداء كربلاء، والمجاهد والشهيد في كلّ عصر يدخل من هذا الباب؛ لذلك، فإنّ باب الحسين أسرع سفينة، وتتجسّد هذه السفينة الحسينية في ميدان الجهاد والمعركة والاستعداد للجهاد والتضحية والفداء والشهادة في سبيل الله.

الرواية الثالثة: بإسناده أيضًا قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خُيُولُ الْغُزَاةِ فِي الدُّنْيَا خُيُولُهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّ أَزْدِيَةَ الْغُزَاةِ لَسُيُوفُهُم**»[2].

الرواية الرابعة: بالإسناد نفسه أيضًا قال: «**قال النّبيُّ: أخبرني جبرئيل بأمر قرّت به عيني وفرح قلبي** - أي فرح رسول الله بهذا الخبر، فماذا أخبره جبرئيل؟ - **قال: يَا مُحَمَّدُ مَنْ غَزَا مِنْ أُمَّتِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَصَابَهُ قَطْرَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ صُدَاعٌ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ شَهَادَةً**»[3]. أيُّ تعبٍ يصيب المجاهد، فبه تكتب له شهادة يوم القيامة، ورسول الله فرح بهذه الشهادة.

الرواية الخامسة: وهي تشير إلى أنّ الشهيد يدخل الجنة بلا حساب. عن

---

١. الكافي، ج٥، ص٢

٢. الكافي، ج٥، ص٣

٣. نفس المصدر

أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قيل للنّبي صلى الله عليه وآله: مَا بَالُ الشَّهِيدِ لَا يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُ صلى الله عليه وآله: كَفَى بِالْبَارِقَةِ فَوْقَ رَأْسِهِ فِتْنَة**»[1]. نفس حضوره في ميدان الاشتباك هو حساب له، فلا يسأله منكر ونكير بعد ذلك، هو محاسب انتهى حسابه، إنه الشهيد المؤمن المتّقي الصادق المخلص الذي يشعر بالمسؤولية ومستعد لأن يفدي نفسه في سبيل الله؛ فداء للإسلام وفداء لخط أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

الرواية السادسة: هذا الباب فيه اثنتان وتسعون رواية وهو الباب الأول، لكن أقرأ لكم هذه الرواية، فكان الإمام الراحل يقرأها كثيرًا، وهي في حقّ الشهداء. أصل الرواية عن زيد بن عليّ عن أبيه؛ أي الإمام السجاد، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للشهيد سبع خصالٍ من الله: أول قطرة من دمه مكفول له كلُّ ذنب، والثانية يقع رأسه في حِجر زوجتين من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه وتقولان: مرحبًا بك! ويقول هو مثل ذلك لهما، والثالثة يُكسى من كسوة الجنة، والرابعة تبتدره خزنة الجنة بكلّ ريح طيبة أيّهم يأخذه معه** - هذا الذي قلنا: الجنة عرّفها لهم؛ يعني الملائكة تنشر هذه الريح الطيبة - **والخامسة أن يرى منزله** - منزله في الجنة - «وَالسَّادِسَةُ يُقَالُ لِرُوحِهِ اسْرَحْ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ وَالسَّابِعَةُ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ اللَّهِ وَإِنَّهَا لَرَاحَةٌ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَشَهِيدٍ»[2].

أيّها الإخوة الكرام! حقُّ الشهداء علينا كبير، وينبغي أن نروّج ثقافة الشهداء، ونمط سلوكهم، ونعاهد الشهداء على الاستمرار على دربهم المقدّس، والبكاء على أبي عبد الله الحسين عليه السلام والحضور في مجلس أبي عبد الله الحسين، يعني تجديد العهد مع سيد الشهداء والشهداء الكرام بأنّنا ثابتون على هذا الخط، وكلمتنا دائمًا وأبدًا: **(يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزًا عظيمًا)**، و**(إني سلمٌ لمن سالمكم وحربٌ لمن حاربكم)**، فينبغي أن نعرف في أيّ جبهةٍ نحن في حالة مواجهة الحقّ والباطل.

---

١. الكافي، ج٥، ص٥٤

٢. وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٦

نكتفي بهذا المقدار، وإلى جلسةٍ أخرى إن شاء الله، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

المحاضرة الثالثة

﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا اِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدٰامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَاَضَلَّ اَعْمٰالَهُمْ ۝٨ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاَحْبَطَ اَعْمٰالَهُمْ﴾[1].

١. محمد: ٧-٩

نصرة الله والإمداد الغيبي

تتحدّث هذه الآيات الشريفة عن قاعدة قرآنية عامّة وهامّة واستراتيجية تعتبر من السُنن الإلهيّة، ومن مجرّبات الثورة الإسلامية والمقاومة الإسلامية في عصرنا؛ حيث وجدنا أنّ هذه المعادلة قد تحقّقت كثيرًا، معادلة نصرة دين الله ومعادلة نزول الإمداد الإلهيّ الغيبيّ؛ لذلك نتحدّث عن هذه الآيات من خلال ما يلي:

نصرة الله

النقطة الأولى: معنى ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ﴾، ماذا تعني نصرة الله؟ الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى نصرة العبد؛ فهو الخالق، والمالك، والرّب الولي الذي له جنود السماوات والأرض، لكن لجهة اللطف بالعباد، وتحريض العباد على أداء الوظيفة والواجب الشرعي، فتارة يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضٰاعِفَهُ﴾[1]، مع أنّ لله خزائن السماوات والأرض. وتارةً أخرى يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَنْفُسَهُمْ وَاَمْوٰالَهُمْ بِاَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2]، مع أنّه سبحانه هو خالق النفس والمال ماله. هنا أيضًا بهذا التعبير؛ يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا

---

١. البقرة: ٢٤٥

٢. التوبة: ١١١

اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، فنصرة الله تعني نصرة دين الله عقيدةً وشريعةً وسلوكًا وأخلاقًا وقيمًا وقاعدةً وقيادةً وفي كلّ المستويات، بالقلب واللسان واليد، وأحد أبرز مصاديق نصرة دين الله هو الحضور الفاعل في الساحة والميدان والاستعداد للجهاد والقتال لوجه الله تأييدًا للدين وإعلاءً لكلمة الله، لا أن يكون الجهاد للاستعلاء أو لكسب الغنيمة أو إظهار الشجاعة أو قضايا أخرى؛ إذ لا قربة إلا لله تبارك وتعالى، فعند ذلك تتحقّق المعادلة ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾.

النصر الإلهيّ ومصاديق نصرة الله

المقصود بالنصر الإلهيّ تهيئة أسباب الانتصار والغلبة؛ مثل: إلقاء الرّعب في قلوب الأعداء، وتشجيع المؤمنين، وبثّ الخلاف في صفوف الكفّار، وتضعيف نفوسهم، وما إلى ذلك من الأمور التي سنتحدّث عنها. الآية مطلقة ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾، ونصرة الله تتعلّق - كما قلنا - بجميع المستويات، حتى مرتبة الشعور بالمسؤولية الدينية والالتزام الدينيّ، هي نوع من النصرة لدين الله، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من مصاديق نصرة دين الله، والانـضمام إلى صفوف المجاهدين والتضحية والفداء، أو نصرة المجاهدين ومعونتهم، هذا كلّه من مصاديق نصرة دين الله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده للأشتر النخعي في رسالته الحكومية المعروفة: «**وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّه**»[1]. يوصي مالكًا الأشتر بأنّه ينبغي للحاكم أن ينصر الله تبارك وتعالى بقلبه ويده ولسانه، فماذا تعني نصرة الله بالقلب؟

نصرة الله بالقلب: تعني الإخلاص، والصدق، وحب الدين، والشعور بالمسؤولية تجاه الدين، وإظهار الامتعاض والأذية القلبية من معصية الله والفسق والفجور الذي يوجد في المجتمعات، وهذا يعتبر في حدّ نفسه نصرة

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٧، ص٣٠

لله بالقلب.

ونصرة الله باللسان: هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللسانيين وجهاد التبيين والتبصير للمؤمنين.

ونصرة الله باليد: أن يقدّم الإنسان مشروعًا؛ هذا المشروع العملي؛ سواء كان مشروعًا ثقافيًا، اقتصاديًا، اجتماعيًا، صحيًا، أمنيًا، زراعيًا، صناعيًا أو عسكريًا؛ فهو حضور في الميدان وجهاد في سبيل الله أيضًا، ثم تتحقق المعادلة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ**»[1].

أسباب النصر الإلهيّ

النقطة الثانية: أسباب النصر الإلهيّ، كيف يتحقّق النصر الإلهيّ؟ ماذا نصنع حتى ننصر الله تبارك وتعالى؟ هذا النصر الإلهيّ حتى يتحقق في الساحة يتوقف على مجموعة عناصر: قسم منها ترجع إلى الله، وقسم ثانٍ إلى المجتمع، وقسم ثالث إلى الإعداد والاستعداد، وقسم رابع إلى الظروف والأرضية المناسبة، ونحن هنا نتحدّث عن جميع هذه الأسباب بشكل مفهرس:

أولًا: الإيمان؛ فالمجتمع إذا صار مجتمعًا مؤمنًا، يكون مستعدًا لتحقيق النصر الإلهيّ، والله ينصر المجتمع المؤمن. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، فهذه المعية هي معيّة اللطف والنصرة والرحمة الخاصّة الإلهيّة، وليست المعية القيمومية؛ أي ليست كالمعية في قوله تعالى: ﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[4]، فهذه المعيّة تُسمّى معيّة قيمومية، لكنّ تلك المعيّة هي معيّة النصرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ

١. عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر

٢. الحج: ٣٨

٣. الأنفال: ١٩

٤. الحديد: ٤

الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أو كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[3]، و﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾. الكلام ليس في هذا، وإنما في ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فالله ينصر المؤمن في الحياة الدنيا، هذا الهدف من الكلام هنا، ويوم يقوم الأشهاد، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. إذًا؛ من مراتب نصرة دين الله كسب الإيمان والالتزام به، وصيانة المعتقد.

ثانيًا: العمل الصالح؛ إذا قام الإنسان بعملٍ صالح، فإنّه من أسباب نصرة الله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[5]. فالشاهد هو وعد الله للمؤمنين وللذين يعملون الصالحات، فأيّ وعد هو؟ إنه الوعد بالاستخلاف، الاستخلاف نوع نصرة، ونصرة من قبل الله تبارك وتعالى. إذًا؛ العمل الصالح أيضًا سبب، ومن مصاديق أنّ العمل الصالح سبب للانتصار أيضًا قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[6]، فالكَلِم الطيب يعني كلمة التوحيد ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وهو التوحيد ويسبب الانتصار؛ فإنّ الله تبارك وتعالى يلتفت إلى العبد المؤمن الذي يعمل الصالحات.

ثالثًا: تقوى الله؛ التقوى لها آثار، ومن جملة آثارها الإمداد الإلهي ﴿إِنْ تَتَّقُوا

---

١. الأنفال: ١٩
٢. الروم: ٤٧
٣. غافر: ٥١
٤. المنافقون: ٨
٥. نور: ٥٥
٦. فاطر: ١٠

اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[1]، والفرقان هو نصرة، و﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]، فالإنسان الذي يتّقي الله يرزقه من حيث لا يحتسب، وفيها فوائد أخرى من جملتها: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، فالعاقبة للمتقين يعني أنّ المتّقي يحصل على نصرة الله، أو كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[4]، فهذه معيّة اللطف والرحمة.

رابعًا: ذكر الله كثيرًا؛ الذكر ثلاث مراتب: ذكر قلبي، وذكر لساني، وذكر عملي، والمقصود بالذكر الالتفات والتوجّه إلى أنّ الله موجود، حيٌّ قيّومٌ، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، ﴿لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5]. إذًا؛ إذا التفت الإنسان دائمًا إلى الله سبحانه وشغل ذهنه بالله تعالى ولا ينسى الله ولا يغفل عنه، فإنّ الله تبارك وتعالى يلتفت إليه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[6]، فإنّ عوامل السقوط؛ إمّا الجهل وإمّا الغفلة، فذكرُ الله كثيرًا سببٌ من أسباب الانتصار الإلهيّ. يقول الله تعالى في هذا الصدد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[7]، هذا شيء مهمٌّ جدًا. إذًا؛ ذكر الله كثيرًا بالخصوص في ميدان الجهاد يسبّب نصرة الله، والله تبارك وتعالى يستجيب دعاء المجاهد.

خامسًا: الاستغاثة والدعاء عند الاضطرار؛ من جملة الأمور التي تساعد على نصرة الله، الاستغاثة والدعاء حال الاضطرار؛ أي أنّ الإنسان في حال الاضطرار

---

١. الأنفال: ٢٩
٢. الطلاق: ٣
٣. الأعراف: ١٢٨
٤. البقرة: ١٩٤
٥. الفتح: ٧
٦. البقرة: ١٥٢
٧. الأنفال: ٤٥

يتوجّه إلى الله ﴿اَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اِذٰا دَعٰاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفٰٓاءَ الْاَرْضِ ۗ اَءِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ ۚ قَلِيلًا مٰا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فالاستغاثة والدعاء في حال الاضطرار أحد أسباب جلب النصرة الإلهيّة، والأمر الآخر المهمُّ أيضًا هو خصوص التوجّه والتوسّل والاستغاثة بصاحب الأمر والزمان بقية الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهذا مجرّب أيضًا.

سادسًا: وحدة الكلمة؛ ومن جملة الأمـور التي تساعد على نصرة الله وحدة الكلمة وعدم النزاع والتفرقة، فوحدة المؤمنين تسبّب اللطف الإلهيّ، وتفرقة المؤمنين تسبّب الهزيمة والفشل. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُۥ وَلٰا تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2]، ريحكم: أي قوّتكم، ﴿اِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعًا وَلٰا تَفَرَّقُوا﴾[4] إلى آخر الآية الشريفة. إذًا؛ من جملة أسباب الانتصار الإلهيّ، الاتحاد، ومن جملة أسباب الهزيمة، التفرقة والنزاع وعدم استعداد الإنسان لتقديم التنازلات لأخيه المؤمن أو للمؤسّسة المؤمنة أو للحزب المؤمن أو أمثال ذلك؛ أي النزاع والصراع على شيء لا يجدي نفعًا، فهذا يسبب الفشل والهزيمة، نستجير بالله منه!

سابعًا: التولّي والتبرّي؛ فمن جملة الأمور التي تساعد على الانتصار، التولّي والتبرّي ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءٰامَنُوا فَاِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ﴾[5]، هذا هو التولّي.

أمّا التبرّي، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلٰا تَرْكَنُوٓا اِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّٰارُ

---

١. النمل: ٦٢
٢. الأنفال: ٤٦
٣. نفس المصدر
٤. آل عمران: ١٠٣
٥. المائدة: ٥٦

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[1]؛ أي أنّ المجتمع الذي يستسلم للحاكم الجائر الظالم لا ينتصر؛ إذ إنّ أحد شروط الانتصار عدم الركون للظالمين، فالمجتمع الذي يحرّر نفسه من الركون والخضوع والاستسلام للظالم يهيّئ لنفسه أسباب الانتصار، فرفض الظلم ورفض الظالم مقدمة للانتصار.

ثامنًا: الجهاد في سبيل الله؛ فمن جملة الأمور التي تساعد على الانتصار، الجهاد في سبيل الله، وتشير إليه هذه الآية التي نقرأها اليوم في بحث هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]، أن تنصروا الله في حضوركم في ميدان الجهاد.

تاسعًا: إعداد القوّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3].

عاشرًا: الصبر والثبات والمقاومة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[4]، أو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُم عِشرونَ صابِرونَ يَغلِبوا مِائَتَينِ﴾[5]، المقصود بالصبر هنا المقاومة، أو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6]، أو قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[7]، فلماذا نصر الله سبحانه بني إسرائيل على فرعون وقومه؟ ذلك ﴿بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ

١. هود: ١١٣
٢. محمد: ٧
٣. الأنفال: ٦٠
٤. آل عمران: ١٢٠
٥. الأنفال: ٦٥
٦. آل عمران: ٢٠٠
٧. الأعراف: ١٣٧

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

إذًا؛ الصبر والمقاومة دليل الانتصار، وإلّا من بعد الانتصار يقولون لموسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[2]، ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3]، فإذا تركوا القيادة الصالحة وحدها ولم يقاوموا واستمروا بذلك، فإنّ الله تبارك وتعالى يخذلهم؛ بل ينزل الغضب عليهم؛ ولذلك نلاحظ أنّ قوم موسى مع أنّهم كانوا أفضل الأقوام ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[4]، لكنّهم في النهاية صاروا من الأقوام المغضوب عليهم نتيجة خذلانهم للحق.

حادي عشر: التوكل على الله ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[5].

ثاني عشر: الأخذ بأوامر القيادة الشرعية ونواهيها؛ من يلتزم بأوامر ونواهي القيادة الشرعية ينتصر، ومن لا يلتزم بأوامر القيادة ينهزم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[6]، أو كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[7].

ثالث عشر: الإمـدادات الغيبية الإلهيّة؛ التي يقدّرها الله تبارك وتعالى للمجتمع الكفوء الذي يعمل بالوظيفة الشرعية؛ فإنّ الإنسان الذي يعمل بالوظيفة الشرعية ولا يتنازل، ينزل عليه النصر.

---

١. نفس المصدر
٢. المائدة: ٢٢
٣. المائدة: ٢٤
٤. البقرة: ٤٧
٥. آل عمران: ١٦٠
٦. الصف: ٤
٧. النساء: ٥٩

ضرورة الاعتصام بالله

في ختام هذه الأمور الثلاثة عشر التي تسبّب الانتصار، نذكر لكم رواية صحيحة السند من كتاب وسائل الشيعة، عن الإمام الصادق عليه السلام، يقول عليه السلام: «**أيما عبد أقبل قِبَل ما يحب الله عزّ وجلّ أقبل الله قِبَل ما يحب**»؛ يعني إذا توجّهنا وأقبلنا على الأمور التي يريدها الله سبحانه، فإنّ الله تبارك وتعالى يتوجّه إلى الأمور والحاجات التي نريدها ويقضيها لنا؛ «**أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله عزّ وجلّ أقبل الله قبل ما يحب، ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبالِ لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم البلية كان في حزب الله بالتقوى من كلّ بلية، أ ليس الله تعالى يقول:** ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؟»[1]. معنى ذلك أنّ الاعتصام بالله والاعتماد على الله هو رمز الانتصارات في صدر الإسلام، وبعد ذلك في زمن أمير المؤمنين والأئمة الأطهار، وفي العصر الراهن الاعتماد على الله شيء مهمٌّ جدًا؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]، وتثبيت القدم عندنا في قسم منها يتعلّق بما قبل الانتصار، فإذا كان هناك ثبات للقدم يتحقّق الانتصار ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[3]. ولدينا تثبيت الأقدام بعد الانتصار؛ أي المحافظة على الانتصار، والمحافظة على الانتصار أهم من الانتصار؛ فقد يكون هناك من يكتسب مكتسبات؛ سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الفردي، لكنه يتنازل ويتراخى ويتكاسل ويتراجع، فإنّه يضيّع الانتصارات التي حقّقها، فحفظ الانتصار أهم من الانتصار، والفلاسفة يقولون: العلّة المبقية أهم من العلّة المحدِثة، فهنا ﴿يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾؛ يعني الحفاظ على الانتصار بعد الانتصار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

---

١. وسائل الشيعة، كتاب الجهاد النفس، باب وجوب الاعتصام بالله، ج١٥، ص٢١١

٢. محمد: ٧

٣. الأنفال: ٤٥

وَيُثَبِّتْ اَقْدٰامَكُمْ﴾[1].

وبالمناسبة لا بأس بأن أنقل ما قاله الأمين العام لحزب الله وقائد المقاومة المجاهد الأكبر السيد حسن نصر الله حفظه الله، فهو يقول: بعد الاجتياح الإسرائيلي، التقت مجموعة من القيادات بالإمام الراحل قدس سره حتى يعرفوا تكليفهم، ماذا يصنعون. يقول: التقينا بالإمام الراحل وسلّمته تقريرًا عن الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وأنّه ما هو تكليفنا؟ يقول: قال لنا الإمام جملة واحدة: ارجعوا إلى لبنان ﴿اِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدٰامَكُمْ﴾. يقول: في ذلك الوقت في زمن الاجتياح، عندما حدّثنا الإمام بهذه الكلمة، كنّا نظنُّ أنّ الإمام يريد أن يشجّعنا لا أكثر، فلبنان قد اجتاحته إسرائيل، وهنا يكمن هذا المطلب ﴿اِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدٰامَكُمْ﴾، لكن تدريجيًا صارت الاستراتيجية الأساسية لحزب الله هي العمل بهذه الآية الشريفة.

وأنا أقول لكم: إنّ حزب الله تحوّل من حزب صغير انطلق من بعلبك في لبنان إلى حزب كبير وقوي ليس على مستوى الأمة فقط، فحزب الله اليوم أقوى من جميع الجيوش العربية بدون شكّ، فهو مقاومة إيمانية جهادية سياسية ولائية فاعلة، والقوّة الضاربة لأمّة الإسلام، بحيث تهدّد إسرائيل، وحتى قوّة حماس وقوّة الجهاد الإسلامي تحقّقت جرّاء التوجّه إلى استراتيجية المقاومة الإسلامية وحزب الله. هذا أحد مجرّبات الثورة ومجرّبات المقاومة الإسلامية في الآية.

المطلب الآخر: ما شاهدناه في الجمهورية الإسلامية طوال فترة الأربعة والأربعين عامًا، فعلى الرّغم من جميع المؤامرات وجميع التحدّيات وتجييش القوى الشيطانية العالمية ضد الجمهورية الإسلامية، فكانوا في البدايات يقولون: في هذا العام تسقط، وفي هذا العام تسقط، وفي هذا الشهر، وفي هذين

١. محمد: ٧

الشهرين، لكنّ الجمهورية الإسلامية اليوم استمرّت أربعة وأربعين عامًا، لكن كيف استمرّت؟ اليوم؛ بإذن الله الجمهورية الإسلامية أقوى من أمريكا وإسرائيل، وأمريكا وإسرائيل أضعف من كلّ زمان في مواجهة الجمهورية الإسلامية، وهذا أحد مصاديق ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدامَكُمْ﴾، فعلى الرّغم من كلّ التحدّيات، إذا توجّه الإنسان إلى أنّ الله موجود والله قادر والله مالك والله وليّ ﴿وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰواتِ وَالْاَرْضِ﴾[1]، ويعتمد على الله سبحانه، ويتحرّك ويعمل ما بوسعه، فإنّ المدد الإلهيّ ينزل عليه مثلما أنّه نزل في غزوة بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ بِبَدْرٍ وَاَنْتُمْ اَذِلَّةٌ﴾[2]، فالله الذي نصر المؤمنين ببدر ينصر المؤمنين في زمن الثورة الإسلامية، وينصر المؤمنين في جبهة المقاومة الإسلامية، وينصر المؤمنين في جميع الساحات؛ الفردية والاجتماعية والمهنية والأسرية، وفي جميع الأمور، الله موجود بشرط أن يعمل الإنسان بالوظيفة الشرعية. النصرة الإلهيّة تارةً تتحقّق - كما قلنا - عن طريق تهيئة أسباب التوفيق، وتارةً أخرى عن طريق الإشراق والإلهام، وهو أن يخطر ببالك شيء، وهذا يسبّب النصرة أو الهداية والتبصّر. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَاِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام

التفتوا إلى هذه الكلمة من أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا**

---

١. الفتح: ٤

٢. آل عمران: ١٢٣

٣. العنكبوت: ٦٩

- التفتوا إلى هذه الكلمة - **فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ** - الصدق، والإخلاص، هذا الذي يتحدّث عنه أمير المؤمنين عليه السلام - **وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ**»[1]. إنّ الإمام عليه السلام يحث المؤمنين على العمل بالوظيفة الشرعية والحضور الفاعل في الميدان، ميدان التضحية والفداء للإسلام العزيز.

يقول الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2]، المدد الإلهيّ هنا يحصل عن طريق الهداية ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[3]، فهنا لماذا حصل الانتصار الإلهي عن طريق الربط على القلوب؟ ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[4]، هؤلاء الفتية لم يكن عملهم الدعاء فقط، فالدعاء من دون عمل، ومن دون من سعي، ومن دون نشاط، ومن دون جهاد، ومن دون تضحية، ومن دون فداء، لا يكفي: ﴿إِذْ قَامُوا﴾؛ لذلك، ربط الله تبارك وتعالى على قلوبهم.

يقول الملا هادي السبزواري في منظومته «والملهم المبتدع القديم حق عليم منه عظيم»[5]. إنّ الله تبارك وتعالى ملهم ومبتدع وعليم وحي وحاضر، ومنّة الله على العباد كثيرة بشرط أن يلتفت العبد إلى نعم الله غير المنتهية.

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[6]، لماذا ذكر الله سبحانه هذه القصة؟ إنّها تتعلّق ببني إسرائيل، فهي لرسول الله وأصحابه في سورة القصص، وهم كانوا قلّة في مكة، فيقول للرسول مثلما نصرْنا المستضعفين من بني إسرائيل على قوم فرعون،

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥٦.
٢. الكهف: ١٣
٣. الكهف: ١٤
٤. نفس المصدر
٥. الملا هادي السبزواري، شرح المنظومة لحسن زاده آملي، ج١، ص٥٧
٦. القصص: ٥

باستطاعتنا أن ننصركم على مشركي قريش بشرط تحرّككم، كما أنّ الله نصرهم ﴿وَاذْكُرُوٓا اِذْ اَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْاَرْضِ تَخَافُونَ اَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَاٰوٰىكُمْ وَاَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهٖ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

طبعًا؛ الكلام حول أبعاد النصر الإلهيّ يطول جدًا، لكن نكتفي بهذا المقدار لننتقل إلى بعض الأمور الأخرى التي تتعلّق بنصرة الله للأنبياء وللمؤمنين، فقد يسأل السائل: كيف نصرهم الله مع أنّ سيد الشهداء استشهد؟! إنّ نصرة الله لسيد الشهداء عن طريق تخليد سيد الشهداء وحفظ الإسلام وحفظ مبادئ سيد الشهداء، والإسلام (بدؤه محمّدي ودوامه علوي وبقاؤه حسيني)، وهذا هو النصر لسيد الشهداء.

نصرة الله تعالى للأنبياء عليهم السلام

بالنسبة إلى نصرة الأنبياء، فالله تبارك وتعالى نصر كلّ واحدٍ من الأنبياء عليهم السلام بأسلوب، نذكر هنا بعض هذه الأساليب؛ فمثلًا بالنسبة إلى نبيّ الله نوح عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنٰهُ وَمَنْ مَعَهٗ فِي الْفُلْكِ﴾[2]، وبالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿يٰا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلٰمًا﴾[3]، وبالنسبة إلى لوط عليه السلام: ﴿اِذْ نَجَّيْنٰهُ وَاَهْلَهٗٓ اَجْمَعِينَ﴾[4]، ويوسف عليه السلام: ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْاَرْضِ يَتَبَوَّاُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاۤءُ﴾[5]، وشعيب عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهٗ﴾[6]، وصالح عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا صٰالِحًا

---

١. الأنفال: ٢٦
٢. يونس: ٧٣
٣. الأنبياء: ٦٩
٤. الصافات: ١٣٤
٥. يوسف: ٥٦
٦. هود: ٩٤

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾[1]، وهود عليه السلام: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾[2]، ويونس ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وموسى عليه السلام: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ أَجْمَعِينَ﴾[4]، وعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[5]، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[6]، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[8]، أو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[9] عن طريق إنزال السكينة تتحقّق النصرة.

أمّا مصاديق النصرة الإلهيّة، فهي:

أولًا: الربط على القلب ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾[10].

ثانيًا: التثبيت ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[11].

ثالثًا: استجابة الدعاء ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[12].

---

١. هود: ٦٦
٢. هود: ٥٨
٣. الأنبياء: ٨٨
٤. الشعراء: ٦٥
٥. آل عمران: ٥٥
٦. الفتح: ١
٧. النصر: ٢-١
٨. آل عمران: ١٢٣
٩. التوبة: ٢٦
١٠. الأنفال: ١١
١١. إبراهيم: ٢٧
١٢. الشورى: ٢٦

أو ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾[1]، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، الله استجاب دعاء نوح عليه السلام تارةً بالمعجزة والاستدلال، وتارةً بإعطاء الدولة والحكومة ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[3]، وتارةً بالغلبة في الحروب ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[4]، وأخرى بنزول السكينة، كما قرأنا في الآية ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[5]، وأخرى بإهلاك العدو ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾[6]، وأخرى بالإمدادات الغيبية ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[7]، أو ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[8]، وأخرى بنشر الإسلام في العالم ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[9]، وأخرى بالنجاة من المخاطر ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾[10]، وأخرى بإحباط المؤامرات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[11]، وأخرى بالإلهام ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[12]. إنّ هذه الأمور التي تتحقّق بالنسبة للانتصار قابلة للتطبيق في زماننا وفي كلّ زمان.

إذًا؛ هذه القاعدة عامة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

١. يوسف: ٣٤
٢. نوح: ٢٦
٣. النساء: ٥٤
٤. التوبة: ٢٥
٥. التوبة: ٤٠
٦. الزخرف: ٥٥
٧. آل عمران: ١٢٤
٨. الحشر: ٢
٩. التوبة: ٣٣
١٠. العنكبوت: ١٥
١١. الأنفال: ١٨
١٢. القصص: ٧

اَقْدٰامَكُمْ﴾[1] بشرط الحركة، والسعي، والإخلاص، والصدق، والتوكّل على الله، والتوجّه والاعتماد على الله تبارك وتعالى.

في معنى التَّعس

واستمرارًا لهذه الآية الشريفة يقول تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَاَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾[2]، فماذا يعني التَّعْس؟ التعس: يعني أن يخُرّ على وجهه، والنكس أن يخرّ على رأسه، والتعس أيضًا الهلاك، وأصله الكَبّ، وهو ضدُّ الانتعاش، يقال: تعسًا لفلان! أي ألزمه الله هلاكًا. إنّ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُم﴾ وزان ﴿قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ اَنّٰى يُؤْفَكُونَ﴾[3]، التعس أن لا ينتعش من العثرة وأن ينكسر في سُفال؛ أي يعثر، والعثرة أيضًا توصله دائمًا إلى الهلاك، وهو العثور الشديد حتى يخرّ على وجهه ويغرب من الهلاك مقابل تثبيت الأقدام بالنسبة للمؤمنين ﴿وَيُثَبِّتْ اَقْدٰامَكُمْ﴾، ولكن بالنسبة للكفار ﴿فَتَعْسًا لَهُم﴾، فيدل على العثور والانحطاط والهلاك. إذًا؛ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَاَضَلَّ اَعْمٰالَهُم﴾، ضلال الأعمال تحدّثنا عنه؛ يعني البوار والدمار.

هنا مطلب أيضًا يجب أن نتحدث عنه: لماذا يشمل الله تبارك وتعالى الكفّار بالتعس والضلال؟ الجواب قوله تعالى: ﴿بِاَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاَحْبَطَ اَعْمٰالَهُم﴾، الكراهية تعني البغض والعداوة؛ أي يكرهون تطبيق الشريعة الإسلامية، ولا يريدون أنتُطبق ، ويخافون من تطبيق الدّين، كما يقول الله تعالى: ﴿اَنْ اَقِيمُوا الدّٖينَ وَلٰا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مٰا تَدْعُوهُمْ اِلَيْهِ﴾، المشركون والكفّار يخافون من إقامة الدين، ويدعون إلى العلمانية وإلى الليبرالية وإلى الحلول المستوردة؛ لأنّ الدين إذا طُبّق تكون الأمّة أمّة قويةً، فهم يخافون من

---

١. محمد: ٧

٢. محمد: ٨

٣. المنافقون: ٤

هذا. إذًا؛ ﴿كَرِهُوا مَآ اَنْزَلَ اللّٰهُ﴾. ماذا يعني هذا؟ يعني أنّهم عادَوا وأبغضوا ما أنزل الله، أبغضوا الشريعة القانون الإلهيّ بأسماء ومسمّيات مختلفة، فما هي النتيجة إذًا؟ ﴿فَاَحْبَطَ اَعْمٰالَهُم﴾، الحبط أخص من ضلال العمل؛ فالحبط يعني بطلان العمل وجعل العمل ضائعًا لا نفع به، والحبط - في اللغة - أن تأكل الدابة من العلف حتى تنتفخ وتموت، هذا معنى الحبط في اللغة، وفي الاصطلاح: فساد العمل وزوال ثوابه.

عوامل إحباط الأعمال

عوامل الإحباط كثيرة: منها الارتداد، والصد عن سبيل الله، وإنكار الآخرة، وتكذيب الآيات، والتخلّف عن الجهاد ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا اَعْمٰالَكُمْ﴾[1]، والعداوة والبغضاء للنبي والقيادة الصالحة ﴿اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَشَآقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدٰى لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ اَعْمٰالَهُمْ﴾[2]، وطلب الدنيا ومودّة الأعداء والتطبيع مع أعداء الدين، كل ذلك يسبّب حبط الأعمال، ومن حبط الأعمال اليوم أنّ قسمًا من الأمّة مبتلٍ بقضية التطبيع، والتطبيع الاجتماعي أخطر من التطبيع السياسي، فقال الله تعالى في هذا الصدد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا اَهٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ اَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ اَيْمٰانِهِمْ اِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ اَعْمٰالُهُمْ فَاَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ﴾[3]، فهذه إشارة إلى التطبيع الاجتماعي، وهو مودّة أعداء الأمة وأعداء الدين. والربا، والشرك، والكفر، والنفاق، والسخط لرضوان الله، هذه الأمور كلّها أسباب لحبط الأعمال. ومن جملة أسباب حبط الأعمال، سوء الأدب مع القيادة الإلهيّة المتمثّلة بشخصية الرسول الأكرم، وسوء الأدب مع القيادة الصالحة التي تمثّل قيادة الرسول الأكرم

---

١. محمد: ٣٣

٢. محمد: ٣٢

٣. المائدة: ٥٣

مثل الأئمة الأطهار، وسوء الأدب مع المرجعية الرشيدة والولي الفقيه. كل ذلك يسبّب حبط الأعمال. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

نسأل الله أن يوفّقنا وإيّاكم لنصرة الدين، «اللّهم اجْعَلْنا مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِك وَتُعِزُّ بِهِ نَصْرَ وَلِيّك، وَلا تَسْتَبْدِلْ بِنا غَيْرَنا، فَإِنَّ اسْتِبْدالَكَ بِنا غَيْرَنا عَلَيكَ يَسِيرٌ وَهُوَ عَلَيْنا كَثِيرٌ»، وصلِّ اللهمَّ على محمّد وآله الطاهرين.

١. الحجرات: ٢

المحاضرة الرابعة

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ١٤-١٠

المقارنة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل

هذه الآيات الشريفة استمرار للمقارنة بين جبهة الحق وجبهة الباطل، وخطّ الإيمان وخطّ الكفر.

بدايةً تتحدّث الآيات عن وجوب السير في الأرض، والمقصود بالسير في الأرض هو الانتقال والتحرّك في الأرض بشكلٍ طبيعي وبشكلٍ دراسي وتاريخي، هو مطالعة بقصد الاعتبار والتأمّل في الخالق والخلق والمعاد ومسير الأقوام المكذّبين والكافرين والطغاة. اليوم، توجد آثار طبيعية من الأقوام السابقة، حتى أنه يقال: إنّ سفينة نوح أيضًا لها آثار، أو الأهرام المصرية، أو آثار من قوم ثمود وعاد والأقوام السابقة، فمطالعة هذه الآثار تُنبئ بمن كان يسكن هنا! وكيف كان مسيره! وكيف دمّرهم الله تبارك وتعالى نتيجة الظلم والطغيان والكفر والتكذيب لله وللمعاد! وكم كانت هناك قصور مشيّدة تحوّلت إلى آثار لم يبقَ منها شيء! عادةً يكتب الحكّام على كراسيهم في بعض الحكومات هذه العبارة: «لو دامت لغيرك لما وصلت إليك». وفي هذا عبرة، وقضية السير في الأرض تحت عنوان السير في القرآن الكريم أتت ست مرّات بصيغة الأمر، وسبع مرّات أتت بصيغة الاستفهام الاستنكاري.

الآية الشريفة عندما تقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكٰافِرِينَ اَمْثٰالُهٰا﴾[1]، فهي تعني مسير الأقوام السابقين عليكم ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكٰافِرِينَ اَمْثٰالُهٰا﴾؛ أي أنّ الله تبارك وتعالى أهلكهم، واستأصلهم، وحوّل أرض عاد وثمود وقوم لوط عبرةً، كما قال الله تعالى: ﴿اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعٰادٍ ۝٦ اِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ ۝٧ اَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِي الْبِلٰادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جٰابُوا الصَّخْرَ بِالْوٰادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْاَوْتٰادِ﴾[2] إلى أن قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذٰابٍ﴾[3]، وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلِلْكٰافِرِينَ اَمْثٰالُهٰا﴾[4]؛ أي: وللكافرين من مشركي قريش في زمانك يا رسول الله أمثال عاقبة تكذيب الأقوام الذين دمرهم الله تدميرًا، فكما دمّر الله الأقوام السابقين الكافرين الملحدين الفاجرين الظالمين المعتدين المنكرين لله وللمعاد، فإنه يدمّر مشركي قريش بأسهل ما يكون أيضًا.

لماذا قال الله تعالى بلا فاصل في الآية الأخرى: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءٰامَنُوا وَاَنَّ الْكٰافِرِينَ لٰا مَوْلٰى لَهُمْ﴾[5]؟ تتحدّث الآية عن ولاية الله تبارك وتعالى، وهو تعليل لتدمير الله للكافرين الملحدين الذين ينكرون الله والمعاد ﴿وَلِلْكٰافِرِينَ اَمْثٰالُهٰا﴾ بينما حال المؤمنين جيد! فالقضية ترجع إلى ولاية الله. المولى في الآية الشريفة: مصدر ميميّ، لكنّ معنى هذا المصدر الميميّ معنى وصفيٌّ؛ أي بمعنى الولي، والولي هو الذي يُدبّر الأمور ويتصرّف في الشؤون وله تصرّف مطلق.

ثمّ إنّ ولاية الله تبارك وتعالى على قسمين:

القسم الأول: ولاية عامّه تشمل جميع البشر؛ مؤمنين كانوا أم كافرين أم منافقين؛ مثل الرحمة العامّة الإلهيّة.

---

١. محمد: ١٠
٢. الفجر: ١٠-٦
٣. الفجر: ١٣
٤. محمد: ١٠
٥. محمد: ١١

القسم الثاني: ولاية خاصّة للمؤمنين الأتقياء؛ مثل الرحمة الرحيمية الخاصّة.

الله رحمن، ورحمته شاملة لجميع العباد، ورحيم، ورحمته خاصّة بعباده الأتقياء المؤمنين.

مراتب التوحيد والولاية العامة

هناك آيات في القرآن تتحدّث عن الولاية العامّة الإلهيّة لجميع البشر. طبعًا الولاية مرتبة من مراتب التوحيد وتسمى: التوحيد في الولاية، فالتوحيد له مراتب كثيرة:

التوحيد في الخالقية: يعني أنّ الله خالق كلّ شيءٍ.

التوحيد الصفاتي: يعني صفاته وأسماؤه، فهو واحد أحدي الذات والصفات.

التوحيد الأفعالي: يعني أنّ جميع الأفعال في هذا الكون الفسيح في السماوات والأرض والتصرّفات ترجع إلى الله تبارك وتعالى.

التوحيد العبادي: يعني ينبغي أن يُعبد الله تبارك وتعالى فقط.

التوحيد السيادي: يعني أنّ السيادة المطلقة على الكون والإنسان بشكل مطلق لله تبارك وتعالى، وهذه السيادة المطلقة يتفرّع عنها التوحيد في التشريع، فالمشرّع هو الله تبارك وتعالى، ومبيّن الشريعة رسول الله ﷺ، والأئمة الأطهار عليهم السلام، والذين يشخّصون الشريعة وهم المجتهدون الذين يجتهدون في تشخيص الكتاب والسُنّة عبر الأدلة.

التوحيد في الولاية: يعني أن يعتقد الإنسان بأنّ الله خالقٌ، ومالكٌ، وربٌّ بالربوبية التشريعية والتكوينية، وأنّه وليٌّ مطلق. والولاية المطلقة تعني أنّ التصرّف والتدبير المطلق في الكون بيد الله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى

هو القيّم ﴿اَللّٰهُ لَآ اِلٰهَ اِلّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1]، وهذه القيمومية هي تعبير عن ولاية الله تبارك وتعالى، لكنها ولاية عامّة، وهي شعبة من شعب التوحيد، وهناك آيات تتحدّث عن هذه الولاية العامّة؛ مثلًا يقول الله تعالى: ﴿وَمٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهٖ مِنْ وٰالٍ﴾[2]، أو ﴿وَمٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلٰا نَصِيرٍ﴾[3]، والتوبة ١١٦ أيضًا.

طبعًا؛ عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بأنّ الله خالق؛ بل حتى يعتقدون ببُعد من أبعاد الربوبية لله تبارك وتعالى، لكنّهم لا يعتقدون بولاية الله، فماذا يعني أنّهم لا يعتقدون بولاية الله؟

الجواب: يعني أنهم إذا أرادوا نصرةً، يذهبون إلى بعض الأصنام التي تنصُرهم، وإذا أرادوا المطر، يذهبون إلى بعض الأصنام التي تمطر لهم، والفقراء يذهبون إلى بعض الأصنام التي ترزقهم، وهكذا.. لكنّ هذه الأمور كلّها بيد الله تبارك وتعالى، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلٰا نَصِيرٍ﴾[4]، ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[5]، فإنّ الثناء والمدح بالنسبة إلى جميع الأعمال الطيبة الممتازة يرجع إلى الله تبارك وتعالى (الحمد لله ربّ العالمين)، أو كما يقول الله تعالى أيضًا في سورة النساء: ﴿وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَلِيًّا وَكَفٰى بِاللّٰهِ نَصِيرًا﴾[6] أو قوله تعالى: ﴿قُلْ اَغَيْرَ اللّٰهِ اَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[7]. لماذا الولايةَ لله؟ ما هو دليل ولاية الله؟ ﴿فَاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلٰا يُطْعَمُ﴾[8]. طبعًا؛ هذه كلّها أدلة لولاية

---

١. آل عمران: ٢

٢. الرعد: ١١

٣. البقرة: ١٠٧

٤. نفس المصدر

٥. الشورى: ٢٨

٦. النساء: ٤٥

٧. الأنعام: ١٤

٨. نفس المصدر

الله المطلقة، والآية الأخيرة التي نذكرها في هذا الصدد هي ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]؛ يعني أنّ الإنسان يرى يوم القيامة كل ما قدّمه ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، هناك تتجلّى الولاية الحقيقية لله تبارك وتعالى في القيامة ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ لأنّهم ما كانوا يعتقدون بالولاية المطلقة الإلهيّة ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. طبعًا؛ هذه الولاية المطلقة الإلهيّة خاصّة بالله وحده لا شريك له.

الفرق بين الولايات الثلاث

قد يكون هناك التباس في بعض الأذهان منشأه هو أنه هل يجوز لنا نحن في زماننا أن نطلق اصطلاح (الولاية المطلقة) أيضًا على ولاية رسول الله والأئمة الأطهار وحتى للفقيه؟ ما الفرق بين الولاية المطلقة الإلهيّة والولاية المطلقة لرسول الله وهي للأئمة الأطهار وللفقيه أيضًا؟

في مقام الجواب، نقول: إنّ الولاية المطلقة الإلهيّة شعبة من شعب التوحيد، وتعود إلى ربوبية الله التكوينية والتشريعية، وهي خاصّةٌ بالله وحده لا شريك له. إذًا؛ فليكن من المعلوم أنّ الله تبارك وتعالى متفرّد بهذه الولاية التي هي ولايةٌ ذاتية ترجع إلى ذاته وقدسه جلّ جلاله، ولكنّ الله الذي خلق الإنسان كخليفة له فسح له المجال ليتحوّل إلى وليّ، لكن ما هي طرق وسبل الحصول على هذه الولاية الحقيقية؟

الجواب: هي عبادة الله، فالإنسان من خلال عبادة الله يصل إلى هذه الدرجة من الولاية الحقيقية. فكيف يصل إليها؟

في المرحلة الأولى مثلًا يصلّي، والصلاة لها درجات دنيا ودرجات عليا، أدنى

---

١. يونس: ٣٠

درجات الصلاة أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، لكنّ الصلاة لها درجات عالية جدًا؛ ومن جملة الدرجات العالية للصلاة، الصلاة معراج المؤمن، والصلاة قربان كلّ تقيٍ، والإنسان إذا صار عنده حضور قلب في الصلاة، فهذه الصلاة تكوّن له ملكة تُسمّى التقوى، وهذه التقوى الإلهيّة تجعل له نورًا، وهذا النور يتدرّج فيه إلى أن يصل إلى مرحلة تجرّد النفس (النفس المجرّدة)، ثمّ إنّ الله تبارك وتعالى يعطيه درجة أكبر من تجرّد النفس ومعرفة النفس، وهي التصرّف في الكون والمكان، وهذا التصرف في الكون والمكان الناتج عن القرب الإلهيّ خاصٌّ بالذين يصِلون إلى درجة الولاية الإلهية عن طريق العبودية، كما يقال: العبوديّة جوهرة كنهها الربوبية، وهذه التي نُعبّر عنها بالولاية التكوينية، هذه الولاية الحقيقية أو الولاية التكوينية هي ولاية محمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله، وهي نتيجة عبادة الله. طبعًا؛ هذه الولاية الحقيقية - وهي ولاية التصرّف في الكون والمكان - خاضعة لقوانين، لكنها ولاية حقيقية، ولاية ناتجة عن الارتباط بالله تبارك وتعالى، هذه الولاية يسمّونها أيضًا ولاية مطلقة، لكن بمعنى الولاية الحقيقية والولاية التكوينية، وهذه غير ولاية الله، فولاية الله ذاتية، لكنّ هذه الولاية مكتسبة نتيجة العبادة، وفرق بين الولايتين.

أمّا ولاية الفقيه المطلقة، فعندما ننسب الولاية المطلقة للفقيه، فهي ولاية اعتبارية، وليست ولاية حقيقية، هذه الولاية تتعلّق برئاسة الدولة الإسلامية، ففي مجال رئاسة الدولة يتمتّع الفقيه بصلاحيات مطلقة كصلاحيات رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، وأمّا فيما يتعلّق بالولاية الحقيقية، فهي منحصرة برسول الله صلى الله عليه وآله وبالأئمة الأطهار عليهم السلام. والمهمُّ هنا هو بيان معنى الولاية العامة الإلهيّة، وإلا فإنّ هناك أبحاثًا مفصّلةً يطول المقام بذكرها.

أمّا آيات الولاية الخاصّة، فالله تبارك وتعالى كما له ولاية عامّة على جميع البشر من مؤمن وكافر ومنافق، له ولاية خاصّة، وهي رعاية خاصّة، وعناية خاصّة، ولطف خاصٌّ، ومغفرة خاصة، ورحمة خاصة، وتولٍّ خاص، واهتمام

خاصٌّ بالمؤمنين، فيقول تعالى في هذا الصدد في آية الكرسي: ﴿اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا اَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ اِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[1]، فهذه الولاية ولاية خاصّة، وهذا يعني أنّ الكفار لا وليّ لهم، وليّهم الطاغوت، لكنّ المؤمن تحت ولاية الله وتحت عناية الله، فإنّ الله سبحانه يخرجه دائمًا من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الضلال إلى نور الهداية، ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعف إلى القوّة، فللمؤمن دائمًا رعاية خاصّة ونصرة خاصة ﴿اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ﴾. والآية الأخرى التي تتحدّث عن هذا الأمر: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ ليس في الآخرة فقط حتى في الدنيا. لماذا لهم دار السلام؛ هم دائمًا في سلام وأمن واطمئنان؟ لأنّ الله هو وليّهم ويتولّى شؤونهم وجميع أعمالهم، فيتولّى الله هذا الأمر بشكل خاص، كما يقول: ﴿وَاللّٰهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]، أو يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللّٰهِ هُوَ مَوْلٰكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلٰى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[4]. إنّ هذه الآية التي نتحدّث عنها تتحدّث عن هذه الولاية الخاصة ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلٰى لَهُمْ﴾[5]؛ أي لا وليّ خاصًا يرعى شؤونهم. إنّ لهذه الآية الشريفة قصة؛ وهي أنه في أثناء معركة أحد رفع الكفار شعارات، فشعاراتهم هي هبل وعزّى وأمثال ذلك، فقال النّبيّ الأقدس ﷺ للمؤمنين: ارفعوا شعارًا أيضًا، «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**». الشعار يعطي قيمة روحية لجبهة الحقّ في مواجهة جبهة الباطل، ويعبّر عن العواطف والأحاسيس والمشاعر، فشعار الإنسان المؤمن هو

---

١. البقرة: ٢٥٧

٢. الأنعام: ١٢٧

٣. الجاثية: ١٩

٤. الحج: ٧٨

٥. محمد: ١١

أنّ الله مولانا ولا مولى لكم.

المقارنة بين جبهة الحق والباطل في الدنيا والآخرة

يقول الله تبارك وتعالى أيضًا في صدد المقارنة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[1]. هذه المقارنة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل لا تتعلّق بالدنيا فقط؛ بل هي تستمر إلى الآخرة؛ يعني أنّ الإنسان المؤمن، إضافةً إلى الدنيا، فإنه يتمتّع بولاية الله الخاصّة في الآخرة، فيحظى بالنعيم الخالد في الجنة، وينصر الله المؤمنين في الدنيا ويعطيهم النعيم في الآخرة؛ أمّا الكفار الذين لا ولاية خاصّة لهم من الله، فحياتهم حياة حيوانية في الدنيا ومصيرهم النار في القيامة، والآية الشريفة هي وزان آيات أخرى على هذا النمط؛ مثل قوله الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[2].

أقسام الحياة

إنّ الحياة تنقسم إلى قسمين: حياة اعتبارية، وحياة حقيقية.

فالحياة الاعتبارية هي الشهوة، والثروة، والسلطة، والشهرة، والرغبات، وإنّ الإنسان يكدح لهذه الدنيا، والكافر غاية الأهداف التي يرسمها لنفسه في الحياة، هو الوصول إلى مبتغاه في الدنيا، لكن لا يوجد شيء في الأهداف باسم الله تبارك وتعالى والآخرة في حياته؛ مثلًا: إذا كان الكافر أو غير المؤمن يدرس في تخصص ما، فيمكن أن يصل من خلاله إلى مستويات عالية في الهندسة، وفي الكهرباء، وفي الفيزياء، وفي الكيمياء، وفي الإعمار، وفي الطب، وفي الصناعة، وفي الزراعة،

---

١. محمد: ١٢

٢. آل عمران: ١٩٧-١٩٦

لكنّ مبتغاه من هذا العلم هو إعمار الدنيا لا أكثر، إضافةً إلى أنّ الدرس يوصله إلى الحصول على مهنة، هدفه من هذه المهنة أن يحصل على الثروة، وبهذه الثروة، يبني له مسكنًا ويقتني سيارة وزوجة أو يكوّن له بيتًا أو يتمتّع ويستلذ، وهكذا ...إلخ، فهذه الأمور كلّها دنيوية، ولا شيء يحصل عليه وراء هذه الدنيا، غاية الأمر أنّ جهده منصبٌّ على هذه الدنيا لا أكثر، فليس عنده هدف غير الدنيا، وجميع أموره محورها الدنيا، هذه الحياة حياة اعتبارية، وحياة نستطيع أن نسمّيها حيوانية، فالجمادات أيضًا لها حياة، ولكن لا نعرف كُنه حياتها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، و﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2]، فلدينا حياة نباتية، وهذه الحياة النباتية عبارة عن رشد ونمو، ولدينا حياة حيوانية، وهي عبارة عن أكل وشرب والتذاذ وافتراس، فالقوي يتسلط على الضعيف، إنها متعة أيام وتنتهي هذه الحياة الحيوانية.

لكن وراء الحياة الحيوانية توجد حياة إنسانية، وهذه الحياة الإنسانية تتعلّق بالنفس الإنسانية ومعرفة النفس أنفع المعارف، وهي التي يُعبّر عنها الله تبارك وتعالى بقوله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[3]، فهذه الآية عندما تقول بالنسبة للكفار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[4]؛ أي هي محلٌّ لهم، فلا تريد الآية أن تتعرّض بالسبّ والشتم للكفار؛ بل تذكر حقيقة حياتهم بأنّهم لا هدف لهم أكبر من الهدف الحيواني، فليس عندهم هدف إنسانيّ، بينما الحياة فيها هدف، فالله خلق الحياة لأهداف ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[5]، لابدَّ للإنسان أن يُخطّط ويبرمج في

---

١. النحل: ٤٩

٢. الإسراء: ٤٤

٣. الحجر: ٢٩

٤. محمد: ١٢

٥. المؤمنون: ١١٥

حياته؛ بحيث يحوّل الدنيا إلى مزرعة للآخرة ﴿اِنَّا لِلّٰهِ وَاِنَّآ اِلَيْهِ رٰاجِعُونَ﴾[1]. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «رَحِمَ اَللّٰهُ اِمْرَءً أَعَدَّ لِنَفْسِهِ وَاسْتَعَدَّ لِرَمْسِهِ وَعِلْمَ مِنْ أَيْنَ وَفِي أَيْنَ وَإِلَى أَيْنَ»[2]. إنّ الدنيا وسيلة وليست هدفًا، فعليك أن تعمل، وأن تتعلّم، وتحصل على مهنة، وتكتسب ثروة، وسلطة، وقوّة، وتُكوّن حياةً زوجية، وتكون عندك إمكانيّات، فهذه الأمور كلّها وسائل، ثمّ ماذا؟ ولمن؟ وأين تتجّه بها؟ ﴿وَاِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ﴾[3]، المؤمن لديه هدف ﴿وَمٰا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰٓا اِلّٰا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَاِنَّ الدّٰارَ الْاٰخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4]؛ يعني أنّ الحياة الحقيقية لدى الإنسان هي الحياة الأخروية، فهناك يتحسّر ويقول: ﴿يٰا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيٰاتِي﴾[5]، فيعرف الحياة الحقيقية الإنسانية هناك، لكن الكفّار ما هي مشكلتهم؟ ﴿يَعْلَمُونَ ظٰاهِرًا مِنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَهُمْ عَنِ الْاٰخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ﴾[6]؛ ولذلك، يقول الله تبارك وتعالى أيضًا: ﴿فَاَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَلَمْ يُرِدْ اِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيٰا ۝٢٩ ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[7]؛ يعني أنّ علمهم يرجع إلى الدنيا أيضًا ﴿اِنَّ رَبَّكَ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ اَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدٰى﴾[8].

في هذا الصدد، نذكر بعض الروايات المفيدة - إن شاء الله تعالى - كما في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إذا غَضِبَ، وَإذا رَغِبَ،**

---

١. البقرة: ١٥٦
٢. الوافي، ج١، ص١١٦
٣. النور: ٤٢
٤. العنكبوت: ٦٤
٥. الفجر: ٢٤
٦. الروم: ٧
٧. النجم: ٣٠-٢٩
٨. النجم: ٣٠

وَإذا رَهِبَ، وَإذا اشْتَهى، حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النّارِ»[1]. الإنسان الذي يملك نفسه يعرف مصير حياته. وهذا العارف الكبير ميرزا جواد الملكي التبريزي، حتى بالنسبة للأكل والشرب، يقول: (كلوا للقوّة ولا تأكلوا للشهوة)؛ أي اللذة. طبعًا؛ إذا أكل المرء للذّة، فليس في أكله إشكال، لكنّه يقول: عند ذلك اِنوِ أنّك تأكل هذه اللقمة قربةً إلى الله تعالى؛ بمعنى أنّك تريد أن تكون عندك صحّة بدن وعافية وقوّة لعبادة الله «**قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحي وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزيمَةِ جَوانِحي**»، فلابدّ أن يلتفت الإنسان حتى إلى الأكل والشرب؛ فيقول عند الشروع بأكل الزاد: بسم الله الرحمن الرحيم، وفي نهاية الأكل: الحمد لله ربّ العالمين. إنّ بعض العرفاء يطيلون جلوسهم على مائدة طعامهم، ففي كلّ لقمة يتوجّهون ويذكرون الله تبارك وتعالى كثيرًا، ولا يأكلون اللقمة عبثًا، فالمهمُّ أنّ الطريق إلى هذا الأمر أيّها الإخوة هو جهاد النفس، وهذا الشهر الفضيل هو شهر جهاد وتزكية النفس. يقول الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2]، ينبغي أن نتوجّه إلى تزكية أنفسنا، فأنفع المعارف معرفة النفس، وهذا الطريق موجود أمامنا، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[3]، وفي نفس الوقت يؤنّبنا الله تبارك وتعالى فيقول: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[4]. إذًا؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[5]؛ أي هي محلٌّ لهم، يعني بما أنّ حياة الكفّار بلا أهداف إنسانية تتعلّق بالمبدأ والمعاد، فحياتهم حياة حيوانية، وليست

---

١. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢٤٣

٢. الشمس: ١٠-٩

٣. الذاريات: ٢١-٢٠

٤. الحشر: ١٩

٥. محمد: ١٢

إنسانية، وبعيدون عن الحياة الحقيقية ﴿النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[1]؛ أي محلّهم النار. يقول البعض إنّ محلّهم النار حتى في الدنيا، وليس فقط في الآخرة، لكن بقرينة المقابلة مع الآية الشريفة التي ذكرت قبلها: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[2]، المقصود: والنار مثوى لهم؛ أي في الآخرة مصيرهم النار. لكنّ البعض يستشهد مثلًا بهذه الآيات: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3]، أو ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[4]، بأنّ حياتهم في الدنيا أيضًا جحيم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[5].

مسخ الهوية الإنسانية

ثمّ إنّ هذا الإنسان الذي يعيش حياةً حيوانية ولا يفكّر بالمبدأ والمعاد، مآله إلى السقوط ومسخ هويته الإنسانية، على أنّ هذا المسخ للهوية الإنسانية تارةً يكون عن طريق تكويني إلهيّ، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[6]، وأخرى يكون مسخ الهوية الإنسانية بالعمل، فاليوم نرى في أوروبا وأمريكا بعض الناس لا يروق لهم أن تكون عيشتهم - نستجير بالله - عيشةً إنسانية، فيجرون عمليات جراحيّة على أجسامهم ويحوّلون أشكالهم - أجلكم الله - إلى شكل الكلب، والحمار، والخنزير، ويتباهون بهذا العمل ويفتخرون به، فهو مسخ إراديٌّ؛ لأنّهم لم ينتفعوا من الحياة الإنسانية؛ بل هناك ما هو أكثر من ذلك؛ ففي الشهر الماضي في بولندا حدثت مظاهرات، وكان أكثر من عشرة آلاف إنسان في هذه المظاهرات يطالبون بحقٍّ إنسانيٍّ على الحكومة البولندية أن تعترف بهم بأنّهم

١. نفس المصدر
٢. الحج: ٢٣
٣. العنكبوت: ٥٤
٤. الأعراف: ١٧٩
٥. طه: ١٢٤
٦. البقرة: ٦٥

كلاب وينبحون نباح الكلاب وأشكالهم أشكال الكلاب رجالًا ونساءً. وكذلك ظهرت ظاهرة الزواج مع الحيوانات، وليس زواج المثلية فحسب، ويتباهون بذلك؛ بل أكثر من ذلك، فالسقوط الإنسانيّ والفاصل الطبقي بين طبقة الأثرياء والفقراء وصل إلى مرتبة الرِّقّية المعاصرة، الرِّقّيّة الحداثوية، فما هي الرِّقّية الحداثوية؟ هي أنّه توجد مجموعة من الناس الفقراء الذين لا يتمكّنون من أن يديروا حياتهم المادّية ويدبّروا وضعهم المعيشيّ، وبالمقابل توجد طبقة أثرياء من الدرجة الأولى، وهي موجودة في لندن وكذلك في جميع القارة الأوروبية، فيؤجر الفقير نفسه عند الثريّ القوّي على أن يكون كلبًا له، ويلبس لباس الكلاب ويمشي على أربع وينبح، ويُسخّر نفسه لهذا الثري الرأسمالي تسخيرًا مطلقًا، فينفّذ كل ما يريده، وهو يشعر بأنّه مرتاح وأنّه يعيش عيشة الكلاب، ويجرّونه بالقلادة والسلاسل، ويرافقهم في الشوارع وهم يتباهون. وقد أجروا لقاءات صحفية مع هؤلاء وكانوا يقولون: إنّنا مرتاحون ونعيش عيشة الكلاب ونحصل على زاد وطعام وشراب وخدمة من مولانا وسيدنا. هذا هو مسخ الهوية الإنسانية.

إذًا؛ القرآن عندما يقول: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[1]، فهو يشير إلى أنّ الإنسان الذي يبتعد عن رحمة الله وعن الله، يسقط إلى هذه الدرجة، كما يقول الله تعالى: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2]. لماذا صار هؤلاء: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[3]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[4]؟ الجواب: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾[5]، أنتم أخذتم

---

١. محمد: ١٢

٢. الأعراف: ١٧٩

٣. محمد: ١٢

٤. الأحقاف: ٢٠

٥. نفس المصدر

حظّكم في الدنيا وانتهى كلُّ شيء عندكم في الدنيا، وليس عندكم شيء تطالبون به، كنتم منقطعي الأول والآخر، لا معتقدين بالله ولا معتقدين بالآخرة، كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَاَنْسٰىهُمْ اَنْفُسَهُمْ﴾[1]، بينما الإنسان المؤمن حياته مقرونة بأهداف سامية ويعتقد ﴿وَاَنَّ اِلٰى رَبِّكَ الْمُنْتَهٰى﴾[2]. وهذا هو الفرق بينهما

إذًا؛ لابدَّ أن نهتمَّ بأنفسنا، فنجاهد أنفسنا، ونرى ما هي حقيقة الحياة الإنسانية. ولا بأس أن أشير هنا بالمناسبة إلى أنّ العارف والفقيه الكبير آية الله العظمى المرحوم السيد عبد الأعلى السبزواري (رضوان الله تعالى عليه) له كتاب بعنوان: (مهذّب الأحكام) ، في هذا الكتاب يشرح جهاد العدو وجهاد النفس من الوسائل شرحًا فقهيًا، وفي فصل جهاد النفس من كتاب الجهاد، يذكر أنّ معرفة النفس من أهم مقدمات جهاد النفس، وقد حاول الكثير من المسلمين وغيرهم التوصل إلى معرفتها حق المعرفة، وكتبوا في ذلك الكثير من الكتب والمؤلفات، لكنهم لم يوفّقوا في ذلك إلا بمقدار ما لديهم من معرفة لا تعبّر عن الواقع، ثم يقول: (ولعل أقربها إلى الثواب ما عن بعض العارفين من أنّه لو فرض تجلّي الذات الأقدس الربوبي في صورة الممكنات، لا يتجلّى إلّا في حقيقة النفس الإنسانية)[3]. يعني أنّ الله إن أراد أن يتجلّى للعبد، يتجلّى له بصورة النفس الإنسانية، فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام هم مظهر لأسماء الله وصفاته، فالتجلّي الربوبي التام عند محمّد وآل محمّد، لكنّ هذا التجلّي لا يتعلّق بأجسامهم وإنّما يتعلّق بأرواحهم الطاهرة ﴿اِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4]، فلو فرض وجود ممكن لحضرة المرتبة الأحديّة، فلا يصل إليها إلّا النفس الإنسانية.

---

١. الحشر: ١٩

٢. النجم: ٤٢

٣. عبد الأعلى السبزواري، مهذب الأحكام، ج١٥، ص٢٧١.

٤. الأحزاب: ٣٣

ولعله إلى هذا أشار الحكيم السبزواري بقوله: «وإنّها - يعني النفس - بحت وجود ظلُ حقٍ»[1]. النفس الإنسانية وجود محض وحقيقة محضة، وهي ظلٌّ من ظلِّ الله تبارك وتعالى، فهناك ذات فوق التجرّد المطلق؛ يعني أنّ هذه النفس الإنسانية تتجاوز مرحلة التجرّد، وتصل إلى مرحلة القدس ومرحلة الخلافة التامّة الإلهية، فالله تبارك وتعالى هو أعطانا هذه النفس، فلا ينبغي لنا أن نفقدها ونربطها بقضايا لا تستحق أن نشتغل بها.

إذًا؛ يلزمنا أن نلتفت إلى أنفسنا ونجاهد أنفسنا ونزكّيها، وننتهز فرصة شهر رمضان الفضيل لتغيير عاداتنا وسلوكنا ونمط حياتنا، ونثقّف أنفسنا بالثقافة القرآنية وثقافة أهل البيت، ونبدأ من خلال جهاد النفس وتحريرها وتطهيرها. والأخلاقيون والعرفاء يقولون: أربع مراتب على المرء أن يواظب عليها هي: المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاتبة، فعليه أن يشارط نفسه كلّ صباح بأن لا يذنب، ويراقبها طوال اليوم، ويحاسبها آخر اليوم، ثمّ يعاتب نفسه: لماذا أذنب؟

ثم يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[2]. إنّ هذه الآية تطيّبٌ لقلب رسول الله؛ فحتى الشخص الأول في الإسلام والقيادة والقائد يحتاج إلى من يُطيّب نفسه، فتوجد آيات في القرآن الكريم تُسمّى آيات التطيّيب وآيات التسلية، والمقصود بها أنّ الله تبارك وتعالى يُسلّي الرسول الأكرم ويطيّب قلبه ويطمئنه بأنّه معه وناصره. والقرية ليست بمعنى القرية المعاصرة، فالقرية كانت تشمل المدينة التي يوجد فيها إعمار وبناء وسكن وحياة مدنية، فهذه تُسمّى قرية، ومشركو قريش، بالقياس إلى عاد وثمود والفراعنة وجيش أبرهة، ضعفاء عاجزون، والله قادر على تدميرهم والقضاء عليهم بسهولة.

---

١. الملا هادي السبزواري، شرح المنظومة لحسن زاده آملي، ج٥، ص١٢٥

٢. محمد: ١٣

عن ابن عباس أنّ النّبي ﷺ لمّا خرج من مكة إلى غار ثور توجّه إلى مكة وقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلي ولو لا أن أهلك أخرجوني ما خرجت»[1]. يقولون: فنزلت هذه الآية. فإذا كان هذا النقل صحيحًا، فتكون هذه الآية مكيّة وليست مدنية؛ يعني أنّ السورة كلها مدنية باستثناء هذه الآية. لكنّ هذا الكلام - حسب نظرنا القاصر - ليس صحيحًا، فالآية التي تتحدّث عن خروج النّبيّ من مكة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[2]، وليست هذه الآية، فالأولى أن تكون هذه الآية تطييبًا لقلب الرسول الأكرم ﷺ وهو في المدينة بأنك سوف ترجع إلى مكّة فاتحًا بإذن الله، كما أهلكنا الحضارات السابقة على مشركي قريش. ثمّ إنّ الآية تنسب الإخراج إلى مكة؛ حيث تقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[3]، ولا تنسب الإخراج إلى أهل مكة، وفي هذا إشارة إلى أنّ المجموعة التي تتسلّط على البلد هم الذين يحطّمونه، فإعمار البلد وفساده يتعلّقان بأعيانه والنخب والمسؤولين الذين يحكمونه.

وصلّى الله على محمّد وعلى آله الطاهرين.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨، ص١٦

٢. القصص: ٨٥

٣. محمد: ١٣

المحاضرة الخامسة

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾[1].

---

١. محمد: ١٥-١٤

مقارنة بين فريق الحق وفريق الباطل

لا زالت الآيات الشريفة في هذه السورة المباركة تُقارن بين فريقين؛ هما: فريق الحقّ، وفريق الباطل، وفريق الإيمان وفريق الكفر، لكنّ المقارنة هذه المرّة من ناحية امتلاك الأدلّة والعلم والبراهين والرؤية والمشروع؛ فجبهة الحقّ تمتلك مشروعًا متكاملًا ورؤيةً واضحةً قائمةً على أساس الحقّ المطلق ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[1]، ﴿ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[2]، و﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[3]. لكنّ الجبهة المقابلة جبهة الباطل والكفر لم يكن عندهم برهان، وأدلّة، ومشروع؛ بل إمّا أنّهم على باطل مطلق، وإمّا أنّهم خلطوا الحقّ والباطل، وإمّا أنّهم جاؤوا بحججٍ واهية وأوهام اختلقوها تحت عنوان أدلّة مصطنعة ومفبركة مثلما يقولون الآن، فليس عندهم أدلّة صحيحة، بل هي أدلّة مفبركة؛ حيث يقومون بتزيين الأعمال والتسويل وصناعة الصور الإعلامية المنمّقة والتي يحاولون من خلالها أن يبرّروا أسلوبهم وخداعهم ومكرهم وظلمهم وأمثال ذلك، فحتى الظالم الذي في وضح النهار هو ظالم بشكل مطلق، لا يقول أنا ظالم؛ بل يقول: أنا عادل، ويحاول أن يشرح ويبيّن معنى العدل، أو مثلًا الآن في عصرنا الحاضر،

---

١. البقرة: ١٤٧

٢. محمد: ٣

٣. محمد: ٢

نرى أنّ أمريكا وإسرائيل والدول الاستكبارية ومن تبعهم في المنطقة، يتحدّثون عن حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية والعدالة وخدمة المواطن كذبًا وزورًا، وبالواقع هو ازدواجية وتناقض بين الكلام والعمل، وربّما هم على قناعة بأنّ الذي يتحدّثون فيه ليس صحيحًا، لكنّ أهواءهم تسبّب بأن يزيّنوا سوء عملهم على هذا النحو، فالآية الشريفة تبيّن هذا أنه ﴿اَفَمَنْ كَانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهٖ﴾[1]؛ أي أنّ جبهة الحقّ وجبهة الإيمان لديهم رؤية واضحة وبيّنة، وعندهم دليل واضح وعلم ومشروع حقّ وبراهين وقوّة إقناع للطرف المقابل ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنٰاتِ﴾[2]، و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[3]، و﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوۤءُ عَمَلِهٖ﴾[4]، فهل يتساوى هذا مع من تبع جبهة الباطل الذي لم يكن على بيّنة وبرهان واضح عقلي أو مشروع، وإنما تبع هواه! هذه مقارنة؛ ففريق يعيش في الأوهام نتيجة التزيين والاغترار بعمله وتبعيّته للأهواء، وفريق يعيش برؤية واضحة وأدلّة قاطعة، فقد قال الله تعالى في هذا الصدد: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْاَخْسَرِينَ اَعْمٰالًا ۝١٠٣ اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَهُمْ يَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[5]، يظنون في الظاهر أنّهم أفضل الناس، ولكنّهم حسب الحقّ ﴿الْاَخْسَرِينَ اَعْمٰالًا﴾. لماذا؟ لأنّهم ﴿اُولٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَاۤئِهٖ فَحَبِطَتْ اَعْمٰالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَزْنًا﴾[6]. هذه هي البيّنة والدليل الواضح في الآية الشريفة من القرآن، وكذلك السنّة المطهرة والأدلة العقلية والمشروع المتكامل والحجّة، وينطلق أتباع الحقّ من الحجّة ومن الوظيفة، وهذا يعني

---

١. هود: ١٧

٢. الحديد: ٢٥

٣. الأنفال: ٤٢

٤. محمد: ١٤

٥. الكهف: ١٠٤-١٠٣

٦. الكهف: ١٠٥

امتثالهم للشرع المقدّس.

تزيين سوء العمل

﴿اَفَمَنۡ كَانَ﴾ استفهام إنكاريٌّ، والتزيين هو طبيعة الإنسان، والتزيين يعني التبرير، واصطناع أدلّة وهميّة، دائمًا وأبدًا؛ فعادة ما يقوم هؤلاء الفاسقون والظالمون والفاجرون، وكذلك المسلمون المتراخون الذين لا يهتمون بتربية أنفسهم وتربية أسرتهم ومجتمعهم وأداء واجباتهم، بتبرير أعمالهم هذه، فإذا قيل لأحدهم: لماذا أنت على هذه الحال؟ فإنّه يقول: إنّ الظروف المحيطة بي لم تساعدني، فأنا فقير، أو الوالد والوالدة والبيئة الاجتماعية لم يعينوني؛ أي أنّه دائمًا يلقي اللّوم والتقصير إمّا على الأسرة، أو على الاقتصاد، أو المجتمع، أو يلوم الحكومة والحكم، وأمثال ذلك حتى يبرّر ما يقوم به وما هو عليه، والحال أنه طالما لم يكن الإنسان مسلوب الإرادة فهو مسؤولٌ عن عمله وباستطاعته أن يتغيّر.

عوامل التزيين في القرآن

ومن المهم أن نتحدث عن عوامل التزيين في القرآن، فعوامل التزيين ثلاثة:

أولًا: في سورة النمل، يُنسب هذا التزيين لسوء العمل، إلى الله تبارك وتعالى في الآية الرابعة منها؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِالۡاٰخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ اَعۡمَالَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[1]؛ يعني أنّ الله يزيّن لهم سوء الأعمال حتى يبرروا.

ثانيًا: وفي وسورة العنكبوت إلى الشيطان: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيۡطَانُ اَعۡمَالَهُمۡ﴾[2] الشيطان يزيّن الأعمال.

ثالثًا: الآية الأخرى التي تتحدّث عن التزيين هي نفس هذه الآية محل

١. النمل: ٤

٢. العنكبوت: ٣٨

البحث؛ حيث تقول: ﴿وَاتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[1]، التزيين ناشئ من هوى النفس.

فما هو الصحيح؟ كيف يمكن الجمع بنين هذه الآيات؟ فالله يزيّن سوء العمل، والشيطان يزيّن سوء العمل، وهوى النفس يزيّن سوء العمل، فمن هو المقصر؟ عندما تنسب الآية تزيين سوء العمل إلى الله، فهذا يعني أنّ الله تبارك وتعالى يعطي القدرة للإنسان في التصرف، ووزان هذه الآية عندما تقول: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُم﴾ هو الآية التي تقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، أو قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3]؛ أي أنّ الله يعطيه القدرة ويعطيه الأسباب والمسبّبات، لكنّ الخيار له وبعهدته. والشيطان يُنسب له تزيين الأعمال وسوء الأعمال؛ لأنّه يوسوس في صدور الناس.

إذًا؛ الباعث الأساس والمفتاح لتزيين الأعمال الهوى والرغبة، فقد روى أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ [اثْنَتَانِ] اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»[4]. الشاهد هنا أنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ ويمنعنه ، وأحد أساليب المنع عن الحقّ هو التزيين، تزيين سوء العمل وتبرير الأعمال الباطلة، أو كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «**كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ**»[5]. والتكليف هو أن تجاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم. ثلاثة أمور ينبغي للإنسان أن يواظب عليها: هوى النفس، وحبّ الدنيا، والشيطان. فبماذا يتعلّق حبُّ الدنيا؟ إنّه يتعلّق بالإغراءات، والثروة، والشهوة، والمنصب، والشهرة، والفرصة، فالإنسان يستفيد منها حتى يتقدّم في الدنيا، والشيطان من الخارج

---

١. محمد: ١٤

٢. الإنسان: ٣

٣. الشمس: ٨

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢، ص٣١٨

٥. بحار الانوار، ج٦٦، ص٤١٠

يحرّك الإنسان، فيقول له: لا تضيّع هذه الفرصة ولو كان المال من حرام، ولو كانت القضايا غير صحيحة ولا شرعية. لكن بالنهاية متى يكون الخيار؟ إنّه تابع لهوى النفس، كما قلنا: «**مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا رَغِبَ، وَإِذَا رَهِبَ، وَإِذَا اشْتَهَى، وإِذَا غَضِبَ، وَإِذَا رَضِيَ، حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ**»؛ يعني أنّه ينبغي للإنسان أن يمتلك هوى النفس. إذًا؛ الآية تقول: ﴿اَفَمَنْ كَانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهٖ كَمَنْ زُيِّنَ لَهٗ سُوْٓءُ عَمَلِهٖ وَاتَّبَعُوْٓا اَهْوَآءَهُمْ﴾[1] بمعنى هل يستوون؟ كلا؛ فهذا على حقٍّ واضح، وذاك يزيّن سوء الأعمال.

مقايسة المصير في الجنة والنار

ثمّ إنّ الآية تنتقل إلى مقايسة ومقارنة أخرى؛ هي مقارنة في نهاية المصير في الجنة والنار، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِيْ وُعِدَ الْمُتَّقُوْنَ فِيْهَآ اَنْهٰرٌ مِنْ مَّآءٍ غَيْرِ اٰسِنٍ وَاَنْهٰرٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهٗ وَاَنْهٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشّٰرِبِيْنَ وَاَنْهٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾[2]، فخالدٌ في النّار: يعني أصحاب النار، فكيف تتمُّ المقايسة؟ مقايسة الجنة ومقارنتها مع أصحاب النار، والمفترض أن تكون المقارنة مثل أهل الجنة مثل الأتقياء، فلماذا قال الله تبارك وتعالى هنا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾؟ الجواب: الجنة هي تجسيد لأعمالنا، والنار أيضًا تجسيد لأعمالنا ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾[3]، فما هي حقيقة عملنا؟ إنّ هذا العمل يتحوّل إلى جنّة أو نار؛ أمّا القاسطون ﴿فَكَانُوْا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[4]، فهم يصيرون حطب جهنم، أو ﴿وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[5].

---

١. محمد: ١٤

٢. محمد: ١٥

٣. الصافات: ٣٩

٤. الجن: ١٥

٥. التحريم: ٦

أمّا بالنسبة للجنة، فهكذا أيضًا تتحدّث الآية الشريفة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾[1]، وهذه الأنهار هي عبارة عن المعارف الإلهيّة الحقّة التي يتلقّاها الإنسان في الدنيا ويعمل بها، فهي تتحوّل إلى أنهار الجنة، فالمقايسة من هذه الناحية. وهذه النقطة الأولى.

النقطة الأخرى: بيان مفردات هذه الآية الشريفة، فبالنسبة للمفردات تقول الآية الشريفة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُون﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه سبحانه، فالمتّقون يأتمرون بأوامر الله وينتهون بنواهيه، ووعدهم أن يدخلهم فيها، تلك الجنة التي فيها أنهار وعيون. وهنا يتحدّث عن أربعة أنهار:

أولًا: أنهار من ماء غير آسن، والماء غير الآسن هو الماء الذي لم يتغيّر طعمه ولا لونه ولا رائحته ولا يتحوّل إلى ماءٍ نتن، فهذا الماء لا يتحوّل ولا يتغيّر بسبب طول المكث.

ثانيًا: فيها أنهارٌ من لبن، هذا اللبن أيضًا لم يتغيّر طعمه.

ثالثًا: وفيها أنهار أيضًا من عسلٍ مصفّى من الشوائب. ولهم فيها أيضًا من كلّ الثمرات.

رابعًا: ومن هذه الأنهار أيضًا، أنهار من خمر لذيذة للشاربين.

هناك ثلاث صفات سلبية للأنهار التي ذكرت، وهي:

الوصف السلبيّ الأول: أنهار من ماء غير آسن؛ أي لم يتغيّر طعمه ولونه ورائحته.

الوصف السلبيّ الثاني: أنهارٌ من لبن لم يتغيّر طعمه.

الوصف السلبيّ الثالث: أنهارٌ من عسل مُصفّى؛ أي ليس فيه شوائب العسل،

---

١. محمد: ١٥

فيكون نهرًا جاريًا صافيًا.

وهناك وصف إيجابي واحد وهو: لذّة للشاربين.

ثمّ بعد أن ذكرنا هذه الصفات الأربع لأنهار الجنّة الأربعة التي سنتحدّث عنها أكثر فيما يأتي، نشير إلى أنّ الحديث لم ينتهِ بهذه الأنهار الأربعة لأهل الجنة؛ بل وفيها من كلّ أنواع الثمرات ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[1]، وهذه نِعَمٌ مادّية، والنّعم المعنوية هي ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[2]، الله تبارك وتعالى يمنحهم غفرانًا وعفوًا ومحوًا لذنوبهم، فلا يؤاخذهم بالذنوب. والآن هل يستوي المتّقي الذي يتّصف بهذه المواصفات مع من هو ماكثٌ في النار لا يخرج منها أبدًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾[3]، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾[4]؛ أي ماءً شديد الحرارة؟ ثمّ إنّ هذا الماء الشديد الحرارة على أيّ مستوى يكون؟ ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[5]؛ يعني فقطّع أمعاء بطونهم من شدّة حرارته، فهل يستوي هذان الفريقان؟ كلا. ثمّ إنّه لا يوجد إشكال في الأنهار الثلاثة التي هي: من ماءٍ غير آسنٍ، ولبن لم يتغيّر طعمه، وعسل مصفى.

حقيقة خمر الجنة

فأين الإشكال إذًا؟ الإشكال يرد على (خمر لذّة للشاربين)، فكيف نفسرّه؟ الآية الشريفة الواردة في الخمر تقول: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[6]. إذا كان هذا الخمر ذنبًا، وفيه خباثة وسوء، فالمفترض أن لا يكون في الجنة ذلك، فكيف يمكن تصور أن يكون هذا الخمر

١. نفس المصدر
٢. نفس المصدر
٣. نفس المصدر
٤. نفس المصدر
٥. نفس المصدر
٦. المائدة: ٩٠

لذّة للشاربين وهو في الدنيا حرام؟! كيف يمكننا أن نحلّ هذا التناقض؟!

الجواب: الخمر الأخروي يختلف ماهيّةً عن الخمر الدنيوي، فكيف يكون الخمر في الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[1]؛ أي كأس من خمر معين، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[2]، لا يصيبهم صداع بسبب خمار يحصل من الخمر، ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾؛ يعني ولا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها؛ فإنّ فلسفة تحريم الخمر في الدنيا هو زوال العقل؛ حيث توجد مقاصد خمسة للشريعة هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ العقل، وحفظ المال، وقد شرّع الله تبارك وتعالى لحفظ الدين الجهاد في سبيل الله، وشرّع لحفظ النفس القصاص، وشرّع لحفظ العرض أحكام الأسرة وأحكام الحدود والتعزيرات التي تتعلّق بالزنا، وشرّع لحفظ العقل حرمة شرب الخمر وأوجب فيه الحد الموجود، وشرّع لحفظ المال حدّ السرقة، لكنّ خمر الجنة يختلف، فخمرها لا يسبّب صداع رأس ولا زوال عقل، وهذا بصريح الآية الشريفة.

حقيقة الأنهار الأربعة

والآن فنريد أن نتحدّث عن تلك الأنهار الأربعة بنحوٍ أكثر تفصيلًا، فقد قال الله تبارك وتعالى في آيات أُخر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾[4]. إذًا؛ توجد عيون في الجنة، وقال الله تعالى في سورة الإنسان أيضًا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[5]، فقوله

---

١. الواقعة: ١٨-١٧

٢. الواقعة: ١٩

٣. الحجر: ٤٥

٤. المرسلات: ٤١

٥. الإنسان: ٦

سبحانه: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يعني أعمالهم في الدنيا، تتحول هذه العين إلى عين مفجّرة تجسيدًا لأعمالهم، وهذا العمل هو العمل الذي يتعلّق بالولاية الخاصّة التي تحدثّنا عنها سابقًا. وترتبط هذه الآية بولاية محمّد وآل محمّد ﷺ، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[1]، فهذه العين خاصّة بالمقرّبين من أولياء الله. ثمّ إنّ حقيقة هذه الأنهار الأربعة هي تجلّيات وظهور ملكوتي وتجسيدٌ لأعمال المتّقين وتجسيد لعلومهم ومدى ارتباطهم بولاية محمّد وآل محمّد ﷺ، فكيف تُخلق تلك الأنهار الأربعة؟

تُخلق تلك الأنهار الأربعة من خلال العلم، والإيمان، والولاية، والالتزام بخط ولاية أهل البيت عليهم السلام، وتلقّي المعارف الإلهيّة. فالتجسيد الملكوتي لهذه الأنهار الأربعة يتعلّق بعمق تلك الولاية، ونحن قد تحدّثنا في الآيات السابقة عن وجود خطّين هما: خط الولاية، وخط أعداء الولاية، فخطّ الولاية وخط أعداء الولاية يتجلّيان في الحضور في الميدان، ومن ذلك الميدان، ميدان التضحية والفداء، وميدان نصرة الدين، ثمّ جاءت المقارنة بأبعاد مختلفة إلى أن وصلنا إلى المقارنة بين الجنة والنار، والمقارنة بين الجنة والنار تتعلّق أيضًا بخطّ التولّي والتبرّي، وخطّ الولاية وخطّ أعداء الولاية. وعلى الرّغم من أنّ ظاهر هذه الأنهار الأربعة أنها أنهار أربعة: نهرٌ من ماء، ونهر من لَبَن، ونهر من عسل، ونهر خمر لذّة للشاربين، إلا أنّ حقيقتها وعمقها والبُعد الملكوتي لها أنّها تُخلَق من خلال المعرفة، والمحبّة، والارتباط، والشفاعة، والتوسّل بمحمّد وآل محمّد ﷺ.

الشراب الطهور وحوض الكوثر

يقول الله تعالى في آيات أُخرى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[2]. الطَّهور: طاهر ومطهِّر، وليس طاهرًا فقط. الطاهر في الجنة معلوم أنه طاهر، ولكنّه

١. المطففين: ٢٨

٢. الإنسان: ٢١

مطهِّر أيضًا، فمن أيّ شيء هو مطهر؟

الجواب: إنه يتخلّص هناك من أيّ شائبة تتعلّق بالشرك الخفي، فروحه، وقلبه، وعقله، ونفسه، ووجوده، يتعلّق بربّ العزّة والجلالة مطلقًا من خلال هذا الساقي شرابًا طهورًا، فهذه الأنهار الأربعة في رواية عن رسول الله ﷺ أنّها موجودة تحت شجرة طوبى، ولا شكَّ في وجود حوض وأنهار أُخرى، وهذا الحوض هو حوض الكوثر، وحوض الكوثر تحت بطنان عرش الله، والذي يسقي من هذا الحوض والقائم عليه هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثمّ هناك آيات أخرى تتحدّث عن هذا الساقي من الشراب الطهور؛ مثل الآية الشريفة: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾[1]، فلماذا الزنجبيل دون غيره؟ لأنّ طبع الزنجبيل حارٌّ، فذلك الإنسان المتعطّش والمرتبط بعمق الولاية يتشوّق إلى الارتباط وإلى أن يكون من رفقاء أولياء الله ليُسقى من الكأس الذي فيه لذّة للشاربين. والشراب طهور لكنّ مزاجه من زنجبيل، مزاجه مزاج حار، وأحيانًا لا يحتاجون بالواقع إلى شراب؛ فهذا الشراب الطهور يتجلّى فيه الجمال الإلهيّ ويعطيهم طمأنينة وسكينة، فيعطونهم كأسًا بالواقع ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[2]. لماذا مزاجها الكافور؟ هنا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس؛ فمزاج الكافور في الدنيا بارد، فالكافور هو مادّة باردة، فيحتاج المؤمن إلى تهدئة وراحة بال؛ أي يُصلح بالهم ويمنحهم سكينة وراحة وطمأنينة وتجليًا للجمال الإلهيّ. طبعًا؛ في المقابل: الإنكار، والجحود، والجهل، والعداء، والاستكبار، فهنا يتحوّل ذلك إلى حميم ونار حامية، تقول الآية الشريفة: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[3].

---

١. الإنسان: ١٧

٢. الإنسان: ٥

٣. الغاشية: ٤-٥

أمّا الأبرار، فيقول الله سبحانه أيضًا عنهم: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾[1]. التسنيم: هي عين تجري تحت أقدام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتصب في حوض الكوثر. وأمّا ماء حوض الكوثر، فهو مزيجٌ من الرحيق المختوم؛ أي هذا الخمر الذي هو لذّة للشاربين الذي يُسمّى بالرحيق المختوم، ففي بعض الأحيان يختم الإنسان بالطين، لكنّ هذا الإنسان بماذا يُختم؟ إنّه يختم بالمسك والرائحة الطيبة، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2]، ومزيج من رحيق محتوم وعين المعين، هذا الخمر المعين يُطهّرُ بماء التسنيم. فما هي حقيقة ماء التسنيم؟ الظاهر ليس له حقيقة، فحقيقة ماء التسنيم محبّة ومعرفة وولاية محمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله. وهذا يعني أنّ تلك الروايات التي نقرأها في شأن أمير المؤمنين عليه السلام تتجلّى هناك في هذه العيون وهذه الأنهار «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[3]، أو «**أنت وليُّ كلّ مؤمنٍ ومؤمنة بعدي**»[4].

لا قيمة للعلم بلا عمل

وهذا الأمر ليس خاصًّا بالعلماء فقط؛ فالعلم إذا لم يمتزج بالعمل فلا قيمة له، ويتحوّل إلى وبال على العالم، فهذا العلم الذي يُدرَس ويُحصَّل مسبوق بعدم وملحوق بعدم؛ أما العدم السابق، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[5]، وأما العدم اللاحق، فيشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[6]. تلاحظون أحيانًا أنّ الإنسان تصيبه صدمة فتنمحي ذاكرته، وبعد ذلك لا يعرف أباه ولا أخاه، فتتولّد له

١. المطففين: ٢٧
٢. المطففين: ٢٦
٣. علوي عاملي، الحاشية على أصول الكافي، ص٤٤
٤. الأمالي للطوسي، ص٣٥١
٥. النحل: ٧٨
٦. النحل: ٧٠

الكثير من المشاكل، فإذا كان عند هذا الإنسان علمٌ ظاهريٌّ فقط، وليس عنده علمٌ باطنيٌّ، فإنّه عندما يصل إلى القبر، بعد ما كان يتحدّث بالمعارف الإلهية ستين سنةً أو سبعين سنة، يُسأل: من ربُّك؟ فإنّه لا يعرف الجواب، ومن نبيّك؟ فلا يستطيع أن يجيب؛ لأنّه لم يُعجن التوحيد في عمق وجوده ولم يختمر بعدُ، فهو يفقده داخل عمق وجوده، فالمحفوظات التي تتراكم في الحافظة تُنسى.

وعلى العكس منه، إذا كان أحد أبناء الأمّة حافظًا لأربعين حديثًا بما يتناسب مع شؤونه الدينية ويعمل بتلك الأحاديث، فسيحشره الله تعالى عالمًا فقيهًا يوم القيامة، ويكون من أهل النجاة، وهذه الأنهار تُعطى له ويسقى من ماء الكوثر، وينطبق عليه حديث «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»، فحقيقة العلم والمعرفة تتحوّل إلى توحيد وإلى عمل صالح وإلى بُعد إلهيٍّ كبير.

أذكر لكم روايـة حول الأربعين حديثًا، وهي في كتاب الخصال للشيخ الصدوق بسنده عن جعفر بن محمّد عن أبيه الإمام الباقر عن أبيه الإمام علي بن الحسين عن الحسين بن علي عليهم السلام، قال: «**إنّ رسول الله أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان فيما أوصى به أن قال: يا عليّ من حفظ من أمّتي أربعين حديثًا يطلب بذلك وجه الله عزّ وجلّ والدار الآخرة** - يتعلّم أحاديث الآخرة ويعمل بها وليس للدنيا - **حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فقال عليٌّ: يا رسول الله أخبرني ما هذه الأحاديث؟**.. إلى أن يقول: «**فقال: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له وتعبده، ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سابق في مواقيت، ولا تؤخرها، فإنّ في تأخيرها من غير علّة غضب الله**». إلى آخر هذه الرواية الشريفة فهي طويلة[1].

إذًا؛ تحدّثنا عن تسنيم الذي هو بيد أمير المؤمنين، وهذه الأنهار الأربعة تحت

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥٥- ١٥٤.

شجرة طوبى، ونهر حوض الكوثر تحت بطان العرش، ويسقى الإنسان المؤمن من يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وهذا هو أحد تفاسير الكوثر.

معنى الكوثر

وبهذه المناسبة نتحدّث باختصار جدًا عن الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1]. ومعنى الكوثر - كما قال الشيخ الطبرسي في مجمع البيان - يوجد اختلاف فيه؛ فقيل: هو نهرٌ في الجنة. وقيل: «**نهرٌ في الجنة أشدُّ بياضًا من اللبن، وأشدُّ استقامةً من القدح، حافّتاه قباب الدر والياقوت، ترده طيورٌ خضر لها أعناق كأعناق البخت. قال: يا رسول الله ما أنعمت تلك الطيور؟ قال: فلا أخبركم بأنعم منها؟ قالوا: بلى، قال: من أكل الطائر وشرب الماء وفاز برضوان الله**»[2].

وروي عن الإمام الصادق: «نَهْرٌ فِي اَلْجَنَّةِ أَعْطَاهُ اَللَّهُ نَبِيَّهُ عِوَضاً مِنِ اِبْنِهِ»[3]. وقيل: هو حوض النبيّ صلى الله عليه وآله الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة عن عطاء.

وقال أنس يتحدّث أيضًا عن هذا الحوض بشكل مفصّل وأنّ النّبيّ يسأل عن أصحابه، ثمّ يُقال: «**إنّك لا تدري ما أحدثوا من بعدك**»[4]. أورده مسلم في الصحيح.

وقيل: الكوثر يعني الخير الكثير، عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد. وقيل: الكوثر يعني النبوّة والكتاب، عن عكرمة. وقيل: الكوثر يعني القرآن، عن الحسن. وقيل: الكوثر هو كثرة الأصحاب والأشياع، عن أبي بكر بن عياض. وقيل: هو كثرة النسل والذريّة، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة بنت محمّد عليها السلام بحيث لا يُحصى عددهم اليوم، واتصل هذا النسل إلى يوم القيامة. وقيل: هو

١. الكوثر: ١
٢. بحار الأنوار، ج٨، ص١٦
٣. بحار الأنوار، ج١٦، ص٣١١
٤. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام، ج٢، ص٢٦٢

الشفاعة، كما عن الإمام الصادق.

وحقيقة الأمر أنّ لفظ الكوثر يعني الخير الكثير، وهذا الخير الكثير ينطبق على جميع المعاني المذكورة آنفًا، وحوض الكوثر أيضًا مُستل من هذا المعنى.

ثمّ هناك رواية عن الشيخ المفيد في المجالس ومحمّد بن أبي القاسم الطبري الشيعيّ في بشارة المصطفى والشيخ الطوسي في الأمالي عَن الْمُفِيد عَنِ ابْنِ قُولَوَيْهِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَامِرٍ عَنِ الْمُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُمْهُورٍ الْعَمِّيِّ عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْوَابِشِيِّ عَنْ أَبِي الْوَرْدِ قَالَ: «**سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْبَاقِرَ عليه السلام يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عُرَاةً حُفَاةً، فَيُوقَفُونَ عَلَى طَرِيقِ الْمَحْشَرِ حَتَّى يَعْرَقُوا عَرَقًا شَدِيدًا وَتَشْتَدَّ أَنْفَاسُهُمْ، فَيَمْكُثُونَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلا تَسْمَعُ إِلّا هَمْسًا﴾[1] قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تِلْقَاءِ الْعَرْشِ أَيْنَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ؟ قَالَ: فَيَقُولُ النَّاسُ: قَدْ أَسْمَعْتَ كُلًّا فَسَمِّ بِاسْمِهِ، قَالَ: فَيُنَادِي أَيْنَ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَيَقُومُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَوْضٍ طُولُهُ مَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ فَيَقِفُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُنَادِي بِصَاحِبِكُمْ فَيَقُومُ أَمَامَ النَّاسِ فَيَقِفُ مَعَهُ، ثُمَّ يُؤَذِّنُ لِلنَّاسِ فَيَمُرُّونَ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: فَبَيْنَ وَارِدٍ يَوْمَئِذٍ وَبَيْنَ مَصْرُوفٍ، فَإِذَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَنْ يُصْرَفُ عَنْهُ مِنْ مُحِبِّينَا أَهْلَ الْبَيْتِ بَكَى وَقَالَ: يَا رَبِّ شِيعَةُ عَلِيٍّ يَا رَبِّ شِيعَةُ عَلِيٍّ، قَالَ: فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِ [إِلَيْهِ] مَلَكًا فَيَقُولُ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَا أَبْكِي لِأُنَاسٍ مِنْ شِيعَةِ أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرَاهُمْ قَدْ صُرِفُوا تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ وَمُنِعُوا مِنْ وُرُودِ حَوْضِي! قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُهُمْ لَكَ وَصَفَحْتُ لَكَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ وَأَلْحَقْتُهُمْ بِكَ وَبِمَنْ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ وَجَعَلْتُهُمْ فِي زُمْرَتِكَ وَأَوْرَدْتُهُمْ حَوْضَكَ وَقَبِلْتُ شَفَاعَتَكَ فِيهِمْ وَأَكْرَمْتُكَ بِذَلِكَ**»، وهذه إحدى معاني

١. طه: ١٠٨

﴿كَفَّرَعَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1] التي تحدّثنا عنها، «**ثمّ قال أبو جعفر: فكم من باكٍ يومئذٍ وباكية؟ ينادون يا محمد، إذا رأوا ذلك فلا يبقى أحدٍ يومئذٍ كان يتولانا ويحبنا إلّا كان من حزبنا ومعنا وورد حوضنا**»[2].

ذكرت لكم سابقًا أنّ المعرفة والمحبّة والارتباط والتوسّل برسول الله وأهل بيته يتحوّل إلى هذه الأنهار الأربعة، ويتحوّل إلى اللياقة لنيل شربة من حوض الكوثر من يد رسول الله ومن يد أمير المؤمنين. طبعًا؛ حوض الكوثر مختصٌّ بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولا يسع المجال هنا للتوسع أكثر، لكن حتى روايات الثقلين الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله هي أيضًا تتحدّث عن حوض الكوثر. إذًا؛ هذه الآيات التي تحدّثنا عنها تتحدّث حقيقةً عن النتيجة النهائية لولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، وهي الاستقامة، هي الأنهار الأربعة تحت شجرة طوبى، والاستقاء من حوض الكوثر، وأنّ الإنسان يكون من رفقاء رسول الله وأهل بيته الكرام صلى الله عليه وآله. أمّا الذين لا يؤمنون بهذه الولاية ويعادونها ويقفون في مواجهتها ويعادون رسول الله وآله وينصبون لهم العداء، فكما تقول الآية الشريفة: ﴿سُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾[3].

هذه خلاصة الكلام فيما يتعلّق بهذه الآيات الشريفة، وللحديث صلة إن شاء الله. وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

١. محمد: ٢

٢. بحار الأنوار، ج٧، ص١٠٢

٣. محمد: ١٥

المحاضرة السادسة

﴿وَمِنۡهُمۡ مَّنۡ يَّسۡتَمِعُ اِلَيۡكَ حَتّٰٓى اِذَا خَرَجُوۡا مِنۡ عِنۡدِكَ قَالُوۡا لِلَّذِيۡنَ اُوۡتُوا الۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ اٰنِفًا اُولٰٓئِكَ الَّذِيۡنَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلٰى قُلُوۡبِهِمۡ وَاتَّبَعُوۡۤا اَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَالَّذِيۡنَ اهۡتَدَوۡا زَادَهُمۡ هُدًى وَّاٰتٰىهُمۡ تَقۡوٰىهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنۡظُرُوۡنَ اِلَّا السَّاعَةَ اَنۡ تَاۡتِيَهُمۡ بَغۡتَةً فَقَدۡ جَآءَ اَشۡرَاطُهَا فَاَنّٰى لَهُمۡ اِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرٰىهُمۡ﴾[1].

١. محمد: ١٨-١٦

المنافقون وأقسامهم

تتحدّث هذه الآيات الشريفة عن فريق ثالث، هو غير فريق المؤمنين وغير فريق الكافرين، هذا الفريق الثالث هو مع ثورة الباطل بتوجهاته، وهو فريق المنافقين. طبعًا؛ هناك بعض المفسّرين يفسرون هذه الآيات بغير ذلك، ويقولون: إنّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية الكفّار أيضًا، لكنّ سياق الآيات في هذه السورة لا يساعد على ما ذهبوا إليه؛ فجملة من هذه الآيات الشريفة تتحدّث عن الذين في قلوبهم مرض وغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ اِنْ تَوَلَّيْتُمْ اَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَتُقَطِّعُوْا اَرْحَامَكُمْ﴾[1] وباقي الخصوصيات، والمراد من هذه الآيات المنافقون.

أقسام النفاق

وإذا أردنا أن نشرح طبيعة الآيات التي تتحدّث عن النفاق في القرآن الكريم، فسنعرف من خلال تلك الآيات أنّ المنافقين على أقسام:

القسم الأول: منافقون في العقيدة؛ بمعنى أنّهم يستبطنون الكفر ويُظهرون الإيمان، فحقيقة باطنهم كفر، لكنّهم يقولون: نحن مؤمنون خوفًا أو طمعًا أو لأيّ مبرّر كان، كما تقول الآية الشريفة: ﴿نَشْهَدُ اِنَّكَ لَرَسُوْلُ اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اِنَّكَ

١. محمد: ٢٢

لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[1]، إلى أن تقول: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2]. فهذا قسم من النفاق، وهو النفاق في العقيدة، فهؤلاء المنافقون في العقيدة استسلموا واقعًا، لا أنّهم أسلموا؛ لأنّ الإسلام لابدَّ أن يكون بطواعية، والاستسلام فرض عليهم الإسلام.

القسم الثاني: المنافقون في العمل، هؤلاء المنافقون هم مرضى القلوب، هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، تتحدث عن هؤلاء الآيات ٧ إلى ٢٠ من سورة البقرة، ومنها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]. قد يقال إنّ هذا النفاق هو نفاق في العقيدة بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، لكن سياق الآيات يتحدث عن مرضى القلوب وهو نفاق عملي، نفاق أخلاقي، وبالملازمة يكون نفاقًا في العقيدة، تقول الآية الشريفة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[4]؛ أي عندهم مكر، وعندهم حيلة ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[5]، فالمرض القلبي يبدأ بنقطة سوداء، وهذه النقطة السوداء تتّسع إلى أن تشمل القلب كلّه بالتدريج ﴿زَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[6]. من جملة خصوصيات مرضى القلوب هؤلاء، أنهم يُظهرون بالمظهر الخارجي أنّهم مُصلحون ويريدون الإصلاح ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[7]، والقرآن الكريم يصرّح بأنّهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون، فالذي يقومون به هو

---

١. المنافقين: ١
٢. المنافقين: ٤
٣. البقرة: ٨
٤. البقرة: ٩
٥. البقرة: ١٠
٦. نفس المصدر
٧. البقرة: ١١

إفساد، وليس بإصلاح! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[1]، يوجّهون الإهانات للمجتمع المؤمن، ويعتبرون أنفسهم مثقّفين ومتنوّرين ونُخبًا وأساسيين بهذه الصور والأشكال، لكنّ حقيقتهم ليست كذلك، ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، فهؤلاء عندما يلتقون بالإنسان المؤمن يقولون له: نحن معك، نحن جماعة الإسلام وجماعة الإيمان، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[3]، نحن نخدع هؤلاء أهل الإيمان؛ أي يؤول الأمر بهم إلى أنّهم يصيرون مع الشياطين، والطغاة، والمستبدين، والظالمين، والفسقة، والمجرمين، والمعتدين، ويحاولون أن يحيكوا لهم المؤامرات مع أعداء الإسلام خفيةً، لكنّهم ظاهرًا مع جبهة الإسلام. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[4].

ثمّ يأتي الله تبارك وتعالى بمثالين لهذا النفاق.

القسم الثالث: ونُطلق عليه النفاق السياسي أو النفاق لخط ولاية محمّد وآل محمّد ﷺ، ويمثله المنافقون الذين يخطّطون لاستلام السلطة ويخطّطون عن طريق إحياء العلاقات الاجتماعية والسياسية والقبَلية، وقد اتّضح ذلك في صدر الإسلام في زمن النبيّ الأكرم ﷺ؛ حيث كانت الأمة الإسلامية التي تنتمي إلى رسول الله ﷺ عدة تيّارات:

التيار الأول: كان هناك تيار معروف باسم تيار أمير المؤمنين عليّ بن أبي

---

١. البقرة: ١٣

٢. نفس المصدر

٣. البقرة: ١٤

٤. البقرة: ١٦-١٥

طالب عليه السلام الذي كان موجودًا في زمن رسول صلى الله عليه وآله الله يسمّونهم (شيعة عليٍّ)، وقد صرّح بهم الرسول الأقدس عدّة مرات؛ منها قوله صلى الله عليه وآله: «يا علي شيعتك هم الفائزون يوم القيامة»[1]، و«عليٌّ خيرُ البرية»[2].

التيار الثاني: وهو تيار معادٍ لأمير المؤمنين عليه السلام، ويحاول دائمًا أن يروّج ضدَّ أمير المؤمنين والجماعة الخاصّين به في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هذا التيار، أولئك الذين عندما رجعوا من غزو اليمن، أخذوا يشتكون عند رسول الله من أمير المؤمنين، ومنهم خالد بن الوليد وغيره. وتفصيل الكلام في ذلك ليس محور بحثنا.

التيار الثالث: وهم المستضعفون، والفقراء، الذين هم دائمًا محتاجون، وعادةً ليست عندهم عشيرة ولا قبيلة ولا جماعة يعتنون بهم، لكنّ الإسلام جعلهم إخوة متحابّين مع الأمة الإسلامية.

التيار الرابع: الأنصار.

التيار الخامس: المهاجرون.

وهناك تيارات أخرى من هذا القبيل.

أصحاب التيارات وولاية النبيّ صلى الله عليه وآله

وأصحاب تلك التيارات، باستثناء تيار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في زمن رسول الله، لم يكونوا مستوعبين لولاية رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا زعامته للأمّة بالتنصيب الإلهيّ، وأنّ له كرامات وله مقامات، وأنّه نبيّ ورسولٌ ووليٌ؛ أي مخبر عن الله وينزل عليه الوحي، فالرسول يعني صاحب رسالة، وصاحب قرآن، ووليٌّ؛ أي هو زعيم سياسي واجتماعي وولي أمر الأمة الإسلامية بتنصيب من الله تبارك

١. بحار الأنوار، ج٦٥، ص٧

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٩٩

وتعالى. فهؤلاء لم يكونوا مستوعبين ومدركين لمسألة الولاية؛ فما كان يحكم عقولهم والموجود عندهم هو الزّعامة العشائرية، والنظام القبائلي والاجتماعي. ولكن بما أنّ للرسول ﷺ مقامًا عاليًا ومنزلة رفيعةً، وأنّه نبيٌّ ورسول، فإنّهم قبلوا ولايته هذه، لكنّهم كانوا يخطّطون لما بعد رسول الله؛ أي يخطّطون لإعادة سلطة النظام الاجتماعي السياسي القبائلي، فهؤلاء مع رسول الله ظاهرًا، لكنّهم في واقع الأمر يخطّطون لاستلام السلطة المستقبلية، وتسمى تلك الجماعة بالمصطلح القرآني بـ (المنافقين)، لكنّ نفاقهم نفاق سياسيٌّ. إذًا؛ عندنا نفاق عقائدي، ونفاق أخلاقي (عملي)، ونفاق سياسي لاستلام السلطة المستقبلية، يمارسه أصحاب النظام الاجتماعي والسياسي العشائري. أمّا الآيات القرآنية التي تتحدّث عن هذا الخط، فربّما تكون هذه الآية الشريفة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[1]. لقد ذكرنا سابقًا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول في فضل هذه السورة: «آيةٌ نزلت فينا وآيةٌ في بني أمية»؛ أي أنّ هذه الآية في بني أمية، فهناك خطان: الإسلام العلوي، والإسلام الأموي.

إذًا؛ هذا النفاق سياسي؛ لذلك، عندما أراد الرسول الأكرم أن يبلّغ ولاية أمير المؤمنين، كان يحتاط في ذلك الأمر، فبلّغه الله تبارك وتعالى له ﷺ بأنّه لا احتياط فيه؛ بل ﴿...بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[2]؛ أي أنّ الله يعصمك من هؤلاء. إذًا؛ هذا أيضًا تيار آخر ونفاق آخر، ونسمّيه النفاق السياسي.

القسم الرابع: النفاق الاجتماعي، والمقصود بالنفاق الاجتماعي ظاهرة التغالب على أساس المكر والخداع والكذب، الأمر الذي يسمّيه أصحاب الدنيا دهاء وكياسة، فيقولون: فلان كيّس؛ أي لديه القدرة على إدارة أموره وتمشيتها

١. محمد: ٢٣-٢٢

٢. المائدة: ٦٧

في المجتمع، فهو ينافق ويراوغ، فهؤلاء يعملون بمقولة: (إن لم تكن ذئبًا أكلتكَ الذئابُ)، فإما غالب أو مغلوب، لكنّ الله تبارك وتعالى يقول لنا في الحياة الاجتماعية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، الصدق بشكلٍ مطلق في العقيدة، والصدق بشكلٍ مطلق في العمل، والصدق بشكلٍ مطلق في السلوك، والصدق بشكلٍ مطلق في القيم، والصدق بشكل مطلق في الكلام، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[2]. وأمّا الإنسان غير الصادق في الحياة، فإنّه يعيش بحالة ازدواجية، ويجمع بين المتناقضات، ويحاول أن يرضي الجميع ويجمع بين الحق والباطل، فهذا منافق اجتماعي، فهو يريد أن يسلك في جميع ذلك القبيح والحسن، والحق والباطل.

روايات في النفاق

وفي هذا الصدد توجد روايات؛ فمنها مثلًا:

الرواية الأولى: عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**أربع من علامات النفاق: قساوة القلب، وجمود العين، والإصرار على الذنب، والحرص على الدنيا**»[3]. هذا هو المنافق بالحياة الاجتماعية؛ حيث يقول المنافق: نريد أن نعيش، فهو مستعدٌّ لفعل كلِّ شيء، هؤلاء هم الذين يصفهم الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «**إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالدِّينُ لَعْقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ**». هذا أيضًا نفاق اجتماعي.

الرواية الثانية: عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**علامة المنافق ثلاث** - أي آية المنافق ثلاث - **إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أُؤتمن خان**»[4]. وغيرها

---

١. التوبة: ١١٩

٢. الأحزاب: ٢٣

٣. بحار الأنوار، ج٦٩، ص١٧٦

٤. جامع أحاديث الشيعة، ج٢٣، ص١١٥٦

الكثير من الروايات الواردة في الباب.

إذًا؛ لدينا أربعة أقسام من النفاق: النفاق العقائدي، والنفاق الأخلاقي، والنفاق السياسي، والنفاق الاجتماعي.

وهنا نشير إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ كلّ قسم من هذه الأقسام قابل للاجتماع مع غيره؛ فالنفاق الاعتقادي قد يؤدّي إلى النفاق الأخلاقي، والنفاق الأخلاقي قد يؤدّي إلى النفاق السياسي، والنفاق السياسي قد يؤدّي إلى النفاق الاجتماعي، بعض الناس قد تشمله جميع تلك المراتب من النفاق، وبعضهم يشمله بعضها، وباصطلاح النسب الأربع: بينها عموم وخصوص من وجه. لكن أيّ قسم من تلك الأقسام الأربعة للنفاق هو الأسوأ من بينها؟ إنّه النفاق الأخلاقي؛ فهو مرض في القلب يؤدي إلى إنكار العقيدة، ويؤدّي إلى الارتداد، ويؤدّي إلى النفاق السياسيّ، ويؤدّي إلى أن يتحول الشخص إلى عنصر معادٍ للإسلام.

الفرق بين استماع المؤمنين وغيرهم إلى الرسول ﷺ

النقطة الأخرى التي تتعلّق بهذه الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ﴾[1]، هي أنّهم يأتون بذريعة طلب العلم، فيحضرون مجلس رسول الله ﷺ لتلاوة القرآن، وللتزكية، وتعلّم الكتاب، وتعلّم الحكمة، فحالهم كحال باقي المؤمنين، لكن بمجرّد أن يُختم المجلس ويخرجون من عند رسول الله ﷺ ﴿حَتّٰٓى اِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾[2]، من مجلس رسول الله، سرعان ما يقولون للجماعة المؤمنين الصادقين الذين اكتسبوا العلم من رسول الله: ﴿قالُوا لِلَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ ماذا قالَ ءانِفًا﴾[3]. آنفًا؛ أي وقتًا قريبًا من زمن التكلّم، فإنّهم يحضرون عند رسول الله مثلًا في المسجد، ويصغون إليه جيدًا كأنّهم

---

١. محمد: ١٦

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

مؤمنون حقًا؛ حتى يجلبوا الانتباه إليهم، ولكن بمجرّد أن يخرجوا يقولون: ماذا يقول؟ وما هو كلامه؟

قيل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ بن سلول، ورفاعة بن التابوت، والحارث بن عامر، وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم.

لكن برأينا توجد أدلة على أنّ هؤلاء الذين ذكرت أسماؤهم صاروا مؤمنين، مثل مالك بن الدخشم، الذي صار مؤمنًا وحَسُن إسلامه، والآخرون كذلك باستثناء عبد الله بن أبي بن سلول، فقد كان من رؤوس المنافقين. والآية المباركة تشمل جماعة آخرين أيضًا وليست منحصرة بهؤلاء فقط. والمهمُّ أنّهم عندما يستمعون إلى رسول الله ويخرجون، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[1]. والذين أوتوا العلم، هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين تعلّموا العلم منه، هؤلاء هم الطلاب المميزون الذين يصغون إليه جيّدًا. أما المنافقون، فيقولون لهم: ما هو معنى هذا الكلام؟ ماذا قال آنفًا؟ هذا الكلام نتيجة الكبر واتّباع الهوى، ونتيجته ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2]؛ لأنّهم لا يفقهون شيئًا ولا يفهمون حديثًا، كما يقول تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[3] أو ما هو هدفهم من هذا الكلام؟ يريدون أن يوجّهوا إهانة لرسول الله؛ لأن قلوبهم مريضة، أو للتحقير، أو للاستهزاء، لكن الأقوى أنّ كل هذه الأمور ربما تكون صحيحة. إذًا؛ ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[4]، ماذا يقول الله عنهم؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[5]، هؤلاء طُبع على قلوبهم، والطبع بعد مرتبة الختم يعني أنّ قلوبهم مسدودة، قلوبهم مملوءة حقدًا وكراهية وكبرًا

١. نفس المصدر
٢. نفس المصدر
٣. النساء: ٧٨
٤. محمد: ١٦
٥. النحل: ١٠٨

وجهلًا وتعصبًا وأنانية، فقلوبهم كانت لا تستوعب العلم، وذلك لوجود الموانع التي تحول بينهم وبين العلم.

سبب الطبع على القلب

سؤال: ما هو سبب الطبع على القلب ومرض القلب؟ القرآن في هذه الآية يقول: ﴿وَاتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[1]؛ أي أنّ تبعية الأهواء هي سبب الطبع على القلب، ففي البداية يبدأ من التزيين، تزيين القلب، ثمّ يتشكل رين على القلب، وهو صدأ؛ كما أنّ الحديد يصدأ، وبعد الرين يكون وقْر على القلب، والوقر مانع، فلا يسمعون بعد الوقر، يقول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[2]؛ يعني أنّ قلوبهم مسدودة إلى أن يصلوا إلى درجة الطبع على القلوب نتيجة اتّباع الأهواء.

يعني أنّ مرض القلب يؤدّي بهم إلى هذه الأمور بالتدريج حتى يأخذ بهم إلى الهاوية، فما معنى الهاوية؟ الهاوية تعني الارتداد؛ لذلك تخاطبهم الآيات بعد ذلك وتقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾[3].

يعني يبدأ من التسويل، من الإملاء، إلى أن يصل إلى مرتبة الطبع على قلوب هؤلاء، وهذه هي الطبقة الأولى، والمراد منها واضح.

أما الطبقة الثانية، فهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[4]، هم الذين يستمعون إلى رسول الله ﴿اهْتَدَوْا﴾؛ أي تعلّموا واستمعوا لرسول الله

١. محمد: ١٤

٢. الإسراء: ٤٦

٣. محمد: ٢٥-٢٢

٤. محمد: ١٧

بآذانٍ صاغية وبحالة تسليم وإذعان وقبول للحق؛ لذلك، فإنّ هؤلاء اهتدوا؛ أي صارت عندهم معرفة ونظرة كونية وتوحيدية شاملة ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، بمعنى ازداد علمهم، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، ليس العلم فقط؛ بل العمل أيضًا، يعني أنّ الله أعطاهم تقوى، أعطاهم حكمة نظرية وحكمة عملية، وهذه الطبقة الثانية هي التي تكون مقابل تلك الطبقة.

سؤال: كيف يمكن لعدة من الناس يحضرون مجلسًا معًا، فنجد أنّ بعضهم يتعلمون والبعض الآخر لا يتعلمون؟

الجواب: هؤلاء الذين لا يتعلّمون لابدّ أن يرفعوا موانع المعرفة، وموانع المعرفة تعني أنّ قلب ذلك المستمع ليس مستعدًا لقبول الحق، وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فالتقوى هنا تعني الاستعداد لقبول الحقّ والاستعداد للمعرفة.

وفي كتاب الكافي، عن عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ! مَا اَلْعِلْمُ؟** - أريد أن أتعلّم، فماذا أفعل حتى أتعلّم؟ - **قال** - رسول الله: الأول - **الإنصات** - السكوت - **قال: ثم مه؟ قال: الاستماع** - بعد الإنصات تستمع جيدًا، ولا تشغل ذهنك وتفكر بأمور أخرى - **قال: ثمّ مه؟** - بعد الاستماع - **قال: الحفظ** - الحفظ بالقلب وليس الحفظ بالذهن؛ أي استيعاب الكلام - **قال: ثمّ مه؟ قال: العمل به** - بعد الحفظ لابدَّ أن تعمل بالذي سمعته - **قال: ثمّ مه يا رسول الله؟ قال: نشره**»[2]. لا تكتفِ بأن تعلّمت؛ بل تُعلّم الآخرين وتنشر الحق، ونشر الحقّ في هذا الزمان هو جهاد التبيين، كما أطلق عليه السيد الولي الإمام القائد حفظه الله في خطاباته.

---

١. البقرة: ٢

٢. الكافي، ج١، ص٤٨، باب النوادر من كتاب فضل العلم، ح٤.

المقصود بالهداية

المهمُّ أنّ المراد بالهداية هنا في الآية بقرينة المقابلة - لماذا قال: آنفًا؟ - اتّباع الحق نتيجة التسليم والخضوع له، فيفتح الله عليهم وينوّرهم أكثر ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1]. المقصود بالتقوى هنا التسليم المطلق للحقّ، بخلاف المنافقين الذين يتّبعون أهواءهم، فمن ناحية نظرية، فإنّ جماعة الإيمان يكون لديهم علم وعمل، فالإنسان لابدّ أن يتعلّم دائمًا، فالله تبارك وتعالى يخاطب الرسول الأقدس ﷺ مع أنّه الرسول الأول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]. يقول الإمام الصادق في حديث آخر: «**إِنَّ لَكَ قَلْبًا وَمَسَامِعَ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ عَبْدًا فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ** - يجعله يتوجّه جيدًا - **وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ**»[3]؛ أي ختم الله على قلوبهم، فلا يصلحون أبدًا، وهو قد ذُكر في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[4].

ثمّ كيف يسمع هؤلاء المؤمنون الذين اهتدوا وزادهم رسول الله هدى؟ إنّهم يسمعون ويبكون من شدّة التأثّر، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[5]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[6]. هذا هو حال أهل الإيمان، بيدَ أنّ الآيات الشريفة توجّه تهديدًا وتحذيرًا لهؤلاء المنافقين بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ

---

١. محمد: ١٧

٢. طه: ١١٤

٣. بحار الأنوار، ج٥، ص٢٠٤

٤. محمد: ٢٤

٥. الأنفال: ٢

٦. المائدة: ٨٣

تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[1]، إنّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يطلقون عليها في اللغة العربية الفاء الفصيحة، وهي الفاء التي توضّح الكلام، فما معنى أنّها الفاء التي توضّح الكلام؟ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أي أنّها تفيد التعليل لمؤاخذتهم. والأشراط: جمع الشرط - بفتحتين - تعني شروط وعلامات القيامة، فأشراط الساعة بمعنى علامات القيامة؛ حيث يذكر القرآن الكريم هنا تهديدًا لهؤلاء المنافقين وللكفار: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾؛ يعني: فهل ينتظرون إلا يوم القيامة يأتيهم دفعةً وفجأةً؟ يتفاجؤون بأن حلّت القيامة.

معنى أشراط الساعة ومصاديقها

سؤال: ماذا يعني ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وصارت القيامة؟ يُتصوّر القرب للقيامة هنا على وجوه:

الوجه الأول: القرب بالنّسبة إلى طول مدّة هذا العالم من زمن خلق آدم إلى يومنا هذا؛ أي إذا قسنا زماننا وزمان النبيّ الأكرم منذُ زمان خلق آدم، فالزمان أقرب إلى يوم القيامة.

الوجه الثاني: القرب بالقياس لموت كلّ أحد، فكلُّ واحد منّا معرّض للموت «**من ماتَ فَقد قامَت قِيامَتُهُ**»[2]. فهذا المنافق وهذا الكافر لابدَّ أن ينتبه إلى أنه يمكن أن يموت في أيّ لحظة وتقوم قيامته، فإمّا أن ينتقل إلى روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران؛ لأنّ الموت قريب، وهذا الكافر والمنافق يطّلع على كلّ شيء، فهناك ينتبه، ولكنّ ذلك الانتباه لا يفيده بعد ذلك ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3]، فلا ينفعه شيء هناك، فيقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ

---

١. محمد: ١٨

٢. بحار الأنوار، ج٥٨، ص٧

٣. ق: ٢٢

لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[1].

أشراط الساعة تعني الحوادث التي أخبر النبيّ بوقوعها من جملة علامات يوم القيامة المذكورة، فواحدة منها: بعثة النبيّ ﷺ وختم النبوّة، فقد قال: «**بُعِثْتُ أنا والساعةَ كَهاتَيْن**»[2]، وجمعَ بين السَّبَّابةَ والوُسطى؛ أي هي قريبة جدًا. ومن جملة أشراط الساعة نزول القرآن، ومن ذلك أيضًا انشقاق القمر، ومن جملة ذلك المعاصي التي تحدث؛ مثل أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويُفشى الزنا، حتى قال البعض: الفتن والحوادث المهمّة، مثل ظهور المهدي المنتظر صاحب الأمر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف. نعم؛ صحيح أنّ كلّ هذه الأمور أشراط الساعة، لكنّ أشراط الساعة في الآية الشريفة بعض علامات القيامة، وليس كلّ علامات القيامة، العلامات القريبة مثل الموت ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[3]. قلب الإنسان مشغول في لهوه يسمع كلام النبيّ، كلّ نبيّ جديد يأتي يسمعون كلامه، لكن بمجرّد أن يخرجوا من عند النبيّ يتبدّل حالهم.

يقول النبيّ الأكرم ﷺ في رواية، وهي موجودة في كتاب جامع السعادات للنراقي وفي كُتب ورسائل السير والسلوك؛ مثل رسالة بحر العلوم: «**لولا الشياطين يحومون حول قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع**»، وفي رواية أخرى: «**لَوْلا تَمَريجٌ في قُلوبِكُمْ وتَكثيرٌ في كَلامِكُمْ، لَرَأَيْتُمْ ما أَرَى ولَسَمِعْتُمْ ما أَسمع**». والتكثير في كلامكم يعني أنّكم مشغولون باللهو واللعب والكلام الزائد الذي لا طائل من ورائه، وتهدرون وقتًا بلا مبرر. والتمريج في القلوب أنّ القلب يتحوّل إلى معلف للحيوانات - نستجير بالله! - نتيجة الحرص، والطمع، والحسد، وما شاكل هذه الأمور.

---

١. الفجر: ٢٦-٢٤

٢. جامع أحاديث الشيعة، ج٢٣، ص٧٤٠

٣. الأنبياء: ٣-١

يأتي شخصٌ من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام يقول لمولانا: إذا أجلس بمجلسكم قلبي ينفتح وأُحلِّق بالسماء، وإذا أخرج من المجلس، نشمُّ رائحة الدنيا فنتغير، فقال له الإمام الباقر عليه السلام: «والله لو أنكم تدومون على الحال التي تكونون عليها وأنتم عندي في الحال التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء»[1]. فماذا على الإنسان أن يفهم من ذلك؟عليه أن يفهم أنه لابدَّ أن تكون عند الإنسان استقامة في خط الإيمان وخط التقوى؛ لا أن يكون ملتزمًا في يوم وغير ملتزم في يوم آخر. شهر رمضان فرصة، فينبغي أن نغتنم هذ ه الفرصة، الشهر نفحة إلهية «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا**».

إذًا؛ يقول الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ اِلَّا السّٰاعَةَ اَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾[2]؛ أي دفعةً وفجأة ، ﴿فَقَدْ جٰاۤءَ اَشْرٰاطُهٰا﴾[3]، وأشراطها: علامات القيامة، وقد تبين بعضها، ﴿فَاَنّٰى لَهُمْ اِذٰا جٰاۤءَتْهُمْ ذِكْرٰىهُمْ﴾[4]، أنّى: يعني كيف حالهم؟ كيف حالهم إذا باغتهم الموت ولا يمكنهم أن يرجعوا، فإنّهم يقولون: ﴿قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيۤ اَعْمَلُ صٰالِحًا فِيمٰا تَرَكْتُ﴾[5]، وليست هناك من فائدة، فقد جاء أشراطها. وأنّى اسم حالة يدلّ على الحالة، يعني كيف حالهم؟ استفهام إنكاري؛ أي كيف تحصل لهم الذكرى؟ فإنّهم لا يتذكّرون ذلك الوقت. نستجير بالله من ذلك! ونسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على أنفسنا ويوفّقنا للتقوى وللهداية ولرعاية الحجّة المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

١. محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص١١٧٣

٢. محمد: ١٨

٣. نفس المصدر

٤. نفس المصدر

٥. المؤمنون: ١٠٠-٩٩

المحاضرة السابعة

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٢٣-١٩

أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام

هذه الآيات الشريفة تبدأ بالتفريع على ما مضى من التقابل بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، جبهة الإيمان وجبهة الكفر، والنتائج المتوخّاة من هذا التقابل، وتخاطب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهُ لاٰ اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ﴾؛ أي فليكن عندك ثبات واستقامة على منهج التوحيد منهج لا إله إلّا الله، وليكن طريقك طريق التوحيد علمًا وعملًا.

طبعًا؛ الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو بالأساس نشر كلمة التوحيد، فللأنبياء أهداف ابتدائية، وأهداف متوسطة، وأهداف أساسية:

الأهـداف الابتدائية: هي تحقيق الأمن والنظام والاستقرار ودفع الأذى والمكروه عن الناس.

الأهداف المتوسطة: تحقيق العدل «أُمرت لأعدل بينكم». وتلك الأهداف الأولية أيضًا إشارة للآيات الشريفة: ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْاِحْسٰانِ وَاِيتٰآءِ ذِى الْقُرْبٰى وَيَنْهٰى عَنِ الْفَحْشٰآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

الهدف الأساس: هو نشر كلمة التوحيد ﴿وَدٰاعِيًا اِلَى اللّٰهِ بِاِذْنِهٖ وَسِرٰاجًا مُنِيرًا﴾[2]

---

١. النحل: ٩٠

٢. الأحزاب: ٤٦

إلى آخر الآية. هنا التركيز أيضًا على مبدأ التوحيد، ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهُ لاٰ اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فعملية الاستغفار هذه ينبغي أن تلتزم بها لنفسك ولذنبك، وأيضًا دعاءً للمؤمنين ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناٰتِ﴾. طبعًا؛ جاء في الرواية: «**أنّ خير العلم التوحيد**»، ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهُ لاٰ اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ﴾. وخير العمل الاستغفار.

معنى استغفار الأنبياء والأئمة عليهم السلام

الاستغفار للأنبياء ولنبيّ الإسلام خاتم الأنبياء محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله، وكذلك لأهل البيت عليهم السلام، ليس بمعنى أنّهم نستجير بالله يرتكبون المعاصي والذنوب المحرمات ويتركون الواجبات وأمثال هذه الأمور، ثمّ يستغفرون الله لارتكابهم تلك الأمور؛ بل إنّ هذا الاستغفار هو غاية، وحفظ، وصيانة، ومن مراتب تزكية النفس، ومن مراتب جهاد النفس مثل ما قلنا في الروايـة: «**خير العمل الاستغفار**»، وهذا الاستغفار ليس فيه استثناء، فهو يشمل الجميع حتى الأنبياء والملائكة أيضًا.

والشيخ البهائي (رضوان الله تعالى عليه) لديه رسالة اسمها الأربعينية، يقول فيها: استغفار النبيّ دفع، وليس برفع. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندنا رفع ودفع؛ فالرفع هو أنه إذا كان هناك منكر، فتأمر بالمعروف وتنهى عن هذا المنكر الواقع، والدفع هو الوقاية قبل أن يقع المنكر، كأن تحاول أن تمهّد الأرضيات حتى لا يقع هذا المنكر. يقول: استغفار الأنبياء دفع، وليس برفع، يعني من أجل الوقاية.

والآن؛ نحاول أن نستفسر أكثر عن هذا المعنى؛ استغفار الأنبياء واستغفار نبيّ الإسلام بأيّ معنى؟ والذنب بأيّ معنى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[1]؟ طبعًا؛ كلمة الذنب والسيئة والمعصية والإثم والخطيئة والفسق والفجور في القرآن الكريم

١. محمد: ١٩

بمعنى متقارب، لكن ما معنى أنّ النبيّ ﷺ أو الأنبياء يرتكبون ذنبًا؟ فهناك معنى ثانٍ للذنب؛ بمعنى اتّبع مثل الذنب، ذنب الحيوان يعني اتّبع له الذنب.

مراتب الذنب

وللذنب عدّة مراتب؛ وهي:

الأولى: مخالفة الشرع والفقه والقانون؛ وهذه المرتبة حاشا لقدسيّة الأنبياء والنبيّ الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام أن يقعوا فيها وأن يرتكبوا معصية بهذا المعنى، فهم مأمورون بتطبيق الشريعة على المجتمع وشرحها لهم، ويعرفون أنّ الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية، وهم أساس البشر.

الثانية: مخالفة الأخلاق؛ فمخالفة الأخلاق وارتكاب الرذائل وعدم التحلّي بالفضائل ليست مخالفة قانونية؛ بل هي مخالفة أخلاقية، فهل الأنبياء عليهم السلام والنبيّ الأكرم ﷺ يرتكبون مخالفة أخلاقية؟ حاشا وكلا. لماذا؟ لأنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

الثالثة: مخالفة الآداب؛ بمعنى ارتكاب ما لا يتناسب مع شأن الرسول وشأن القيادة الصالحة، وهو ما يصطلح عليه في هذا الزمان: خلاف المروة، وهذا أيضًا بعيد عن قدسية الأنبياء عليهم السلام والنبيّ الأكرم ﷺ. لماذا؟ لأنّه ﷺ يقول: «**أَدَّبَنِي رَبِّي فأحسَنَ تأدِيبي**»[2]، قمّة وغاية في الأدب.

الرابعة: ارتكاب ما هو مخالف للحبّ المطلق والبغض المطلق، فأدنى غفلة قلبية عن المحبوب تُعتبر ذنبًا عظيمًا، وهذا، في عالم العشق، كثيرًا ما يحدث بين العاشق والمعشوق، فذلك العاشق المتيّم بحبّ المعشوق يترك الأكل والشرب والراحة والنوم وذهنه وقلبه وروحه مستغرق بحبّ المعشوق، يتغزّل ويكتب

---

١. القلم: ٤

٢. بحار الأنوار، ج١٦، ص٢١٠

ويذهب إلى البيت يسأل عن أحواله، حتى إنّ الناس حينما يرون أنّه لا يأكل ولا يشرب ويعتريه الحزن يقولون له: هل أنت عاشق؟ العاشق هذه طبيعته، فطبيعته أن يترك كلّ شيء، والغفلة ولو لحظة عن المعشوق في عالم العشق تعتبر ذنبًا كبيرًا في عالم العشق وعالم الحبّ؛ فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام مستغرقون في محبّة الله، ولكن مع ذلك هناك ضرورة في الحياة اليومية من أكل وشرب ونوم واستراحة ومراجعات وتكلّم مع الناس، وخوض في قضايا مختلفة، وعمل في زراعة وأمثال ذلك، فإنّهم حسب الظاهر مشغولون بهذه الأمور، لكنّ عقولهم وقلوبهم وعواطفهم وأرواحهم مع الله تبارك وتعالى. وهذا في اللغة الفلسفية يقال له: «عالَمُ الوحدة مع الكثرة»، فهو متّحد مع الله لكنّه يعيش في عالم التكثّر وهو عالم التزاحم؛ أي وحدة مع الكثرة، وكثرة مع الوحدة، لكن مع ذلك في هذا العالم قد يشتغل بضروريات الحياة، وهذا الاشتغال عند أولياء الله وعند الإنسان الكامل المستغرق في حبّ الله تبارك وتعالى قد يُعتبر جريمة ومعصية وذنبًا عظيمًا بالنسبة إليه، والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّه ليغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرةً**»[1]، وفي بعض الروايات: «**مائة مرّة**». يغان: يعني يكون هناك غن على قلبي؛ أي صداع، فمن أين هذا الصداع؟ يفسّره الإمام الراحل قدس سره، فيقول: من كثرة الارتباط مع الناس؛ حيث يتحدّثون حول قضايا دنيوية كثيرة، فهو في تلك الحالة بدلًا من أن يكون مستغرقًا مثلًا في حبّ الله فإنه يصغي بشكل كامل إلى المراجعين حتى يجيبهم، وهذه الحالة يعتبرونها بالنسبة للنبيّ صلى الله عليه وآله استغفارًا من ذنب؛ لأنّه يكون بعيدًا عن حالة الاستغراق في العشق والحب الإلهيّ.

وهناك آيات كثيرة تتحدّث عن هذا المعنى؛ مثلًا قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١١، ص١٨٤

٢. الغافر: ٥٥

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

استغفار النبيّ ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام في القرآن

وأمّا استغفار الأنبياء في القرآن، فكثير، كما في قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾[2]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[3]، وقول موسى عليه السلام لنفسه وأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[4]، وكذلك ما حُكي عن النبيّ الأكرم ﷺ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[5].

وهكذا بحث الاعتراف بالظلم؛ مثل قول ذي النون: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[6]، فالأنبياء يعدّون الأعمال المباحة ظلمًا لأنفسهم؛ مثل قول آدم عليه السلام وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[7]، بينما في عالم الشرع لا تعتبر خطيئة آدم معصيةً شرعية؛ بل هي معصية بمعنى آخر، أو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[8]. طبعًا؛ سورة الفتح لا يختلف الأمر فيها، فلا علاقة بين الفتح وبين غفران الذنب ما تقدّم منه وما تأخّر، وهذا مهم، فالذنب على حدّ

---

١. النصر: ٣
٢. نوح: ٢٨
٣. إبراهيم: ٤١
٤. الأعراف: ١٥١
٥. البقرة: ٢٨٥
٦. الأنبياء: ٨٧
٧. الأعراف: ٢٣
٨. الفتح: ٣-١

زعم مشركي قريش أنه عندما يدخل لفتح مكة، يقولون: هذا النبيّ قتل آباءنا وأبناءنا وبني عمومتنا، وقد ارتكب ذنبًا، ونحن نطلبه، وينبغي أن ننتقم ونقتصّ منه. هذا يعتبر ذنبًا بالنسبة إليهم، لكن بعد هذا الفتح الإلهيّ الكبير للنبيّ ﷺ من خلال فتح مكة، فإنّ الله تبارك وتعالى يمحو هذا الذنب الذي في أذهانهم ويتمّم نعمته على النبيّ. ونظيره حصل مع موسى عليه السلام؛ حيث يقول: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾[1]، فإنّهم يطلُبُونه؛ لأنه قتل رجلًا منهم، والله تبارك وتعالى يمحو هذه الحالة لهم. وعلى كل حال؛ بحثنا حول: ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهُ لاٰ اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناٰتِ﴾[2].

طبعًا؛ أنبياء الله مُخلِصون ومُخلَصون، يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبٰادَنَا اِبْرٰاهِيمَ وَاِسْحٰاقَ وَيَعْقُوبَ اُولِي الْاَيْدِي وَالْاَبْصٰارِ ۝ اِنَّاۤ اَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى الدّٰارِ﴾[3]، مستغرقون في ذكر الآخرة، وهذا دليل إخلاصهم، أو كما في سورة يوسف: ﴿اِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[4]، أو سورة مريم: ﴿مُوسىٰۤ اِنَّهُ كٰانَ مُخْلَصًا﴾[5]، أو كما حكى الله تعالى عن إبراهيم. ما هي خطيئة إبراهيم الخليل؟ إنّ هذه الخطيئة قد تحدّثت عنها الآية: ﴿وَالَّذِيۤ اَطْمَعُ اَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيۤئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[6].

الجواب الصحيح هو الموجود في مناجاة الذاكرين للإمام السجاد عليه السلام؛ حيث قال: «أستَغفِرُكَ مِن كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيرِ ذِكرِكَ، ومِن كُلِّ راحَةٍ بِغَيرِ أُنسِكَ، ومِن كُلِّ سُرورٍ بِغَيرِ قُربِكَ، ومِن كُلِّ شُغلٍ بِغَيرِ طاعَتِكَ». هذا هو معنى ﴿اسْتَغْفِرْ

---

١. الشعراء: ١٤
٢. محمد: ١٩
٣. ص: ٤٥-٤٦
٤. يوسف: ٢٤
٥. مريم: ٥١
٦. الشعراء: ٨٢

لِذَنۢبِكَ﴾[1]؛ حيث يتعلّق الأمر بالاستغراق في الحبّ الإلهيّ، وأدنى غفلة واهتمام بالمباحات يُعتبر، في عالم المخلِصين والمخلَصين؛ الأنبياء الكرام وأولياء الله وخلفاء الله، ذنبًا وخطيئةً كبيرةً.

بحث فلسفي في استغفار الأنبياء عليهم السلام

وإذا أردنا أن نبحث هذا البحث بلغة فلسفية، بلغة الحكمة المتعالية، فإنّ الملا صدرا يقول: الإنسان في أسفاره المعنوية والسير والسلوك المعنوي، يطوي أسفارًا أربعة:

الأول: سفر من الخلق إلى الحق؛ يعني هجر هؤلاء الناس هجرة فكرية وقلبية؛ ليترك العادات والتقاليد، ويستغرق في تزكية نفسه.

الثاني: سفر في الحقّ بالحقّ؛ هو مع الحقّ وبعيد عن الناس، ويستغرق دائمًا مع الحقّ، فيصنع نفسه بشكل كامل.

الثالث: سفر من الحق إلى الخلق؛ يسافر من الحق جلّ وعلا لأجل هداية الخلق، فبعدما يكون كاملًا وتكمل طاقاته المعنوية، يرجع إلى الناس حتى يهديهم.ـاطالب العلم، إذا أراد أن يصل إلى المراتب العليا، فعليه أن يهذّب نفسه، وبعد مراتب التهذيب يشتغل بالناس، فهو سفر من الحقّ إلى الخلق.

الرابع: سفر في الخلق بالحقّ؛ هو مع الناس يأكل ويشرب ويحضر في السوق ويتحدّث ويحاضر ويتلو لهم القرآن ويعلّمهم الحكمة، وهو مشتغل ومهتم بشؤون الناس، لكنّه مع هذا الاهتمام بالناس وللناس، ذهنه وعقله وفكره وقلبه في عالم آخر.

رحم الله الشهيد الحاج قاسم سليماني؛ حيث انتشرت له صورة مع أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله حفظه الله وهي آخر زيارة، وبعد هذه الزيارة أتى إلى

---

١. محمد: ١٩.

سوريا والعراق وكان استشهاده، فهناك كلمة مكتوبة تحت هذه الصورة، وهي أنّ السيد حسن نصر الله يقول عن الشهيد حاج قاسم: كانت حساباته في عالم آخر، ويعمل لغير الدنيا، ويعيش في عالم آخر. فالمؤمن يصل إلى هذه الحالات.

والأنبياء في سفرهم الثالث والرابع مستغرقون في حبّ الله تبارك وتعالى حتى في حال آكلهم وشربهم ونومهم وراحتهم ومراجعة الناس لهم وأجوبتهم على المسائل الشرعية وإلقاء المحاضرات والخطب، لكن مع ذلك وهم في هذه الحالة من الاستغراق في الحبّ الإلهيّ قد تكون حالة انشغال بالمباح، فيستغفرون الله من هذه المباحات التي يسمّونها في لغة علمائنا «تارك الأولى». ما هو ترك الأولى؟

يقول أستاذنا العلامة الشيخ المصباح اليزدي رحمه الله في كلمة عجيبة جدًا له: أنا أخشى أن نحاسب يوم القيامة على أداء الواجبات، فنقول لله تعالى: يا ربّ! هذه واجبات، وأنت قلت إنّها واجبة، وأنا عملت بها، فلماذا أحاسب عليها؟! فيقال لنا: كان هناك واجب أوجب منه. ففي عالم التزاحم بين الأهم والمهمّ، ينبغي أن تشتغل أنت بالأهم، وليس بالمهمّ، فمثل هذه القضايا تحدث أيضًا.

هذه خلاصة ما يخطر بالبال حول: ﴿فَاعْلَمْ اَنَّهٗ لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنٰتِ﴾[1].

الاستغفار للمؤمنين

واحدة من مهامّ الأنبياء عليهم السلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله الاستغفار للمؤمنين والشفاعة لهم «**ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**»[2]. يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ اَنَّهُمْ اِذْ ظَّلَمُوْۤا اَنْفُسَهُمْ جَآءُوْكَ﴾[3]، لو يلجأ الإنسان الذي يظلم نفسه

١. محمد: ١٩

٢. بحار الأنوار، ج٨، ص٣٠

٣. النساء: ٦٤

ويرتكب المعاصي لمحضر الرسول الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾[1] أولًا يطلبون مغفرة من الله، ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[2] والرسول يطلب لهم المغفرة، ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[3].

وهذا بخلاف الاعتقاد المسيحي، فالمسيحيون في زماننا الحاضر يقولون: المسيح قُتل وصلب بعنوان صك غفران للأمة؛ أي أنّ للأمة أن تفعل ما تريد، والله ينجّيهم لأجل صلب المسيح. نحن نقول: الأمر ليس كذلك، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾؛ أي أنّ الإنسان هو بنفسه لابدَّ أن يستغفر الله ويتوب، والرسول يدعو له أيضًا حتى تقبل توبته، ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

والأمر المهم ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[4].

المتقلب: العمل المتفاوت؛ سواء أ كان ظاهرًا كالصلاة، أم باطنًا كالإيمان والنُصح، أم هو موجود داخل القلب.

والمثوَى: المرجع والمآل؛ يعني أنّ الله تبارك وتعالى يعلم أحوالكم جميعًا ويعلم مصيركم ويعلم بكلّ حركة وسكنة، وأعدّ لحركاتكم وسكناتكم ثوابًا وجزاءً، وهذا يساعد على كلمة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾؛ لأنّ الآية تقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

الفرق بين المؤمن والمنافق

ثمّ إنّ الآيات الشريفة تتحدّث عن طبيعة المنافقين - كما قلنا في المحاضرة

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

٤. محمد: ١٩

السابقة -، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾[1]، كان أهل الإيمان يتمنّون أن ينزل أمر بالجهاد؛ إذ كانوا ممنوعين من الجهاد بمعنى القتال، وطبعًا؛ عندما نزل القتال أبلوا بلاءً حسنًا، لكنّ المنافقين كانوا - حسب الظاهر أيضًا - يقولون: لماذا لا يأمرنا الله بالقتال والجهاد؟ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾[2]، محكم: مقابل متشابه؛ أي سورة واضحة في الأمر بالقتال وغير قابلة للتأويل، موجود فيها أيضًا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[3]، و﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[4]. طبعًا؛ هذه الآيات الشريفة تتحدّث عن الفرق بين المؤمنين والمنافقين، ففي أمر الجهاد، المؤمن، إذا أُسندت إليه مهمّة جهادية، فهو مستعد أن يقوم بالواجب ويتصدّى وينتظر ذلك، أمّا المنافق، فيخاف من الموت، وهذا قَدَرُهم وحظّهم، وليس عندهم توفيق للجهاد، والله تبارك وتعالى يهدّدهم بقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، هذا أولى لهم، والآيات الشريفة الأخرى توضّح هذا الخوف: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[5]، أو ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾[6]، وفي غزوة بدر، كان هناك قسم من هؤلاء الـ ٣١٣ يكرهون القتال ويريدون الغنيمة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾[7]، يجادلون رسول الله ﷺ مع أنّ رسول الله قال لهم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ

---

١. محمد: ٢٠
٢. نفس المصدر
٣. محمد: ٤
٤. محمد: ٢٠-٢١
٥. الأحزاب: ١٩
٦. الأنفال: ٥
٧. الأنفال: ٥-٦

الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهٖ وَيَقْطَعَ دٰابِرَ الْكٰافِرِينَ﴾[1]. وهؤلاء كذلك الشخص الذي يريدون أن يأخذوه إلى الإعدام، فهو يساق وهو ينظر إلى الموت من الخوف ﴿كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[2]، وفي الآية الأخرى يؤنبهم الله تعالى: ﴿تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[3]، إنّهم لا يريدون أن ينتصر الإسلام بالتضحية والفداء؛ بل يريدون من الإسلام الغنيمة فقط، وهذه هي طبيعة المنافقين. ينظرون هنا إشارة إلى أنّهم واقعًا يخافون.

قوله تعالى: ﴿أَوْلىٰ لَهُم﴾، فيه احتمالان:

الأول: قدرهم وحظّهم بنحو التهديد؛ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلىٰٓ أَهْلِهِ يَتَمَطّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰٓ﴾[4]، هذا نوع تهديد؛ أي كان هذا حظك أنت ولا تستحق أكثر منه.

الثاني: تأديب للمنافقين بأنّه أولى لهم من الخوف من الموت أن يطيعوا الله ويقولوا قولًا معروفًا، وهو قوله تعالى: ﴿سَمِعْنٰا وَأَطَعْنٰا﴾، أو قوله تعالى: ﴿إِنَّمٰا كٰانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذٰا دُعُوٓا إِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهٖ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنٰا وَأَطَعْنٰا﴾[5]، فذلك أولى لهم وأنفع، ومثل قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ﴾[6]، وهو يرتبط بقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللّٰهَ لَكٰانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[7].

كلا الاحتمالين وارد في السورة، وأولى لهم أن يكونوا كذلك ويختاروا الجهاد

---

١. الأنفال: ٧
٢. الأنفال: ٦
٣. الأنفال: ٧
٤. القيامة: ٣٣-٣٥
٥. النور: ٥١
٦. النور: ٣٠
٧. محمد: ٢١

والجدية في الجهاد. طبعًا؛ كان من بين هؤلاء المنافقين الذين أشارت إليهم هذه السورة، عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان رأس المنافقين في أُحد؛ حيث ألقى كلمة في أثناء المعركة، قال فيها: «لا نعلم علامَ نُقتل ونقتل أنفسنا ها هُنا! أيّها الناس هذا القتال لا ينفع»، ومن شدّة خوفه رجع هو وأتباعه مخذولين وكانوا ثلث الجيش، وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة. طبعًا؛ الآية الشريفة تقول: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1]، وقد أوضحنا في الجلسات السابقة المقصود بالذين في قلوبهم مرض، وقلنا: النفاق على أربعة أقسام: نفاق عقائدي، ونفاق أخلاقي، ونفاق سياسي، ونفاق اجتماعي، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هنا نفاق أخلاقي، لكنّ هذا يؤدي إلى السياسي والاعتقادي والاجتماعي أيضًا، والأساس في ذلك هو اتّباع الهوى.

الفرق بين التقية والنفاق والمداراة

سُئلتُ: ما هو الفرق بين التقية والمداراة والنفاق؟

الجواب: التقيّة؛ استبطان الحقّ وحفظ النفس وحفظ المؤمنين بعدم إظهار الحق، فهي ترسم هدفها، وهو حفظ المؤمنين؛ بخلاف النفاق الذي هو استبطان الباطل وإظهار الحق، فالفرق جوهري بين التقية والنفاق؛ فالمنافق على باطل ويقول: أنا على حق، بينما في التقيّة هو على حق لكنّه لا يظهر الحق؛ وذلك لأجل حفظ المؤمنين.

أمّا المداراة، فتختلف عن النفاق؛ فالمنافق الاجتماعي صاحب مطامع ومصالح يريد ما تطمح إليه نفسه ومصالحه، نفعي انتهازي، لكنّ المداراة فيها نية التقرّب إلى الله من خلال خدمة الناس وكسب الجمهور وهداية الناس

١. محمد: ٢٠

وحمايتهم وتأليف قلوبهم ﴿لَوْ اَنْفَقْتَ مَا فِي الْاَرْضِ جَمِيعًا مَا اَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[1]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[2]، فالمداراة شعبة من الرحمة الإلهية، وتختلف جوهريًا عن النفاق الاجتماعي. جوهر المداراة وجوهر التقية هو الرحمة الإلهية وسلامة القلب، وجوهر النفاق يرجع إلى مرض القلب، وفرق كبير بين الاثنين.

تتميم في معنى ﴿اَوْلٰى لَهُمْ﴾

قال تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَاَوْلٰى لَهُمْ﴾[3]، ما هو معنى الأولى؟ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْاَمْرُ﴾[4]؛ أي عندما صار الأمر جديًّا وقامت المعركة، كان عليك أن تحضر في الخطّ الأول، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[5]؛ أي كان الأولى لهم أن يأخذوا بكلام الله، العزم: يعني القطع على تحقيق الأمر وأنّه لا محيص عنه، فالمعركة جديّة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضٰى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[6]، هذا الصدق هو ﴿اَوْلٰى لَهُمْ﴾.

في معاني التولّي

يقول الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ اِنْ تَوَلَّيْتُمْ اَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَتُقَطِّعُوا اَرْحَامَكُمْ﴾[7]. (هل) في اللغة العربية تدلّ على التحقيق، فهي استفهام بمنزلة قد، فالمعنى هل سيتحقّق ﴿اِنْ تَوَلَّيْتُمْ اَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَتُقَطِّعُوا اَرْحَامَكُمْ﴾،

---

١. الأنفال: ٦٣
٢. آل عمران: ١٥٩
٣. محمد: ٢٠
٤. محمد: ٢١
٥. نفس المصدر
٦. الأحزاب: ٢٣
٧. محمد: ٢٢

وأنتم تزعمون أنّكم تولّيتم ابتغاء حفظ أنفسكم وحفظ ذوي القرابة من أنسابكم؟!

المعنى الأول للتولية هنا هو الإعراض، بمعنى هل صحيح أنّكم أعرضتم عن الجهاد؛ لأجل حفظ أنفسكم وحفظ أرحامكم بينما هذا الإعراض يسبّب الفساد في الأرض ويسبب قطع الأرحام؟!

فالتولي هنا هو بمعنى الإعراض والرجوع عن القتال، كما قد ذكرت ذلك الآيات الشريفة في تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾[2].

وهناك معنى ثانٍ للتولية؛ وهو أنّ التولية مأخوذة من الولاية لا الإعراض؛ يعني إذا وصلتم إلى السلطة، لا يكون منكم إلّا الفساد في الأرض والظلم وسفك الدماء وقطع الأرحام، فهذه الآية مفسّرة ببني أمية في رواية أمير المؤمنين عليه السلام كما ذكرناها عن نور الثقلين؛ يعني أنتم أيّها المنافقون تأبون أن تحضروا وتقاتلوا في سبيل الله في ميدان الجبهة والقتال إذا وصل الأمر إليكم؛ لحفظ أنفسكم وحفظ جماعتكم وحفظ أرحامكم، لكن إذا وصلتم إلى الحكم، فشأنكم الإفساد في الأرض وقطع الأرحام، وهو شأن بني أمية، هم المصداق الأبرز لهذه الآية الشريفة. فما هو حكمهم؟ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾[3]، يطردهم الله من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، أصمّهم؛ لأنّهم لا يسمعون الحقائق، وأعمى أبصارهم لا يرون الواقعيات نتيجة اتّباعهم الهوى والتزيين والطبع على القلب والرَّين ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[4]. ما هي النتيجة؟ القلب يقفل؛ يعني

---

١. البقرة: ٢٤٦

٢. طه: ٦٠

٣. محمد: ٢٣

٤. المطففين: ١٤

لا يصل إلى قلبهم شيء من الهداية؛ لذلك، يؤنّبهم الله ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

وللحديث صلة، نتحدّث عنه في الليالي القادمة إن شاء الله، وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

١. محمد: ٢٤

المحاضرة الثامنة

﴿اَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ اَمْ عَلٰى قُلُوبٍ اَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ اِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلٰٓى اَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَاَمْلٰى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْاَمْرِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اِسْرَارَهُمْ﴾[1].

١. محمد: ٢٦-٢٤

الكفار والمنافقون وعدم التدبر في القرآن

إنّ هذه الآيات الشريفة تتحدّث أيضًا عن المنافقين، وعن الكُفّار كذلك؛ لأنّ مشكلة الكفار ومشكلة المنافقين هي عدم التدبّر في القرآن الكريم، ولو تدبّروا القرآن لعرفوا الحقّ ولاهتدوا كما اهتدى المؤمنون.

التدبّر - كما قال الراغب الأصفهاني في المفردات - التفكير في دُبِر الأمور. وقال صاحب كتاب مختار الصحاح: التدبير في الأمر النظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبّر التفكّر فيه. وفي المصباح المنير: الدُبُر خلاف القُبُل من كلّ شيء، ومنه يقال لآخر الأمر: دُبُر، وأصله ما أدبر عنه الإنسان وتدبّره تدبرًا؛ أي نظرتُ في دُبُره، وهو عاقبته وآخره.

هذه خلاصة معنى التدبّر في اللغة، وهو يعني النظر إلى عاقبة الأمر، لا إلى ظاهر العبارة ومعرفة الظاهر فحسب، كما قال الطبرسي في مجمع البيان: التدبّر تصرّف القلب بالنظر إلى العواقب[1]؛ أي التوجّه إلى العاقبة، والتفكّر تصرّف القلب بالنظر إلى الدلائل، والحركة من المعلوم إلى المجهول، لكنّ التدبّر استشراف المستقبل، وهذا الأمر مهم جدًا؛ يعني الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل واتّخاذ الدروس والعبر فيما يستفيد منه الإنسان، وهذا ما يُسمّى

---

١. الشيخ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٣، ص١٤١

تدبّرًا. طبعًا؛ توجد قاعدة قرآنية يذكرها العلامة الطباطبائي (رضوان الله تعالى عليه) في علوم القرآن ويستفيد منها في تفسير الميزان كثيرًا، وتلك القاعدة القرآنية تُسمّى قاعدة (الجري والتطبيق)، وهي مأخوذة من رواية «إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما يجري الشمس والقمر»[1]؛ أي يتحرّك من زمان إلى زمان، ومن وضعٍ إلى وضع. وإنّ قاعدة الجري والتطبيق هذه تعني معرفة المصاديق القرآنية، ولأنّ الإنسان لا يعرف المصاديق القرآنية بنفسه؛ لأنّها تحتاج إلى عمق، وهذا العمق يعني إرجاع المفاهيم النظرية إلى الواقع الميداني، يقوم تفسير أهل البيت عليهم السلام بذكر المصاديق القرآنية، وهو من باب الجري والتطبيق؛ فمثلًا: قال الله تعالى في الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]، ويفسّرها الإمام الباقر عليه السلام بأنّها ولاية عليٍّ، وولاية عليٍّ هذه من باب أبرز المصاديق للحياة ومن باب الجري والتطبيق، وهذا الجري والتطبيق يرتبط واقعًا بباطن القرآن؛ إذ للقرآن ظاهر وباطن، ولكلّ باطن بطن إلى سبعين بطنًا، وهذه البواطن القرآنية لها اسم آخر غير التدبّر؛ وهو التأويل، والتأويل هو عمل أهل البيت عليهم السلام؛ وغير أهل البيت لا يستطيع أحد تأويل القرآن ومعرفة حقيقته، لكنّنا مأمورون بالتدبّر، فما هو الفرق بين التدبّر والتأويل؟

الفرق بين التدبّر والتأويل

التأويل: معرفة الباطن.

التدبّر: معرفة العواقب ومعرفة الدروس من خلال الاستظهار والاستنطاق القرآنيّ، ومعرفة التفسير القرآني الصحيح.

نحن مأمورون بالتدبّر، والقرآن لا يؤنّب الكفّار والمنافقين فقط على أنّهم

١. بحار الأنوار، ج٣٥، ص٤٠٤

٢. الأنفال: ٢٤

لا يتدبّرون القرآن الكريم؛ بل يأمر المؤمنين أيضًا بأن يتدبّروا في قراءة القرآن.

روايات في الحثّ على التدبّر

وفي هذا الصدد توجد جملة من الروايات؛ نذكر منها:

الأولى: عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ما أنعم الله عزّ وجلّ على عبد بعد الإيمان بالله أفضل من العلم بكتاب الله، والمعرفة بتأويله**»[1]. وتلك المعرفة بتأويله تعني حقائق القرآن، وليست المعرفة بتأويله هنا بذلك المعنى الذي قلنا إنّه خاصٌّ بأهل البيت عليهم السلام.

الثانية: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّر**»[2]؛ أي ليست فيها فائدة، وإنّما فيها ثواب فقط، فمثل هذه القراءة لا تنطوي على اهتداء وإيمان وتقوى وعمل صالح، ولا يتحوّل القرآن الكريم من خلالها إلى دستور الحياة، فهذا ما لا يحصّله منها الإنسان من هذه القراءة.

الثالثة: عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ويلٌ لمن لاكها بين لحييه ثمّ لم يتدبّرها**»[3]؛ أي أنّه يقرأ الآية بين اللحية، وهذا يعني أنّه يقرأ الآية ويحرك فكّه وفمه أثناء القراءة، لكنّه لا يتدبّر فيها، ولا يعرف حقيقتها.

الرابعة: عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**يا مفضّل! لو تدبّر القرآن شيعتنا لما شكّوا في فضلنا**»[4]. بالتدبّر القرآني يعرف الإنسان روح القرآن الكريم، وهو القيادة والولاية الإلهيّة المتجسّدة بولاية محمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله، فهذه المعرفة تحتاج إلى التدبّر. كما قد مرّ بنا سابقًا في بداية تفسيرنا للسورة المباركة عندما

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص٢١٧

٢. الكافي، ج١، ص٣٦

٣. مجمع البحرين، ج٢٨٧ ،٥

٤. بحار الأنوار، ج٣١، ص٦٢٨

ذكرنا فضل هذه السورة وأنّ الذي يقرأها لم يشكّ ولم يتردّد في إيمان، ويكون حسن العاقبة في القبر، ويعرف حقيقة فضائل أهل البيت عليهم السلام، ويعرف حقيقةً مثالب أعداء أهل البيت، ويعرف خطّ الحقّ وخطّ الباطل، وذكرنا أيضًا أنّ هذه السورة هي سورة التولّي والتبرّي، وهذه الأمور إنّما نعرفها ونقف عليها من خلال التدبّر في عمق هذه السورة. إذًا؛ هنا أمَرَ الإمام الصادق عليه السلام بأن نتدبّر في تلاوة القرآن.

وكذلك تحدّث الإمام الصادق عليه السلام في دعاء تلاوة القرآن أو ختم القرآن فيما يتعلّق بكلمة التدبّر القرآني قائلًا: «اللَّهُمَّ إِنّي نَشَرْتُ عَهْدَكَ وَكِتابَكَ، اَللَّهُمَّ فاجْعَل نَظري فِيْهِ عِبادَةً، وَقِراءَتي تَفَكرًا، وَفِكرَتي اِعْتِبارًا، وَلا تجْعَلْ قِراءَتي قِراءَةً لا تَدَبُّرَ فيها، بَلِ اجْعَلني أَتَدَبَّرُ آياتِهِ وَأَحْكامَهُ، آخِذًا بِشَرائِعِ دينِكَ، وَلا تجْعَلْ نَظَري فِيْهِ غَفلة».

كيفية التدبّر في القرآن الكريم

سؤال: كيف نستطيع أن نتدبّر القرآن؟ ما هو المنهج؟

إنّ في التدبّر في القرآن الكريم، معرفة كيفية ربط الماضي والحاضر واستشراف المستقبل، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًا؛ أي من خلال استنطاق القرآن «ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوه»[1]. بمعنى أنه إذا أردنا أن نعرف الحوادث الواقعة وشؤون حياتنا في أبعادها المتفاوتة، فلابدّ أن نعرض تلك المسائل على القرآن الكريم ونسأله؛ لكي نحصل على النتيجة والجواب الدقيق منه. وهناك موانع من هذا التدبّر الصحيح، والمانع الكبير يكمن في (أَم)، فهي انفصالية؛ أي أتت (أم) منفصلةً في قوله تعالى: ﴿اَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ اَمْ عَلٰى قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ﴾[2]؛ أي أنّ هذا القلب إذا كان عليه قفل، مقفول ومسدود، وليس ذلك الانسداد هو الانسداد

١. الكافي، ج١، ص٦١

٢. نفس المصدر

الكبير الذي نقرأه في علم الأصول؛ بل هو الانسداد القلبي، يتحول القلب إلى حجارة أو أشدّ من ذلك، فالقلب يصل إلى درجة القساوة، وإذا صار الإنسان - نستجير بالله - قسيّ القلب وأُغلِقت عليه الأمور، يُبتلى بعدّة مشاكل:

الأولى: موت فطرته؛ أي لا تكون عنده فطرة حيّة حتى يستفيد منها، والقرآن كتاب الفطرة وكتاب الإنسانية، فلا ينظر ذلك الإنسان الذي تموت فطرته بنظرة صحيحة، وهذه مشكلة كبيرة.

الثانية: يتغلّب جنود الجهل على جنود عقله، فلا يستطيع عقله أن يستوعب بشكل صحيح. الأمور تكون مغلقة عليه من الداخل، فكيف تكون من الخارج؟! من خارج نفسه، هناك الأنبياء، والأوصياء، والأولياء، والعلماء، والواعظون، والمجالس الحسينية، وهذه كلها لا تؤثّر عليه أيضًا. فلا من الداخل يتأثر؛بسبب إغلاق القلب؛ إذ عنده قفل شقاوة، ولا من الخارج، وهو كلام الأنبياء، وكلام الأوصياء، والقرآن، وروايات أهل البيت عليهم السلام التي هي جلاء للقلوب، فـ (حديثنا جلاء للقلوب) لا ينفعه؛ إذ حديث أهل البيت ينفع الشخص الذي تصدّع قلبه قليلًا، وليس هذا الذي صار قسيّ القلب، وينظر للأمور بمقياس غير إلهيّ، فهو لا يستفيد من القرآن أيضًا؛ بل يتأذّى من تلاوة القرآن - نستجير بالله من ذلك - ويصيبه الكسل والملل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]، والقفل على القلب يعني الشقاء - نستجير بالله منه - والشقاء هو قفل القلب وانسداده وصيرورته كالحجارة. وهذا هو المانع الكبير للتدبّر في القرآن. ثمّ إنّ هذا المانع قد يكون شخصيًّا، كما لو كان زيد قسيَّ القلب، وقد يكون اجتماعيًا، وهذا المجتمع إذا تحوّل إلى مجتمع قسيٍّ من ناحية سياسية واجتماعية، فإنّه حينئذٍ لا يستطيع أن يستوعب القيادة الإلهيّة ويدركها؛ بل يتحرّك حقيقةً ضدّ تلك القيادة الإلهيّة.

---

١. نفس المصدر

الأمّة بعد رحيل النبيّ ﷺ في خطبة الزهراء عليها السلام

وهذه الخطبة الفدكيّة للسيّدة الزهراء عليها السلام تشرح لنا حقيقة الأمّة بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ، وكيف أنّهم لم يتدبّروا القرآن، فانحرفوا عن مسيرة القيادة الحقيقية. قالت عليها السلام: «**فلمّا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسكة النفاق**». الحسكة: تعني الشوكة المؤذية؛ أي ظهرت بوادر النفاق فيكم، وهذا النفاق منعكم. ماذا يفعل النفاق إذا ظهر في المجتمع؟ إذا صار المجتمع منافقًا «**وسمل جلباب الدين**»، وصار لباس الدين سملًا - والسمل يعني البائد والعتيق - لم يتوجّه إليه المجتمع ولا يعبأ به، فيقولون: لا فائدة في الدين، «**ونطق كاظِمُ الغاوين**»؛ أي النفوس المريضة المنافقة التي استسلمت ولم تُسلِم ولا أسلمت، هذه النفوس المنافقة المريضة تنتهز الفرصة للكلام، «**ونبغ خامل الأقليين**»، كان أقلية، لم يكن شيئًا يُذكر، ليس له كلام مسموع، وعندما يرى الجوَّ جوَّ نفاق، وجوًّا يتناسب مع كلامه، يظهر ويبرز آراءه الباطلة، «**وهدر فريق المبطلين**»، يظهر أهل الباطل، «**فخطر في عرصاتكم**»؛ أي فيظهر هؤلاء في مجتمعكم لوجود الأرضية المناسبة، وتكون الصولة والجولة لهم، «**وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفًا بكم**»؛ أي أنّ الشيطان يرى الفرصة موآتية؛ لأنّ التيارات الضالّة يعاضد أحدها الآخر، فالشيطان ينتهز تلك المناسبة هاتفًا بكم، «**فألفاكم لدعوته مستجيبين**»، فيجدكم ويراكم مستجيبين له، «**ولقربه متلاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافًا**»؛ أي بدلًا من أنّ يكون الله سبحانه هو الذي يدعوكم للقيام، فإنّ الشيطان يدعوكم للنهوض ضدّ الحقّ، «**فأحمشكم فألفاكم غضابًا**»، يعني أنّ الشيطان حرّككم وجعلكم غاضبين متحمّسين ضدّ الحقّ، «**فوسمتم غير إبلكم ووردتم غير شربكم**». بهذا النحو يصير المجتمع متحركًا ضدّ الحقّ نتيجة هذا النفاق ونتيجة الشقاء، نستجير بالله. في عالمنا المعاصر، توجد هناك حركة كبيرة من قبل أمريكا وإسرائيل وأتباعهم للتخويف من الإسلام ومن مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن خطّ المقاومة،

وهناك حرب ناعمة ضدّ المبادئ والقيم الإسلامية، وتعمل على إثارة الشبهات الكثيرة، وإنّ هذا يحتاج إلى تصدٍّ من أهل الحقّ في مواجهة الباطل، وإلّا فإنّه يؤثّر - نستجير بالله - على شريحة كبيرة من المجتمع، وبالتالي يأخذ مأخذه.

علامات قسوة القلب

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**من أعظم الشقاوة القساوة**»[1]. توجد عدّة علامات لقسوة القلب؛ وهي كما يلي:

الأولى: تلاوة القرآن بدون خشوع وخضوع، فقد ورد في الرواية الشريفة: «**حزّنوا أنفسكم بتلاوة القرآن**». فعلى الإنسان حينما يبدأ بتلاوة القرآن، أن يتلوه كأنّما قد نزل الآن على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وأننا نحن المخاطبون بهذا القرآن ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا﴾، فلابدّ أن نقول: لبّيك لبّيك؛ أي أن نشعر بأنّ الآية قد نزلت الآن، فنستجيب لذلك النداء. وهذه واحدة من المشاكل التي يعاني منها الإنسان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اَللّٰهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰابًا مُتَشٰابِهًا مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ اِلٰى ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰٓاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ﴾[2].

إذًا؛ العلامة الأولى أن يقرأ الإنسان القرآن بدون خشوع وتأثّر واستفادة منه، فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اِذٰا ذُكِّرُوا بِاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمًّا وَعُمْيٰانًا﴾[3]، فلابد له عندما يقرأ الآية أن يتوجّه إليها ويسمعها بقلبه وينظر إليها بعين باطنه، ويعي ما يريده الله تعالى منه في هذه الآية.

الثانية: جمود العين وقلّة دمعها من خشية الله ﴿وَاِذٰا سَمِعُوا مٰٓا اُنْزِلَ اِلَى الرَّسُولِ تَرٰٓى اَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّٰا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنٰٓا ءٰامَنّٰا فَاكْتُبْنٰا

١. غرر الحكم ودرر الكلم، ص٦٧٩

٢. الزمر: ٢٣

٣. الفرقان: ٧٣

مَعَ الشّٰاهِدِينَ﴾[1]، هؤلاء هم المؤمنون، أمّا أهل الشقاء، فهم بالعكس لا يهتمّون أساسًا.

الثالثة: عدم الاعتبار بالموت، والضحك عند القبور، فبعض الناس عندما يمشي في تشييع جنازة أو يمر من عند القبر كأنه ذاهب في نزهة دون خجل من عدم الاعتبار. وهنا من المفيد والجيد أن يقرأ الإخوة المؤمنون كتاب (منازل الآخرة) للمرحوم الشيخ عباس القمّي، فهو يتحدّث عن أحوال القيامة وطريق النجاة منها، ولا أريد أن أطيل عليكم بالنسبة لهذا الأمر، ولكن أذكر بعض الأبيات للعلامة الحلي رحمه الله في شأن الموت؛ حيث قال:

يـا راقـدًا والمنايا غيـر راقدة	وغافلًا وسـهام الليـل ترميـه
بم اغتـرارك والأيـام مرصدة	والدهـر قـد ملأ الأسماع داعيه؟
أما أرتـك الليالي قبح دخلتها	وغدرهـا بالـذي كانـت تصافيه
رفقًا بنفسـك يا مغرور إنّ لها	يومًا تشيب النواصي من دواهيه

الرابعة: الكِبْر؛ وهو من الأمور التي تؤثّر في شقاء القلب وقساوته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ﴾[2].

الخامسة: روح الحقد والحسد والكراهية للآخرين بدلًا من النُصح والتعاون ومساعدتهم ورفع الأذى عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَعٰاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلٰا تَعٰاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوٰانِ﴾[3]، ويقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**الدين هو النصيحة**»، النصيحة طلب الخير للآخرين، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[4]، وقال ايضًا:

---

١. المائدة: ٨٣

٢. غافر: ٦٠

٣. المائدة: ٢

٤. التوبة: ١٢٨

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

مواصفات المؤمن

على المؤمن - وبالخصوص القيادات الصالحة؛ سواء أ كانت تلك القيادة مؤسّسة أم شخصًا، وعلى أيّ مستوى من المستويات - أن يتمتّع بهذه المواصفات:

أولًا: قيادة شعبية من الناس وإلى الناس ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

ثانيًا: يتحمّل معاناة الناس ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثالثًا: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي حريص على خدمة الناس وحمايتهم، وكفّ الأذى والمكر عنهم.

رابعًا: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، يساعد المؤمنين من منطلق الرحمة والرأفة.

ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنينَ في تَوادِّهِمْ وَتَعاطُفِهِمْ وَتَراحُمِهِمْ مَثَلُ الجَسدِ؛ إذا اشتكى مِنهُ عُضوٌ تَداعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمّى»[2].

وفي الأمالي للشيخ الصدوق بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام: «كان أبي يقول - يعني الإمام الباقر عليه السلام -: ما شيء أفسد للقلب من الخطيئة، إنّ القلب الذي يواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله»[3].

من الأمور التي تساعد على قساوة القلب، الخطيئة والمعصية، نستجير بالله، فلابد للإنسان أن يكون حذرًا؛ خصوصًا في شهر رمضان، وإنّ الورع عن محارم الله هو من أفضل الأعمال في هذا الشهر، كما في الرواية.

---

١. الأحزاب: ٢١

٢. سفينة البحار، ج١، ص٥٦

٣. الأمالي للصدوق، ص٣٩٧

وفي كتاب علل الشرائع عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه: «أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كلّ حال؛ فإنّ كثرة المال تُنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يُقسي القلوب»[1]. نستجير بالله.

وفي علل الشرائع أيضًا عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما جَفَّتِ الدُّموعُ إلّا لقَسوةِ القلوبِ، وما قَسَتِ القلوبُ إلّا لِكَثْرةِ الذُّنوبِ»[2].

تعلّم الكتاب والحكمة

إذًا؛ لا بدَّ للتدبّر القرآني: أولًا؛ من التزكية؛ أي تزكية النفس، فلا يمكن التدبّر في القرآن من دون تزكية نفس ومن دون قلب طاهر ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[3]، فالقرآن يحتاج طهارةً ظاهريةً مثل الوضوء، وطهارةً باطنيةً حتى يصل الإنسان إلى محضر القرآن الكريم ويستفيد منه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[4]. وبعد التزكية يأتي دور تعلّم الكتاب والحكمة؛ لذلك، للتدبّر بعد تزكية النفس، نحتاج إلى معرفة ظواهر القرآن وتفسير القرآن من أهله، وأهل القرآن هم أهل البيت عليهم السلام **«إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي»**[5].

عرض وقائع الحياة على القرآن

ثمّ عرض وقائع الحياة على القرآن، فالقرآن الكريم - كما قُلنا - له باطن وله ظاهر، فهناك مراتب للتأويل ومراتب للتنزيل. يقول البعض: إنّ التدبّر من

---

١. علل الشرائع، ج١، ص٨١

٢. نفس المصدر

٣. الواقعة: ٧٩

٤. الجمعة: ٢

٥. جامع أحاديث الشيعة، ج٢٥، ص٥

مراتب التأويل؛ لأنّه معرفة عواقب الأمور، بينما التأويل هو حقيقة الأمر، وكما أنّ في القرآن مراتب للتأويل، فإنّ فيه مراتب للتنزيل أيضًا.

ماذا تعني مراتب التنزيل؟ خذ الاستخارة مثلًا، وهي مسألة فقهية، ومن أنواع وأقسام الاستخارة، الاستخارة بالقرآن، وهي مجرّبة أيضًا. يقول آية الله العظمى المرحوم الشيخ بهجت رحمه الله: (الاستخارة معجزة القرآن)؛ لأنّ الاستخارة، إذا حصلت بشروطها، فهي تنطبق على واقع الإنسان. طبعًا؛ إنما يلجأ الإنسان إلى الاستخارة بعد الاستشارة، وبعد الترديد؛ إذ إنّ بعض الناس يستخير كثيرًا في الصغيرة والكبيرة حتى لو لم يكن في حالة شك وترديد. فإذا استخار بعضهم بعد تحقق الشروط، يشخصون الآية الشريفة ويطبّقونها على واقع الإنسان. لماذا؟ لأنّها مرتبة من مراتب التنزيل، وما هو المقصود بذلك؟ يعني كما أنّ القرآن له مرتبة عندما نزل على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، كذلك في زماننا، فإذا استفدنا من هذا القرآن نفسه بإعجازه بنحوٍ صحيح، فهو يعالج مشكلتنا، كما يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن؛ فإنّه شافع مشفّع وماحِلٌ مصدّق**»[1]. هذه حقيقة الأمر القرآني، والاستخارة ليست مجرد استخارة فقط؛ بل هي نوع من التأمل ومعرفة عمق الآية واستشراف المستقبل وحال الإنسان من خلال القرآن، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**في القرآن خبر ماضيكم وحالكم ومستقبلكم**».

أحد الأمور التي تساعد في التدبّر القرآني معرفة السُنن الإلهيّة، ومعرفة القصص القرآنية، ومعرفة الخطوط العريضة في القرآن عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، ومعرفة النُظم الإسلامية في القرآن؛ النظام الثقافي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي، والنظام السياسي، والنظام الأمني، والنظام الصحي، فهذه الأنظمة تساعد الإنسان على أن يكون عنده إلمام وإشراف على القرآن بحيث يعرف الشؤون المختلفة؛ لذلك، إذا توجّه إلى المعنى اللغوي لبعض الآيات القرآنية

١. الكافي، ج٢، ص٥٩٩

مثلًا وعرف تلك الأنظمة، يتمكّن من أن يتلقّى الدروس الخاصّة من القرآن في الزمان الخاص. هذه خلاصة الأمر فيما يتعلّق بالتدبّر في القرآن الكريم.

أسباب الارتداد

قال الله تعالى: ﴿اَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ اَمْ عَلٰى قُلُوبٍ اَقْفَالُهَا ۝٢٤ اِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلٰٓى اَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَاَمْلٰى لَهُمْ﴾[1]. من خلال هذه الآية، نعرف أنّ المنافقين الذين تتحدّث عنهم هذه الآيات الشريفة كانوا في البداية مؤمنين، لكن لديهم نفاق أخلاقي وفي قلوبهم مرض، وهذا النفاق الأخلاقي نتيجة اتّباع الهوى، ونتيجة التدرّج من حالة التزيين لسوء الأعمال إلى التسويل الشيطاني وارتكاب المعاصي والطمع وحبّ الدنيا إلى الارتباط بأعداء الدين وأعداء جبهة الحقّ ومودّة هؤلاء، وشيئًا فشيئًا آل بهم الأمر وجرّهم إلى الارتداد. كما أنّه قد كان عندنا بعض الطلبة بهذا الشكل، فإنّه يتقلّب من حال إلى حال، فإذا طالع الإنسان مسيرته، يرى أنّ هناك نقطة سوداء في بداية حياته لم يلتفت إليها فتكثّرت ﴿اِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلٰٓى اَدْبَارِهِمْ﴾؛ أي رجعوا من الهداية إلى الضلال ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ..﴾، فلماذا صاروا هكذا؟

أولًا: لأنّ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، والتسويل يعني التسهيل وتزيين الباطل.

ثانيًا: بعد ذلك: ﴿وَاَمْلٰى لَهُمْ﴾. إذا قرأنا (أملى) بصيغة الفعل المعلوم، كما في رواية حفص عن عاصم - وهذا في القرآن موجود - فحينئذ يكون المعنى أنّ الشيطان أَملى لهم، لكن إذا قرأناها بصيغة الفعل المجهول، كما في بعض القراءات (أُملي لهم)، فيعني أنّ الله تبارك وتعالى أَملى لهم. والإملاء: يعني الإلقاء على الشيء كثيرًا؛ أي يظنّون أنّ أمرهم حسن، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا اَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِاَنْفُسِهِمْ اِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا اِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

١. محمد: ٢٥-٢٤

مُهِينٌ﴾[1]. إذًا؛ التسويل الشيطاني والتزيين والإملاء هو سبب الارتداد، قال الله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْاَمْرِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اِسْرَارَهُمْ﴾[2]، كان عندهم ارتباط مع أعداء الإسلام ﴿كَرِهُوا مَآ اَنْزَلَ اللّٰهُ﴾، وقد تحدثنا عن هذه الآية سابقًا في بداية السورة الشريفة، وهي قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاَحْبَطَ اَعْمَالَهُمْ﴾[3]؛ يعني الكفّار، جبهة الباطل، يقول: هؤلاء ارتدّوا؛ لأنّهم صاروا ارتبطوا بأعداء الإسلام ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ﴾، المقصود بهم اليهود أو مشركو قريش المتحالف بعضهم مع بعض، وقد أصبح للمنافقين اتصال بهؤلاء ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْاَمْرِ﴾. لماذا لم يقولوا: سنطيعكم في كلّ الأمر؟ بعض الأمر يعني أنّ في القتال أهدافًا مشتركة، فقالوا: بعض الأمر حتى يحفظوا ظاهرهم مع جبهة الإيمان، يقولون: نحن مؤمنون لكن ليس في كلّ الأمر، فلم يكونوا كفارًا مائة بالمائة، في بعض الأمر حتى يخفوا الأسرار، والله سبحانه يقول: ﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اِسْرَارَهُمْ﴾، الإسرار يعني ما أسرّوا، إذا قرأناها بالفتحة (أسرارهم): جمع السر، والله تبارك وتعالى يعرف الأسرار واحدًا تلو الآخر. ثمّ إنّ إفشاء سرّهم وفضحهم في جبهة الحقّ هو شأن الله تبارك وتعالى. هناك آيات شبيهة لهذه الآيات في سورة الحشر؛ يقول الله تعالى: ﴿اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِاِخْوَانِهِمُ﴾[4]، انتبهوا إلى كلمة (إخوانهم)، فالمقصود بالإخوان اليهود ومشركو قريش، فلهم علاقة أخوّة مع اليهود ومع مشركي قريش. ما هو حال أخوّة المنافق مع الإنسان المؤمن؟ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ اُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ اَحَدًا اَبَدًا وَاِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللّٰهُ

---

١. آل عمران: ١٧٨

٢. محمد: ٢٦

٣. محمد: ٩

٤. الحشر: ١١

يَشْهَدُ اِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1]؛ لأنّهم يخافون من الموت ﴿لَئِنْ اُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْاَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾[2]، لا يبقون في الجبهة؛ لأنّهم يخافون من الموت، فلا يحضرون حين القتال لا مع المؤمنين ولا مع المشركين؛ بل إنّهم مشاغبون وفتنويون يقلّبون الأمور كما يريدون. هذه هي الحقيقة القرآنية التي ذكرها لنا الله سبحانه وتعالى عن المنافقين.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد.

---

١. نفس المصدر

٢. الحشر: ١٢

المحاضرة التاسعة

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٣٠-٢٧

حال المنافقين في الآخرة

لا زلنا مع الآيات الشريفة لهذه السورة التي تتحدّث عن جبهة الحقّ والإيمان وجبهة الباطل والكفر، فقد عرّجت السورة إلى ذكر جملة من الأمور المرتبطة بذلك، وقد حدّثنا الله تبارك وتعالى عن المنافقين وسماتهم وما يتعلّق بالنفاق وطبيعة المنافقين ونتيجة النفاق وسوء عاقبة النفاق؛ إلى أن وصل بنا المقام إلى هذه الآية الشريفة التي يقول فيها الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ اِذٰا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلٰآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَاَدْبٰارَهُمْ﴾[1]؛ أي أنّ سوء عاقبة أفعال المنافقين لا تتعلّق بالدنيا فقط؛ بل بالموت وضغطة القبر ومنازل الآخرة؛ حيث تتبيّن لهم أكثر. وهذه الفاء تفريع؛ أي كيف استيحاشُهم وذُعرهم ووضعهم عندما تتوفّاهم الملائكة؟ ولا شكّ أنّ إحدى سمات المنافقين - كما تحدّثنا عن ذلك سابقًا - أنّهم يخافون من الموت؛ لذلك، يتخلفون عن الجهاد ويفرّون منه، وذكرنا الآيات الشريفة في هذا الصّدد من هذه السورة وباقي السور؛ نظير: ﴿كَاَنَّمٰا يُسٰاقُونَ اِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[2]، أو ﴿يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[3]. طبعًا؛ هذا الخوف من الموت يؤدّي بهم إلى التخلف عن الجبهة وترك الميدان

---

١. محمد: ٢٧

٢. الأنفال: ٦

٣. محمد: ٢٠

وإلقاء بعض المعاذير؛ مثلًا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[1]، أو يقولون: إنّ الطقس حارٌّ، فلا تنفروا في الحرّ، وأمثال هذه المعاذير التي يذكرونها. وهذا يظهر على المقاتل عندما يقاتل؛ فإما أن تُوجّه له الضربة من الأمام وفي أثناء المواجهة مع العدو، فيكون جريحًا أو شهيدًا، وإمّا أن يفرّ من الزحف، وهذا الفرار من الزحف من السبع الموبقات وله أحكامه، والآية الشريفة تُبيّن هذا الأمر ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾[2]؛ أي بدلًا من أن يصابوا في المواجهة مع العدو والكافر في الجبهة تضربهم الملائكة عند الموت، وعندما تكون عندهم حالة الفرار من الزحف يضربون أدبارهم، فهم يضربون على وجوههم استقبالًا وعلى أدبارهم فرارًا، لأنّهم خافوا من الموت، تستقبلهم الملائكة بالضرب والعذابفي أوّل منازل الآخرة، وهو القبر في حالة الموت، فإنّ هذه الوجوه التي وقوها من السيوف حين فرّوا تستقبلها الملائكة بالضرب، وفي الأدبار أيضًا بسبب فرارهم وتوليتهم الدّبر.

والفرار من الزّحف وترك القتال - كما قلنا - من كبار الموبقات السبع، الموبقات كبائر الإثم، واليوم المعركة ممتدّة، وليس بالضرورة أن تكون المعركة في جبهة القتال وأن يفر الإنسان منها، فقد يكون الفرار بأن يقدّم التنازلات ويترك حالة الجهاد والمقاومة وينشغل بمعيشته اليومية، فهذا ملاكًا نوعٌ من الفرار من الزّحف.

مسألة فقهية في الفرار من الزّحف

إنّ الفرار من الزّحف فيه أحكام فقهية كثيرة أذكر مسألة واحدة فقط، والمسألة هي: إذا غلب على ظنّه الهلاك مثلًا بنسبة سبعين أو ثمانين أو تسعين بالمائة، فيحتمل أنه إذا بقي في الجبهة يُقتل ويستشهد، ففي هذه الحالة، هل

١. الأحزاب: ١٣

٢. الأنفال: ٥٠

يجوز له الفرار؟ قولان:

القول الأول: وهو مشهور الفقهاء؛ حيث يقولون: نعم؛ يجوز هنا استثناءً؛ لأنّ مقاومته لا تؤدّي إلى نتيجة، وبالتالي يُقتل، فحفظ النفس واجب، وإلقاء النفس بالتهلكة لا يجوز، فمن هذه الناحية يجب عليه أن يحفظ نفسه فيفر من الجبهة.

القول الثاني: وهو أكثر صوابًا، وعليه صاحب الجواهر أيضًا، وهو وجوب الثبات وأن لا يترك المعركة حتى لو أدّى ذلك إلى استشهاده؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، الثبات واجب حتى لو أدّى إلى استشهاده. وهذا بحث فقهي مفصّل في محله لا يتسع له المجال هنا.

الآثار غير الفقهية للفرار من الزحف

المهمُّ أنّ الفرار من الزحف - مضافًا إلى الآثار الفقهية التي تترتب عليه في حال مخالفة أوامر القيادة الشرعية والقيادة الميدانية - تترتّب عليه آثار أخلاقية سيّئة:

منها: العذاب الإلهي الأليم؛ لأنّه من كبائر الإثم.

ومنها: سُنّة الاستبدال، فالله تبارك وتعالى يمحوه من قائمة الجنود الإلهيين المرابطين، ويستبدله بشخصٍ آخر، كما أنّ المجتمع يمكن أن يُستبدل، وسنتحدّث عن ذلك، فالاستبدال فرديٌّ واجتماعي.

ومنها: المقت الإلهيّ؛ وهو الفضيحة في الدنيا؛ لأنّه جُبن، فيقال له: جبان. والمجتمع يطرده ويلفظه.

---

١. الأنفال: ٤٥

ومنها: الحرمان من الهداية الإلهيّة.

وأمثال ذلك من الأمور الكثيرة.

هناك آية تشبه هذه الآية الشريفة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1]، نستجير بالله من ذلك، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[2]، في ذلك إشارة إلى علّة الموت الفجيع والعذاب الأليم التي أشارت إليها الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، فما معنى ذلك؟ لماذا يضرب الملائكة الوجوه والأدبار؟ هذا الضرب؛ أي ضرب الملائكة، يتناسب مع اتّباعهم ما أسخط الله وكُرههم رضوانه؛ لأنّ الكراهة والعداء إذا ارتكبهما الإنسان يستلزمان الإدبار والإعراض واتّباع ما أسخط الله، وما يسبّب غضب الله تبارك وتعالى، يُسبّب نوعًا من العذاب الإلهيّ.

وخلاصة الأمر: إنّ اتّباع المنافقين لما هو سببٌ لغضب الله، وعداؤهم لما يرضي الله، يترتب عليه آثار:

الأول: تحدّثت عنه الآية السابقة، وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت.

الثاني: إحباط عملهم. تقول الآية الشريفة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾[3]، فلذلك عندما تتوفّاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، هذا أولًا. وثانيًا ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[4]. فالفرار من الزّحف والخوف من

---

١. الأنفال: ٥٠

٢. محمد: ٢٨-٢٧

٣. محمد: ٢٨

٤. محمد: ٩

الموت له أثران؛ أثر يتعلّق بضغطة القبر واستقبال الملائكة لهم بالضرب على وجوههم وأدبارهم. والأثر الثاني؛ هو الذي ذكره القرآن هنا في هذه الآية، وهو إحباط العمل؛ أي إفساد العمل، وبطلان العمل، وضياع العمل، وعدم انتفاعهم بالعمل لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالمنافقون ظاهرًا يصلّون، ويصومون، ويحجّون، ويزكّون، ويتصدّقون، ولكنّ هذه الأعمال كلّها لا تُقبل منهم وباطلة؛ وذلك لوجود سببين:

السبب الأول: ﴿اتَّبَعُوا مَآ أَسۡخَطَ اللَّهَ﴾ اتّبعوا ما يغضب الله.

السبب الثاني: ﴿وَكَرِهُوا رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، فهم لا يحبّون الرضا الإلهي، ويعادونه، وهذا يسبب الحبط. فهذه نقطة.

يتبيّن من هذه الآية الشريفة، عندما يقول الله تعالى: ﴿اتَّبَعُوا مَآ أَسۡخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضۡوَٰنَهُۥ﴾، أنّ المنافقين - كما قلنا - على درجات، فبعض المنافقين قادة النفاق؛ أي أنّ بعضهم قادة لهؤلاء القاعدة المساكين الذين يتّبعون هذه القيادة، والأثر الذي يترتّب على هذه التبعية هو ابتلاؤهم في القبر بسوء استقبال الملائكة لهم وبحبط أعمالهم. وهذه نقطة أخرى أيضًا.

تحذير المنافقين

ثمّ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾[1]. إنّ هذه الآية الشريفة تحذيرٌ للمنافقين بأنّ الله تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ومن أسرارهم وباطنهم المريض، فإنّه تعالى سيُظهر ما يكنّون من حقدٍ وعداوةٍ للإسلام وسيفضحهم. الأضغان: الأحقاد الشديدة، وهذه الأحقاد تظهر؛ إذ إنّ الله تبارك وتعالى يُظهرها، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما**

١. محمد: ٢٩

أضمَرَ أحَدٌ شيئًا إلاّ ظَهَرَ في فَلَتاتِ لِسانِهِ، وصَفَحاتِ وَجهِهِ»[1]. وقال أيضًا عليه السلام: **«إنَّ الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»**[2]. ففي النهاية، تظهر حقيقته من خلال نوع سلوكه وتصرّفه؛ فالنفاق - كما قلنا - له أربعة أنواع: النفاق العقائدي، والنفاق العملي، والنفاق السياسي، والنفاق الاجتماعي، وهذا يظهر في السلوك.

توجد آية أخرى في سورة آل عمران هي الآية ١١٨ منها، تشرح وضع الذين في قلوبهم مرض وكيف يعالجهم الله تبارك وتعالى ، وكيف يكون وضعهم. طبعًا؛ الآية ١١٨ تتحدّث عن الكفار، والكفار والمنافقون طبيعتهم واحدة؛ بل المنافقون أخطر من الكفّار ﴿إِنَّ الْمُنٰافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّٰارِ﴾[3] كما هو واضح، والذين في قلوبهم مرض تحدّثنا عنهم، وهو النفاق الأخلاقي، وهذا النفاق الأخلاقي يؤدّي إلى النفاق الاعتقادي، ويؤدي إلى النفاق السياسي، ويؤدي إلى النفاق الاجتماعي وهو الأساس ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ﴾.

اتخاذ البطانة

تقول الآية: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوا لٰا تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾[4]. البطانة: تعني الخواص، والقيادة الإسلامية والمؤسّسة الإسلامية والحزب الإسلامي والجماعة العاملة الإسلامية والعلماء الفاعلون النشطون، لابد أن يكون لديهم خواص يعتمدون عليهم، وهناك أناس ليسوا من الخواص، فالخواص البطانة الداخليون ﴿لٰا تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، هؤلاء الخواص لابدّ أن تمتحنهم في الإيمان والعمل الصالح والصبر والمقاومة وحفظ الأسرار؛ لكي تستطيع أن

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨، ص١٣٧

٢. نفس المصدر، ص٣٥٣

٣. النساء: ١٤٥

٤. آل عمران: ١١٨

تعتمد عليهم وتوكل الأمور إليهم. من دونكم؛ أي من غير جماعتكم الخواص ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[1]؛ لأنهم لا يألون جهدًا في المكر والحيلة وإفساد أموركم، فإذا اعتمدتم على جماعة ليسوا مجاهدين حقيقةً، وليسوا صابرين مائة بالمائة ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾[2]، فطبيعة هؤلاء أنهم يريدون لكم ما يصعب عليكم، يريدون أن تكون لديكم مشاكل، فإنّهم يفرحون ويستبشرون إذا حلّت المشاكل بساحتكم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[3]، الأفواه تظهر مدى الحقد الأسود الذي يحملونه مثلًا على المقاومة والمقاومين وأمثالهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[4]، والشيء الذي يحاولون أن يخفوه أكبر من هذا الذي ظهر على فلتات لسانهم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]. هذا في نفس سياق الآية الشريفة التي نتحدّث عنها هنا ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[6]، الظاهر أنّها هنا بهذا الشكل ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

كيفية معرفة المنافقين

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[7]. نريد أن نقف عند هذه الآية قليلًا، فإنّ المنافقين يتفنّنون بإخفاء نيّاتهم الخبيثة، ويتفنّنون بإخفاء مكائدهم ضدّ الإسلام وضدّ القيادة الصالحة، ويتغلغلون بين الجماعة الإسلامية، فالله تبارك وتعالى يذكر لنبيه الأكرم ﷺ هنا أنّه لو شاء لأطلعك عليهم واحدًا واحدًا، فتعرفهم؛ فهذا زيد المنافق، وهذا

١. نفس المصدر
٢. نفس المصدر
٣. نفس المصدر
٤. نفس المصدر
٥. نفس المصدر
٦. محمد: ٢٩
٧. محمد: ٣٠

عمرو المنافق، وأمثال ذلك ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾. ثمّ هل يوجد طريق لمعرفة هؤلاء؟ الجواب: نعم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾؛ أي من خلال علاماتهم الذاتية، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فحتى لو أنّ الله تبارك وتعالى لم يعرّفك إيّاهم واحدًا واحدًا بأسمائهم، فيمكنك أن تتعرّف عليهم من خلال علاماتهم الذاتية ولحن كلامهم وأسلوبهم وسلوكهم. السيماء: هي العلامة الملازمة للإنسان، فالإنسان لديه سيماء ظاهرة وسيماء باطنة، وهذه السيماء الظاهرية لا يتصرّف بها الإنسان وليست هي باختياره؛ فهناك إنسان طويل، وقصير، وأسود، وأبيض، ورجل، وامرأة، هذه السيماء الظاهرية. لكنّ السيماء الباطنية هي من صنع الإنسان، فالإنسان هو الذي يصنعها بيده من خلال عزمه وإرادته وعمله، فتجدون مثلًا إنسانًا حسودًا للآخرين والثاني نصوحًا، وإنسانًا متواضعًا والآخر متكبّرًا، وإنسانًا مجاهدًا والآخر قاعدًا ...إلخ، فهذه الصفات الباطنية تشكّل سيماء الباطن. وسيماء الباطن عند البعض مبتنية على الخبث، فيُظهر أنه مع الجماعة الإسلامية، ويحاول أن يغطّيه ويظهر بأنّه إنسان نصوح ويحب المقاومة ويحب الجماعة ويحب المؤمنين وأنّه خيّرٌ، والله تبارك وتعالى يقول في هذا المورد عن هؤلاء: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، فمن لحن القول تتمكّن من أن تعرف باطن هؤلاء كيف هو. توجد آية في سورة البقرة هي الآية ٢٧٣ تتحدّث أيضًا عن هذه السيماء الظاهرية التي تُظهر الباطن، فالآية تتحدّث عن هؤلاء الذين يستحقّون الصدقة ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[1]، كانت عندهم مشاكل فلا يتمكّنون من أن يحصلوا على الرزق، كابن السبيل مثلًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[2]، إذا ينظر إلى صورهم الظاهرية، يظنّ أنّهم أغنياء، ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، لكن إذا تنظر إليهم بنظرة جديّة، فستلتفت إليهم وتشخّص من هم، وأنهم في الواقع فقراء

١. البقرة: ٢٧٣

٢. نفس المصدر

﴿لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1]، لا يستجدي أحدًا ولا يمدُّ يده إلى الناس، إلحافًا؛ أي إصرارًا، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[2]. إذًا؛ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي وإن لم نعرّفهم لك يا رسول الله بعلاماتهم وسيماهم الظاهرية فلتعرفنّهم من خلال لحن كلامهم، وكنايتهم، وجرح لسانهم، وإبداء نظرهم في الجهاد والقتال والحقّ والعدل؛ فنلاحظ مثلًا أنّ بعض الناس يأتيك بصفة أنّه ناقد، وإنّ النقد على قسمين؛ فيوجد لدينا نقد بنّاء بقصد النصيحة وطلب الخير، ولدينا نقد آخر هدّام، وهذا يأتي بصورة انتقاد بناء، لكنّه بالتالي ينتقد بنحوٍ من الأنحاء، بحيث إنّ العدوّ يفرح من نقده، خصوصًا عندما ينتقد الحالة الإسلامية والمقاومة الإسلامية والمؤسّسة الإسلامية والجماعة الإسلامية، ويفشي الأمور الداخلية في الإعلام؛ ولابدّ أن ننتبه إلى أنّ أيّ عملٍ أو فعلٍ أو سلوكٍ أو موقفٍ يسبب تضعيف الوضع الإسلامي وإيجاد الفرقة والنزاع وأمثال ذلك، فهو غير جائز، فهذا من لحن القول، والإنسان يلتفت إلى أنّ هذا الشخص هدفه الإضعاف أو التقوية، وتوجد ملاكات لتشخيص ذلك.

إنّ هذه الحالة الكرام كانت موجودة في زمن رسول الله ﷺ، وقد ذكرت لكم في الجلسات السابقة أنه في زمن رسول الله ﷺ كانت هناك تيارات سياسية؛ فمثلًا تيار أمير المؤمنين عليه السلام كان معروفًا باسم (شيعة عليّ)، والرسول الأكرم ﷺ يقول: «**يا علي أنت وشيعتك الفائزون يوم القيامة**». وفي المقابل كان يوجد تيار مناوئ ومعارض لأمير المؤمنين عليه السلام ولجماعته في زمن رسول الله ﷺ، وتوجد تيارات أخرى تحدّثنا عنها في الجلسات السابقة.

روايات في لحن القول

وفي هذه الآية الشريفة ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، توجد روايات صحيحة

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

بإسناد أهل السُنّة مروية في كتبهم المعتمدة، ينقلها صاحب مجمع البيان، وكذلك أحمد بن حنبل في كتاب الفضائل، وابن عبد البر في الاستيعاب، والذهبي في تاريخه، وابن الأثير في جامع الأصول، والسيوطي في الدُر المنثور، فقد روي عن أبي سعيد الخدري: «**لحنُ القول بُغضهم لعليّ بن أبي طالب** عليه السلام، **وكنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه ببُغضِهم لعلي بن أبي طالب** عليه السلام». قال السيوطي في الدُر المنثور: «أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود؛ قال: «**ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلّا ببغض علي بن أبي طالب** عليه السلام»[1]. وقال العلامة الحلّي في كتاب منهاج الكرامة بعد ذكر هذا الحديث وغيره في حبّ أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير «لحن القول»: ولم يثبت لغيره من الصحابة ذلك. وبذلك، يكون أفضل منهم؛ لأنّ الآية نازلة في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام فقط.

أصناف الأحاديث الواردة في حبّ أمير المؤمنين عليه السلام وبغضه

نذكر هنا دراسة مختصرة في الأحاديث التي وردت في الحبّ والبُغض لأمير المؤمنين عليه السلام بأسانيد أهل السنة، وهي تنقسم إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الأحاديث العالية السند عندهم؛ مثل كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يحِبُّني إلاّ مُؤمِنٌ وَلا يبغِضُني إلاّ مُنافِق**»؛ حيث يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: هذا الحديث حسنٌ عالٍ جدًا ومتنُه متواتر[2]؛ بل سندُه أصحُّ من حديث «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ**» عندهم؛ أي أنهم يقولون إنّ حديث الغدير صحيح ولكنّ هذا أصح منه. هذا ما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء. وهكذا في صحيح مسلم، وصحيح ابن حبّان، ومسند أبي يعلي، ومسند أحمد بن حنبل، وخصائص أمير المؤمنين للحافظ النسائي، وفضائل الصحابة لأحمد بن حنبل.

---

١. ورواها الترمذي أيضًا في سننه، ج٦، ص٧٨، ح٣٧١٧.

٢. سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٨، ص٣٣٥.

هذا الصنف الأول، والرواية مروية عن أمير المؤمنين عليه السلام.

الصنف الثاني: وهو مروي عن أُمّ سَلَمة وأيضًا عن سلمان، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومما رَويا عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حق عليّ عليه السلام: «**من أحبّ عليًّا فقد أحبّني، ومن أبغض عليًا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض اللّه**». وقد روى هذا الحديث الطبراني في معجمه الكبير عن أم سلمة[1]. يقول الحافظ الهيثمي بعد نقل هذا الحديث: وإسناده حسن. وينقل الحاكم النيسابوري عن سلمان: سمعت رسول الله يقول.. ويذكر نفس الرواية. ثمّ قال: إنّ السند صحيح[2].

الصنف الثالث: هذه الرواية ورواية أبي سعيد الخدري التي وردت في ذيل ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وهي رواية مميّزة حقيقةً؛ حيث إنها توجِد خطّين: خطّ حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وخطّ بغض أمير المؤمنين، وهذان الخطّان كانا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذلك كانت جذور التشيّع وأساسه من زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تقدّم سند هذه الرواية فلا أعيد مراعاة للاختصار. وجميع رجال رواية أبي سعيد الخدري وهذه الرواية صحيحون، حسب مباني وبيان أعلام أهل السنة. فالشاهد من ذكر هذه الرواية هو قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، بالتالي لم يعرّف الله تبارك وتعالى المنافقين فردًا فردًا بالاسم والرسم، ولكنّه أعطى علامة تدل عليهم؛ وهي (لحن القول). يقال: بعد نزول هذه الآية، لم يصلِّ رسول الله صلى الله عليه وآله على منافق ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[3].

أقسام الإيمان والنفاق

الإيمان عندنا له إطلاقان: إيمان بمعنى عام، وإيمان بمعنى خاص؛ وهو قبول ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. والنفاق أيضًا على قسمين:

---

١. المعجم الكبير للطبراني، ج٢٣، ص٣٨، ح٩٠١.

٢. المستدرك على الصحيحين للنيسابوري، ج٣، ص١٤١، ح٤٦٤٨.

٣. التوبة: ٨٤

القسم الأول: نفاق في زمن رسول الله ﷺ، وأكثر ما كان يطلق على النفاق الاعتقادي، والنفاق الأخلاقي (في قلوبهم مرض)، والنفاق السياسي، فلم يقبلوه كما هو حقّه.

القسم الثاني: نفاق على زمن أمير المؤمنين عليه السلام بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ، فكلّ من ناوأ وعارض وأبغض أمير المؤمنين فهو منافق، ولا شكّ في أنّ المعادي لأمير المؤمنين هو ناصبي كافر.

وهناك أحكام فقهية خاصة بالمنافقين، ومن جملة هذه الأحكام، الصلاة على موتاهم؛ حيث تختلف عن الصلاة على الميت المؤمن في التكبيرة الرابعة. وطبعًا؛ تجدر الإشارة هنا إلى أنّنا نعتقد أنّ أكثر أهل السنة في هذا الزمان مستضعفون، وإذا تتبيّن لهم الحقيقة يؤمنون، والمحبون لأمير المؤمنين عليه السلام من أهل السنّة هم المستضعفون منهم، فلا يبعد أن يُكتب لهم النجاة. أمّا المتعصّبون العالِمون المنكرون لفضائل أمير المؤمنين والمبغضون له والمبغضون لشيعته، فهؤلاء أمرهم مختلف.

في كيفية علم الله تعالى

ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[1]. هذا الكلام خطاب لجميع المسلمين ولجميع الناس؛ إنّ الله يعلم أعمالكم، وهذا العلم الإلهيّ علم كلّي وعلم جزئي، فالله يعلم بالجزئيات، وهذا ثابت بالفلسفة وببحوث معرفة النفس والعلم الإلهي. قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد في التنبيه على إحاطة علم الله بالجزئيات والحثّ على التقوى وبيان فضل الإسلام والقرآن: «**يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلاَطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ**»[2]؛

١. محمد: ٣٠

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

يعني أن الله يعلم بالجزئيات. ثمّ كيف يعلم الله تبارك وتعالى بالجزئيات؟ علم الله يتجاوز الزمان والمكان؛ فالله تبارك وتعالى له قيمومية وله إحاطة، ومن خلال إحاطته وقيموميته عنده علم بالجزئيات، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ اَنَّمٰا فِي الْاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلاٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهٖ سَبْعَةُ اَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، فلله تبارك وتعالى قيمومية وإحاطة بالنسبة إلى علم العباد، وهذا تحذير للمؤمنين بأنّ الإنسان لابدّ أن يلتفت إلى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ اَيْنَ مٰا كُنْتُمْ﴾[2]، وإلى ﴿فَاَيْنَمٰا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ﴾[3]، وإلى ﴿اَللّٰهُ لاٰ اِلٰهَ اِلّٰا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاٰ تَاْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاٰ نَوْمٌ﴾[4]. المهم أنّه ينبغي أن ننتبه، وهذا الشهر هو شهر التزكية والتوجّه والاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يغفر لنا ويرحمنا برحمته الواسعة. وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

١. لقمان: ٢٧

٢. الحديد: ٤

٣. البقرة: ١١٥

٤. البقرة: ٢٥٥

المحاضرة العاشرة

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰابِرِينَ وَنَبْلُوَا اَخْبٰارَكُم ﴿٣١﴾ اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَشٰاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدٰى لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ اَعْمٰالَهُم ﴿٣٢﴾ يٰا اَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلٰا تُبْطِلُوٓا اَعْمٰالَكُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٣٣-٣١

ما هي وظائفنا تجاه المنافقين المعاصرين؟

أولًا: الوظيفة الأساس؛ هي الرصد الذكي والتقييم المستمر والحذر منهم ومحاولة إحباط مؤامراتهم وخططهم الماكرة الهادفة لتضعيف جبهة الإسلام وإيجاد الفرقة وتخذيل المؤمنين عن الجهاد وغيرها من الأهداف الخبيثة ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾[1].

ثانيًا: المحافظة على التماسك والوحدة والوئام لجبهة المؤمنين.

ثالثًا: طالما أنّ المنافقين يتظاهرون بأنّهم مع جبهة الحقّ وجبهة الإيمان والحالة الإسلامية العامّة، فإذا لم يرفعوا سيفًا ولم ينقضوا بيعةً بالعمل، فلا يوجد تكليف في مواجهتهم إلّا بالجهاد البياني، ولكن إذا نقضوا البيعة ورفعوا سيفًا ضدّ الدولة الشرعية وضدّ حاكم المسلمين وضدّ الحالة الإسلامية وضدّ المقاومة الإسلامية في زماننا، فيجب التصدّي لهم ودفع كيدهم وشرّهم وإسكاتهم وإحباط مؤامراتهم، ومثال ذلك التكفيريون والدواعش في زماننا، فهؤلاء طالما لم يرفعوا سيفًا ولم يقاتلوا ولم يقتلوا مؤمنًا، فالكلام معهم فقط على مستوى بيان أنّ التكفير غير صحيح وليس من شيم المسلم، ولكن عندما رفعوا السيف وقتلوا، فدفاعًا ودفعًا لشرهم وكيدهم كان يجب التصدّي لهم،

---

١. المنافقون: ٤

والتصدّي ليس على مستوى استئصالهم؛ بل على مستوى دفع شرهم وإعادتهم إلى رشدهم إن التفتوا.

كما تحدّثت الآية الشريفة في قصة هابيل وقابيل عن ذلك، فقابيل أخذه الحسد والطغيان وتسويل الشيطان والجهل ورفع السيف ضدّ هابيل. والمنافقون هذا حالهم، يتأثّرون بالجهل وتسويل الشيطان وتأخذهم حالة الحقد والكراهية والبغظ والحسد كقابيل، إنّهم أبناء قابيل وعلى خطه، فقد قال الله تعالى نقلًا عن هابيل الشهيد المظلوم: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ اِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ اَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ اِلَيْكَ لِاَقْتُلَكَ اِنِّيٓ اَخَافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، فالتصدّي في مواجهة هؤلاء يكون على مستوى رفع شرّهم ودفعه فقط، كما حدث لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مواجهته للناكثين والقاسطين والمارقين، فالحرب ضدّ هؤلاء لم تكن حرب استئصال، فعندما انتصر على الماكثين، أرجع زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله بعزٍّ واحترام إلى المدينة، وهكذا بالنّسبة إلى باقي الحروب وخوارج النهروان، وعندما كانوا يحضرون في المسجد ويوجّهون النقد اللاذع لأمير المؤمنين عليه السلام، ما كان يتصدّى لهم؛ بل يقول لهم أنتم لكم سهم من بيت المال، وحالكم حالنا ما دمتم لم ترفعوا السيف ضدّنا، ولكن عندما رفعوا السيف تصدّى لهم، وهذا طبعًا بعد جهاد التبيين؛ فقد كان يرسل ابن عباس والآخرين لإقناعهم، ورجع كثير منهم ربما يصل عددهم إلى أحد عشر ألف شخص من خلال جهاد التبيين الذي قام به أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك استأصلهم، وهرب قسم منهم. هذه خلاصة الكلام بالنسبة للمنافقين في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد كان التصدي لهم في ذاك الزمان على مستوى الجهاد البياني.

يقول الله تعالى: ﴿يٰٓاَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2]، جهاد الكفّار الأعداء؛ مثل مشركي قريش، بالسيف، وجهاد المنافقين كان باللسان.

١. المائدة: ٢٨

٢. التوبة: ٧٣

نعم؛ في حالات استثنائية نادرة، عندما كانوا يريدون الإطاحة بالإسلام أو النيل منه، كان النبيّ الأكرم ﷺ يتصدّى لإحباط مؤامراتهم، كما في قضية مسجد ضرار وأمثال ذلك.

التأويل والتنزيل

ثمّ هناك عبارة نقرأها نحن في دعاء الندبة وهي: أنّ النبيّ الأكرم ﷺ يقاتل على التنزيل وأمير المؤمنين عليه السلام يقاتل على التأويل، ومعنى ذلك أنّ مهمّة رسول الله ﷺ كانت تأسيس الإسلام، فكلّ عمل يتنافى مع التأسيس يتصدّى له الرسول الأكرم، وكلّ عمل لا يتنافى مع ذلك يتركه على حاله، فالتأسيس يعني بيان مشروع وخطة الإسلام وآفاق الإسلام فقط، لكنّ تطبيق هذا الإسلام هو مهمّة القيادة الصالحة بعد رسول الله ﷺ، والتطبيق هو المقصود بالتأويل هنا، وأمير المؤمنين عليه السلام يقاتل على التأويل.

وهذا التأويل يختلف عن التأويل القرآنيّ الذي تحدّثنا عنه؛ فالتأويل القرآني بمعنى بيان حقيقة الآية وتجسيدها الواقعي، بيدَ أنّ التأويل هنا الوارد في الدعاء بمعنى تطبيق الإسلام وإقامة الدين. هذه نقطة.

ثمّ إنّ التأمّل في الآيات معناه التفكّر، والتأمل مقدّمة للتفكر، التفكر يعني فهم الدلائل والحجج، والتأويل معرفة الحقائق، لكنّ التدبّر معرفة عواقب الأمر واستشراف المستقبل، وكما قلنا: هو ربط الماضي والحاضر والمستقبل، والتدبّر يتوقّف على التفسير ومعرفة الظواهر. وهذه نقطة أخرى.ً اوليتضح الأمر أكثر نضرب لكم مثالًا: وهو الآية المعروفة: ﴿قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1]. فالمعنى الظاهري للآية أنّ ارتكاب المعاصي والآثام والذنوب والفسق والفجور بالخفاء أو بالعلن، هو حرام ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، لكنّ أبا بصير يسأل الإمام الصادق عليه السلام ويقول له: ما هو معنى هذه الآية؟

١. الأعراف: ٣٣

الإمام يرجع معنى الآية إلى معنى باطني، معنى يتعلّق بالتأويل، فما هو المعنى الباطني؟ يقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ جميع ما أحلّ الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك هم أئمة الحقّ، وإنّ جميع ما حرّم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك هم أئمة الجور.

ما هو الربط بين قيادة الحقّ وقيادة الباطل وبين الطاعة وارتكاب المعاصي؟

بحسب الظاهر لا ربط، لكن إذا نتأمّل وندقّق ونفكّر ونتدبر في الآية، نتوصل إلى المعنى الباطني؛ فمثلًا أذكر لكم جانبًا من جوانب هذا التفسير والتأويل الباطني، فأقول: المعصية تفرح الشيطان وتفرح قادة الباطل من الجن والأنس، وطاعة الله تفرح الله والرسول صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام وقادة الحقّ، وهناك تعارض بين خطّ الرحمن وخطّ الشيطان؛ فمثلًا النساء اللاتي يرتدين الحجاب في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، أو المجتمع المسلم في أوروبا أو أمريكا حينما يتظاهر بالشعائر الإسلامية؛ مثل ماركة الحلال وأكل الحلال والسوق الإسلامي وإقامة الصلاة حتى في الشوارع، فهذا يبغض الأنظمة الطاغوتية الجائرة الكافرة الأوروبية، ويعتبرون أنّ هذا الأمر تحدٍّ صارخٌ لأنظمتهم مع أنّهم يتبجّحون بالليبرالية وحرية الأديان وحرية المذاهب وحرية المعتقدات وما إلى ذلك، لكنّ هذا العمل يُعتبر مناقضًا لثقافتهم ويهدمها، ممّا أدّى إلى أن يفكروا في منع ارتداء الحجاب وفرض ضريبة على من ترتدي الحجاب، ومنع من ترتدي الحجاب حتى من الدخول إلى الجامعات والمدارس خصوصًا في فرنسا، ثمّ بعد ذلك أخذوا يفكّرون بإسلام آخر؛ لأنّ هذا الإسلام لا يرضيهم، أخذوا يفكّرون بإسلام فرنسيٍّ، بإسلام ألمانيّ، بإسلام بريطانيّ لندنيّ.. فأيُّ إسلام هذا؟ إنه الإسلام الذي لا يضرُّ بمصالحهم ولا يتعارض مع ثقافتهم؛ فمثلًا: قال رئيس جمهورية فرنسا: نحن نريد إسلامًا لا يتعارض مع الثقافة الفرنسية؛ فمثلًا من الآداب الفرنسية أن يتناولوا القهوة الفرنسية، فيقول رئيس جمهوريتهم: حتى إنّه في نهار شهر رمضان لا بأس بشرب القهوة الفرنسية. فأيّ رمضان هذا؟!

هذا يدلُّ على أنّ الإسلام وإقامته يشكّلان خطرًا عليهم، كما يقول الله تعالى: ﴿اَنْ اَقِيمُوا الدّٖينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فٖيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكٖينَ مَا تَدْعُوهُمْ اِلَيْهِ﴾[1]، إنّ المشركين يستوحشون من تطبيق الإسلام والتظاهر بالإسلام، فأئمّة الباطل لا يرتضون طاعة الله تبارك وتعالى اليوم في عالمنا المعاصر، ويعتبرون التظاهر بالأحكام الإسلامية وتطبيق الإسلام في العالم هو لصالح الجمهورية الإسلامية ولصالح القيم الإسلامية ولصالح الحكومة التي تنادي بتطبيق أحكام الإسلام، وعلى العكس من ذلك هنا عندنا في الجمهورية الإسلامية، فعندما تتظاهر بعض النساء مثلًا بالسفور وأمثال ذلك، فهذا له رسائل، من تلك الرسالة أنّنا لا نريد أن نلتزم بأحكام الإسلام. مؤخرًا هناك امرأة بهائية كان والدها سفير نظام الشاه في ألمانيا، وهي تعيش في ألمانيا، وهي رئيسة وعميدة فرع الإسلام والتشيّع وإيران في جامعة كلن الألمانية، كتبت كتابًا حول هذه الاضطرابات التي حدثت في إيـران وعنوان كتابها (إيـران بلا إسلام حقيقة الثورة ضدّ الحكومة الدينية). ومعنى ذلك أنّ البهائية والمنافقين والسافاك وجماعة الشاه والمتضررين من هذا الحكم الديني، يحاولون عن طريق التخطيط والبرمجة الأمريكية والصهيونية الفصل بين الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام من جانب، وبين إيران من جانب آخر، وهذا لم ولن يتحقّق بإذن الله؛ لأنّ الإسلام ومحبّة أهل البيت عليهم السلام متجذران في عمق وجود الشعب الإيراني الرسالي المسلم، ولا يمكن الفصل بين إيران والإسلام؛ لأنّ إيران بلا إسلام ليست هي إيران، كما أنّ الإسلام القائم على مدرسة أهل البيت في هذا الزمان امتلك قاعدة لنشر الإسلام المحمدي الأصيل، وهي نظام الجمهورية الإسلامية.

اليوم؛ هو الثاني عشر من الشهر الأول الهجري الشمسي الذي يتزامن مع يوم التصويت للجمهورية الإسلامية قبل ثلاثة وأربعين عامًا، وقد صوّت الشعب الإيراني بنسبة ٩٨/٢% للجمهورية الإسلامية، وخلال هذه الفترة من قيام

١. الشورى: ١٣

الجمهورية الإسلامية، كل مرّة يشارك فيها الناس في الانتخابات، يعتبر ذلك نوعًا من التصويت؛ ناهيك عن الحضور في المظاهرات مثل ٢٢ بهمن، ويوم القدس، والمظاهرات ضدّ أهل الفتنة والمنافقين. هذه هي الحالة الإيمانية العامّة. نعم؛ الاضطرابات موجودة، ومؤامرات الأعداء موجودة، لكنّ ذلك بإذن الله لن يضر الله شيئًا ولن يضرّ الجمهورية الإسلامية.

الأقوال في الأخبار

في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰابِرِينَ وَنَبْلُوَا اَخْبٰارَكُمْ﴾[1]، ما هي الأقوال في معنى الأخبار؟

القول الأول: نبلو أخباركم؛ يعني جميع أعمال البشر التي تنتشر كالأخبار، فكلّ عمل يعمله الإنسان ينتشر بعنوان خبر اليوم، ففي مجلس كذا صار كذا، فالله تبارك وتعالى يجعل هذه الأخبار امتحانًا لنا.

القول الثاني: الأسرار الداخلية، نبلو أخباركم؛ يعني نمتحنكم من خلال الأسرار.

القول الثالث: الأخبار؛ العهود التي عاهدتم الله تبارك وتعالى عليها، هل لازلتم على العهد؟ فهذا امتحان، كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لٰا يُوَلُّونَ الْاَدْبٰارَ﴾[2].هـل أنتم صامدون في الجبهة أو لا؟ وهل أنتم على العهد أو لستم عليه؟ وكما يقول الله تعالى أيضًا: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ اِنَّ بُيُوتَنٰا عَوْرَةٌ وَمٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ اِنْ يُرِيدُونَ اِلّٰا فِرٰارًا﴾[3]؛ يعني أنّهم لا يلتزمون عملًا.

---

١. محمد: ٣١

٢. الأحزاب: ١٥

٣. الأحزاب: ١٣

الأقوى أنّ المقصود من ﴿اَخْبٰارَكُم﴾ جميع هذه الشؤون؛ للإطلاق، وليس عندنا دليل خاصٌّ يخصص الكلمة بخبر دون آخر، مضاف ومضاف إليه يُفيد العموم أيضًا. أمّا البلاء فيعني الامتحان والاختبار، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْاَمْوٰالِ وَالْاَنْفُسِ وَالثَّمَرٰاتِ وَبَشِّرِ الصّٰابِرِينَ ۝١٥٥ اَلَّذِينَ اِذٰا اَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قٰالُوٓا اِنّٰا لِلّٰهِ وَاِنّٰآ اِلَيْهِ رٰاجِعُونَ﴾[1]، ما الذي يعطيه الله لذلك الإنسان الذي ينجح في الابتلاء الإلهيّ بالمصيبة؟ ﴿اُولٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، هذا أولًا، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ثانيًا، ﴿وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2] ثالثًا، الله يهديهم. ويقول الله تعالى: ﴿اَحَسِبَ النّٰاسُ اَنْ يُتْرَكُوٓا اَنْ يَقُولُوٓا ءٰامَنّٰا وَهُمْ لٰا يُفْتَنُونَ﴾[3]؛ أي يظنُّ الناس عندما قالوا: نحن مؤمنون، أنهم لا يمتحنون، فنجيبهم ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[4]. ما هو سبب تلك الفتنة والامتحان؟ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰاذِبِينَ﴾[5]، الله يريد أن يعرف الصادق من الكاذب، ﴿اَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ اَنْ يَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ﴾[6]، أصحاب الذنوب والمعاصي هل يسبقون الله؟ وهل يغلبون الله؟ كلا وحاشا.

طبعًا؛ البلاء الإلهيّ سُنةٌ إلهيّة لا تقبل الاستثناء؛ فيمتحن الله سبحانه الأنبياء، والأولياء الصالحين، والصدّيقين، والمجاهدين، والمقاومين، والعلماء، والنُّخب، والمثقفين، وعوام الناس؛ بل كلّ إنسان في أي موقع من المواقع كان، هذه سنّة إلهيّة مطرّدة ومطلقة، وليست سنّة مشروطة.

---

١. البقرة: ١٥٦-١٥٥
٢. البقرة: ١٥٧
٣. العنكبوت: ٢
٤. العنكبوت: ٣
٥. نفس المصدر
٦. العنكبوت: ٤

أقسام سنن الله تعالى

إنّ سنن الله تعالى على قسمين: سنن مشروطة، وسنن مطلقة؛ فالسنن المشروطة مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، أو كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، فإذا أصبحتم مؤمنين وأهل عمل صالح، فستحصلون على الخلافة الإلهيّة، فتلك سنّة مشروطة.

وعندنا سنُّة مطلقة وقانون إلهيّ مطّرد لا يقبل الاستثناء؛ مثل سُنّة الاختيار، فالله خلق الإنسان مختارًا ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3]، لا إكراه في الدّين يرجع إلى هذا الأمر: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[4]، وسنّة الابتلاء المرتبطة بالتكليف والاختيار والمسؤولية هي أيضًا سنّة مطلقة، ترجع هذه السُّنة بالأصل إلى سُنّة الإرادة والاختيار؛ لأنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان مختارًا ومسؤولًا ثم ابتلاه ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5]؛ أي أيّكم يعمل بالتكليف أفضل من الآخر.

الهدف من البلاء الإلهي

هنا يطرح هذا السؤال: ما هو الهدف من البلاء الإلهي؟ ولماذا يمتحننا الله؟ الأستاذ يمتحن تلاميذه عادة ليعرف مستواهم، وحتى يرى أيّ شخصٍ يرسب وأيّ شخص ينجح، لكنّ الله سبحانه هو عالم بالخفايا والأسرار والجزئيات، فما هو الغرض من الامتحان الإلهيّ؟

أولًا: التربية؛ فالامتحان الإلهيّ هدفه أنّ الإنسان من خلال خوضه

١. محمد: ٧
٢. النور: ٥٥
٣. الإنسان: ٣
٤. البقرة: ٢٥٦
٥. الملك: ٢

للمغامرات وللمشاكل وللصعوبات يتدرّب وينجح ويتوفّق؛ فالعسكر مثلًا ربما يهاجمهم العدو، فيأمرهم القائد بضرورة أن يقوموا بمناورات عسكرية وتدريب، وإن تسبّب هذا التدريب لهم بالعطش والجوع والصعوبات، فيتسلّقون الجبال مثلًا، لكنه مقدّمة لخوضهم المعركة؛ لأنّ انتصارهم يتوقّف على القيام بتلك المناورات. إذًا؛ الهدف هو التربية، لا لأجل العلم في مقابل الجهل؛ أي إيجاد الأرضية لأداء الوظيفة والكمال، وذلك يشبه المناورات العسكرية للاستعداد للقتال.

وإن كان سبحانه وتعالى أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحقّ الثواب والعقاب، فالبلاء الإلهيّ حتى يرتّب الله سبحانه الثواب والعقاب على أساس العدل الإلهيّ حسب ما يعمل الإنسان.

ثانيًا: الصبر والمقاومة؛ فمن خلال الاختبار يتعود الإنسان على الصبر والمقاومة. والآن في زماننا أيضًا إذا أرادوا أن يربوا الشباب على المقاومة والصبر وتحمل مصاعب ومشاق الحياة، يأخذونهم إلى مخيّمات ثقافية وتربوية وتدريبية.

ثالثًا: التوجّه إلى التوحيد والمعاد؛ في البلاء والمصائب، يتوجّه الإنسان إلى الله تبارك وتعالى من باب إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

رابعًا: امتياز المجاهدين عن غيرهم؛ وخوض الجهاد الأصغر والأكبر والكبير ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

خامسًا: الاعتبار من التاريخ؛ الإنسان يعتبر من الابتلاءات التي حصلت عبر التاريخ ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[2].

سادسًا: التوجّه إلى حقيقة علم الله؛ كما حصل مع نوح عليه السلام عندما قال له

---

١. العنكبوت: ٦٩

٢. الأنعام: ٣٤

الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِاَعْيُنِنَا﴾[1].

أو كما في قول سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: «هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله»، كما هو مذكور في المقاتل.

إذًا؛ تقول الآية الشريفة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰابِرِينَ وَنَبْلُوَا اَخْبٰارَكُمْ﴾[2]. في ميدان الجهاد يُعرف الإنسان الثابت المقاوم المضحّي من الكذّاب المنافق الذي يخاف الموت؛ لذلك، يجعل القرآن الكريم فرقًا بين المسلم الذي هاجر قبل الفتح، وبين المسلم الذي هاجر بعد الفتح؛ فالذين هاجروا إلى المدينة قبل الفتح ، وهم المهاجرون والأنصار، قدّموا التضحيات، بينما أولئك الذين أسلموا بعد الفتح ربما أسلم قسمٌ منهم نفاقًا؛ أي أنّهم استسلموا ولم يُسلموا، كالذين حملوا بغض أمير المؤمنين عليه السلام في قلوبهم، الذين تحدّثنا عنهم سابقًا.

فشل أعمال جبهة الباطل

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قال أيضًا: ﴿اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَشٰاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدٰى لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ اَعْمٰالَهُمْ﴾[3]، إنّ تلك المواصفات هي المواصفات المذكورة في بداية هذه السورة ﴿اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ اَضَلَّ اَعْمٰالَهُمْ﴾[4]، وهي إشارة إلى قيادة مشركي قريش، وطمأنة لجبهة الحقّ والإيمان بأنّ العداء والمكائد والمؤامرات والخطط الماكرة لأعداء الإسلام وأعداء الدين، تبوء بالفشل، ولن تضرَّ الله شيئًا؛ أي لا تضرُّ الدين ولا تضرُّ جبهة الحق، فهذا الكلام يُطمئن جبهة الحق، ﴿هُوَ الَّذِيَ

---

١. هود: ٣٧

٢. محمد: ٣١

٣. محمد: ٣٢

٤. محمد: ١

﴿اَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]، و﴿يُرِيدُونَ اَنْ يُطْفِـُٔوا نُورَ اللّٰهِ بِاَفْوَاهِهِمْ وَيَاْبَى اللّٰهُ اِلَّآ اَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2] لا يتمكّنون من ذلك، والدين يستمر، والله سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿وَسَيُحْبِطُ اَعْمَالَهُم﴾.

إنّ إحباط العمل أخصُّ من إضلال العمل، فإحباط العمل؛ يعني إفشال العمل وإفساد العمل وتضييع العمل بشكل مطلق؛ دنيويًا كان أو أخرويًا؛ فأمّا الدنيوي، فهو يشمل حتى الأعمال التي هي حسب الظاهر صالحة، كما لو قدّموا خدمةً للبشرية المتضرّرة بوقوع زلزال مثلًا أو حريق، وأمثال هذه الأمور، فهي لا تنفعهم يوم القيامة أيضًا. وأمّا أعمالهم الأخروية، فكما لو كانوا يتظاهرون بالإسلام والإيمان ويُصلّون ويصومون، فهذه العبادات أيضًا لا تنفعهم.

عوامل حبط الأعمال

تحدّثنا سابقًا عن عوامل حبط الأعمال واليوم سنذكر نماذج أخرى أيضًا لعوامل حبط الأعمال، فمنها:

أولًا: المنُّ والأذى ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْاَذٰى﴾[3]، فالمنُّ والأذى يبطلان العمل، مثاله لو قام أحد الأشخاص بمساعدة بعض الناس، ثمّ يقول له: أنا ساعدتك! ولولا مساعدتي إيّاك لأصابك كذا وكذا.

ثانيًا: العُجب؛ فالعُجب أيضًا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، ففي يوم من الأيام كان رسول الله ﷺ يحدّث الناس، فقال: «**من قال: سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال:**

١. الصف: ٩

٢. التوبة: ٣٢

٣. البقرة: ٢٦٤

الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجل من قريش: يا رسول الله! إنّ شجرنا في الجنة لكثير، فقال: نعم؛ ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيرانًا فتحرقوها»[1].

ومن ذلك أيضًا: «إياكم والحسد؛ فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ»[2].

ثالثًا: عدم الإبقاء على العمل، الإبقاء على العمل والحفاظ أشدّ صعوبة من نفس العمل، فالإنسان إذا شرع بمشروع، فلابدَّ له أن يستمرّ به ويكمله، فلا يجعل مشروعه مشروعًا ناقصًا، الآية الشريفة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[3]، إطاعة الله تعالى تعني الالتزام بالأحكام الشرعية، وإطاعة الرسول ﷺ، بقرينة تكرار كلمة الطاعة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، هي طاعته في الأوامر الولائية القيادية، فتارةً يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[4]، فتكون إطاعة الرسول هنا في الأوامر الشرعية، وأخرى قد تتكرر كلمة الطاعة مثل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[5]، فالمقصود هنا الإطاعة في الأمور الولائية، ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، تكرار آخر لبطلان العمل.

طبعًا؛ بالنسبة إلى المراد من إبطال العمل هناك أقوال أخرى؛ أحدها أنّ المقصود من ﴿لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ هو النهي عن إبطال العمل العبادي الذي يقوم به؛ أي مثلًا إذا كنت تُصلّي فلا تقطع الصلاة، وإذا كنت صائمًا، فلا تقدم على الإفطار بذرائع واهية. لكنّ هذا القول ليس صحيحًا؛ وذلك لأنّ أحد الأدلّة

١. وسائل الشيعة، ج٧، ص١٨٦

٢. الكافي، ج٨، ص٤٥

٣. محمد: ٣٣

٤. آل عمران: ١٣٢.

٥. النساء: ٥٩

على أنّ المعنى الذي ذكرناه هو الصحيح هو سياق الآية، فسياق الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾؛ يعني إذا لم تطيعوا الرسول ﷺ في أوامره الولائية، فستبطلون أعمالكم، وهذا يعني أنّ عدم الطاعة للقيادة الشرعية يسبّب إبطال العمل.

روايات في بطلان العمل بدون ولاية

ثمّ إنّ هذا الأمر المهم عندنا فيه روايات كثيرة، ففي وسائل الشيعة المجلد الأول، باب ٢٩ تحت عنوان (بطلان العبادة بدون ولاية الأئمة)، وفي المجلد الأول من وسائل الشيعة توجد ١٩ رواية تتحدّث عن بطلان العمل بدون الولاية؛ سواء كانت ولاية محمد ﷺ أو آل بيت محمد عليهم السلام، فكما قلنا: هذه السورة هي سورة التولي والتبرّي وتتحدّث عن الأوامر الولائية. هنا أذكر لكم بعض الروايات في هذا الباب:

الرواية الأولى: نقلًا عن الكليني محمّد بن يعقوب عن محمّد بن يحيى عن محمّد بن الحسين عن صفوان بن يحيى عن العلاء بن رزين عن محمّد بن مسلم - فمن ناحية السند، بإمكاننا أن نقول: صحيحة محمّد بن مسلم - قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام الإمام الباقر عليه السلام يقول: «**كُلُّ مَنْ دَانَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادَةٍ يُجْهِدُ فِيهَا نَفْسَهُ وَلَا إِمَامَ لَهُ مِنَ اللَّهِ، فَسَعْيُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَهُوَ ضَالٌّ مُتَحَيِّرٌ، وَاللَّهُ شَانِئٌ لِأَعْمَالِه**» - يعني أنّ الله سبحانه يبغض أعمال الإنسان الذي ليس لديه وليّ، وإن مات على هذه الحال، مات ميتة كفر ونفاق - «وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ - يعني محمّد بن مسلم - أَنَّ أَئِمَّةَ الْجَوْرِ وأَتْبَاعَهُمْ لَمَعْزُولُونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وأَضَلُّوا فَأَعْمَالُهُمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ- ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ»[1]؛ يعني أنّه يعمل ويقرأ القرآن، ويصلّي، ويجهد نفسه، ويساعد، ولكن ليس عنده قيادة شرعية، وليس

١. الكافي، ج١، ص١٨٤

ملتزمًا بالقيادة الشرعية. وفي الوقت الحاضر، هؤلاء الذين هم ملتزمون بالقيادة الشرعية ربما ملتزمون بالقيادة الشرعية فيما يتعلّق بالتاريخ الماضي فقط، فنلحظ أنّ بعضهم معتقد برسول الله ﷺ وبأهل البيت عليهم السلام، فنسألهم: من يمثّل هذا الخط الآن؟ وإذا بهم يخوضون معركة ضدّ المرجعية الرشيدة، وضدّ نواب بقية الله الأعظم العامّين الصالحين، وضدّ ولاية الفقيه، ويحاولون أن يطرحوا إسلامًا بلا مراجع دين، وإسلامًا بلا قيادة علمائية، ففصلوا بين الإسلام وبين القيادة العلمائية. إنّ هذا الإنسان ليس من المعلوم أنّه يمثّل خطّ أمير المؤمنين، فهو نفسه لو كان في زمن أمير المؤمنين عليه السلام أو يأتيه صاحب العصر والزمان ويتكلّم معه، فإنه أيضًا لن يأخذ بكلامه! واقرؤوا وطالعوا في التاريخ، ستجدون أنّ أول نقطة تركّز عليها جميع الفِرق المنحرفة من بداية غيبة الإمام الحجّة إلى يومنا هذا هي الفصل بين المؤمنين وبين علماء الدين والقيادة العلمائية الصالحة، وهذا الخطر لابدَّ أن ننتبه إليه. وقد انتشرت في الآونة الأخيرة جماعات يملكون قنوات فضائية يقومون بنشر هذا الخطّ من خلالها، ويروّجون لبعض الأفكارالخاطئة ، مدّعين أنّنا لسنا بحاجة إلى علماء الدين، فنستطيع أن نراجع القرآن مباشرةً، ونراجع الروايات ونفهما بأنفسنا، إلا أنّهم في الواقع لا يفهمون. أو يقومون ببثّ الشائعات والأباطيل والأكاذيب والأراجيف المنحطّة ضدّ علماء الدين، أو يسلّطون الأضواء على شخص منحرف يرتدي العمامة مثلًا، ويعمّمون سلوكه وتصرفاته الشاذّة على الكلّ؛ لتضعيف جبهة علماء الدين، فمثل هذا ينبغي أن نكون منه على حذر وفهم.

الرواية الثانية: وهي رواية معروفة أيضًا، أذكرها وأختم بها الكلام، وهي صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: «**ذِرْوَةُ اَلْأَمْرِ** - يعني علو الأمر - **وَسَنَامُهُ** - مثل سنام الإبل؛ المكان المرتفع للإبل - **وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ اَلْأَشْيَاءِ وَرِضَا اَلرَّحْمَنِ، اَلطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ، أمّا لَوْ أنَّ رَجُلًا قام لَيْلَهُ وصامَ نَهارَهُ وتَصَدَّق بِجَميعِ مالِهِ وَحَجَّ جَميعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وِلايَةَ وَلِي اللهِ فَيُوالِيه ويكون**

جَميعُ أعمالِهِ بِدِلالَتِهِ مِنْهُ إلَيْهِ، ما كانَ عَلىَ اللهِ حَقٌّ في ثَوابِهِ ولا كانَ من أهْلِ الإيمانِ»[1].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يُعرّفنا وليّه ويرزقنا محبّة أوليائه واتّباعهم وشفاعتهم بمغفرة الذنوب. وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

١. الوافي، ج٤، ص٩٠

المحاضرة الحادية عشرة

﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِينَ ءٰامَنُوٓا اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا اَعْمٰالَكُمْ ﴿٣٣﴾ اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَهُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا اِلَى السَّلْمِ وَاَنْتُمُ الْاَعْلَوْنَ وَاللّٰهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ اَعْمٰالَكُمْ ﴿٣٥﴾ اِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَاِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ اُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ اَمْوٰالَكُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٣٦-٣٣

في بحثنا في هذه الآيات الشريفة وصل بنا المقام إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا اَعْمٰالَكُمْ﴾، وكنا قد تحدّثنا عن موارد بطلان العمل وأنّ عدم الطاعة والانصياع والاستماع والاتباع للأوامر الولائية لرسول اللهﷺ وللقيادة الشرعية، سبب لبطلان العمل، وذكرنا الروايات في ذلك.

الأقوال الأخرى في بطلان العمل

نريد أن نتحدّث هنا عن بطلان العمل بدون الولاية، فهناك أقوال أخرى حول ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا اَعْمٰالَكُمْ﴾، وهي بنظرنا ليست صحيحة، فمن جملة هذه الأقوال أنّ المقصود: لا تبطلوا أعمالكم بالكبائر، والقول الآخر: لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام.

أمّا القول الأول ، فهو مذهب المعتزلة، فإنّهم يقولون: إنّ الإنسان إذا ارتكب كبيرة تبطل أعماله كلّها، وهذا ليس صحيحًا؛ فنحن عندنا ﴿اِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّاٰتِ﴾[1]، وليس عندنا قاعدة تقول: إنّ السيئات يذهبن الحسنات. نعم؛ لدينا بحث يتعلّق بحبط الأعمال، فبعض الأمراض القلبيّة تُسبّب حبط الأعمال كما هو واضح. ومن جملة تلك الأمراض القلبية، الحسد، والعُجب، والبخل، وأمثال هذه الأمراض. لكن هذا ليس معناه أنّ من يرتكب كبيرة تبطل أعماله، فكلام

---

١. هود: ١١٤

المعتزلة هذا غير صحيح؛ خصوصًا أنّ الكبائر تزول بالتوبة وبالشفاعة «**ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**»[1]. هذا ما يتعلّق بالنقطة الأولى.

وأمّا القول الثاني، وهو (لا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام)، فيشير إلى قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ اَنْ اَسْلَمُوْا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ اِسْلَامَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ اَنْ هَدٰىكُمْ لِلْاِيْمَانِ﴾[2]. ويناقش بأنّ المنَّ بالإسلام بنفسه لا دليل فيه على بطلان العمل، إلّا اللهمّ أن يؤدّي هذا المنّ بالإسلام إلى ترك طاعة الرسول ﷺ، فإذا أدّى إلى ترك طاعة القيادة، فهو يُسبّب إبطال العمل، فالبعض يقومون بإنجازات للإسلام وللأمة الإسلامية وينصرون القيادة الصالحة، ولكن بدلًا من أن يكون هذا عمل منهم في سبيل الله وقربةً إلى الله يجعلونه منّةً على الإسلام وعلى الأمّة الإسلامية وعلى القيادة الصالحة، بأنّنا نحن فعلنا كذا، وفعلنا كذا، فلولا فِعلنا هذا لما وصلتم إلى نتيجة. ثمّ إنّهم يطالبون بِعوَض وكأنّما الأمر غنيمة. طبعًا؛ هذا التصرف مذموم من الناحية الأخلاقية، ولكن إذا أدّى بهم الأمر إلى ترك طاعة القيادة الشرعية، فهذا يسبّب بطلان عملهم، وإلّا فلا.

وقيل: ﴿لَا تُبْطِلُوْٓا اَعْمَالَكُمْ﴾ النهي عن ترك العمل المتقرّب به إلى الله، وقد أشرنا إليه سابقًا؛ مثل ترك الصلاة من دون مبرر، وإبطال الصلاة أو إبطال الصوم أو إبطال الحج أو إبطال أيّ فعل عباديّ إن ابتدأ به الإنسان، فهو غير جائز وحرام بنفسه حرمة تكليفية حتى لو يستأنف العبادة من جديد، اللهمّ إلّا إذا كان لعذر؛ فمثلًا يوجد حريق ولا يستطيع أن يطفئ الحريق إلّا بإبطال الصلاة، فيجب عليه أن يُبطل الصلاة، أو يتوقف إنقاذ نفس مؤمنة على إبطال الصلاة، فيجب إبطال الصلاة، هذه استثناءات وحسب، وتوجد في هذا المقام بحوث فقهية كثيرة لا نريد أن نخوض فيها. وهذا الكلام أيضًا وإن كان صحيحًا في نفسه إلا أنّ الآية الشريفة محل البحث لا تدل على ذلك، فالآية الشريفة لها سياق، وسياقها يدلّ

١. وسائل الشيعة، ج١٥، ص٣٣٤

٢. الحجرات: ١٧

على ترك الأوامر الولائية لرسول الله ﷺ وللقيادة الشرعية ﴿اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا اَعْمَالَكُمْ﴾[1].

القول المختار

فالقول الصحيح هو الذي اخترناه من خلال سياق الآية، وهو ترك الطاعة للأوامر الولائية للقيادة الشرعية المتجسّدة بقيادة رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، أو من يمثّلهم؛ مثل حكم الحاكم، فحكم الحاكم لا يجوز نقضه حتى لمجتهدٍ آخر، هذه فتوى المرحوم المرجع المحقّق الراحل السيّد الخوئي رضي الله عنه، كما في منهاج الصالحين، وعليه فتوى باقي المراجع أيضًا، وفتوى الإمام وفتوى القائد المعظم وفتوى المراجع جميعًا، ومن بين المراجع المعاصرين المرجع الأعلى في النجف الأشرف السيد السيستاني حفظه الله وغيره. وهذا المطلب بديهي، فالأحكام الولائية لا يجوز نقضها؛ لأنّ الرواية تقول: «**الراد عليهم كالراد علينا، والراد علينا كالراد على الله، وهو على حدّ الشرك بالله**»، فهذا امتداد لعدم الطاعة لرسول الله ﷺ وعدم الطاعة للأئمة الأطهار عليهم السلام.

يقول الله تعالى في تتمة الآية: ﴿اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ﴾[2]. المراد من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ زعماء جبهة الباطل والشرك المتمثّلة بمشركي قريش، كأبي سفيان وحزبه. الله تبارك وتعالى يقول عن هؤلاء: إنّهم إذا ماتوا على الكفر وعلى مجابهة الإسلام، كما تحدّثت عنهم الآيات الشريفة ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْاَوْنَ﴾[3]، ﴿يَنْهَوْنَ﴾ بمعنى ينهون الآخرين عن أن يتقرّبوا للإسلام، ﴿وَيَنْاَوْنَ﴾؛ يعني يبعّدونهم عن الإسلام، فهم يبتعدون ويبعّدون الآخرين، هذا هو معنى الصّد عن سبيل الله

---

١. محمد: ٣٣

٢. محمد: ٣٤

٣. الأنعام: ٢٦

تعالى، فعمل هؤلاء لا يحبط في الدنيا فقط، بل أضلّ أعمالهم، وقد قلنا: الحبط أخصّ من إضلال العمل.

وإذا ماتوا على كفرهم، لن يغفر الله لهم؛ أي أنّ الكفر والصّد عن سبيل الله وعداوتهم للرسول ﷺ لا تنفعهم في الدنيا ولا بعد الموت في الآخرة؛ لأنّ أعمالهم تحبط، ولن يغفر الله لهم كما هو واضح.

تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا...﴾

وصلنا إلى الآية الشريفة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1]، تفريعًا على ما مرّ في هذه السورة المباركة من خذلان الله تعالى للمشركين، فالله تبارك وتعالى يبطل أعمالهم ويمنون بضياع أعمالهم وعثرتهم وهلاكهم، تقول الآية الشريفة: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾[2]، تعسًا: يعني يعثرون ويهلكون ويخرّون على وجوههم، وهو الوعيد لهم بهلاكهم كالأقوام السابقين ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[3]، إنّ الله يدمّرهم. وتفريعًا على وعد الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[4]. وتفريعًا على أمر المؤمنين بالقتال بأنّه يجب مجابهة هؤلاء وقتالهم. وتفريعًا على قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[5]؛ يعني أنّ الله يرعى المؤمنين بولايته الخاصّة ويثيبهم الجنّة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾[6]. وتفريعًا على مواصفات

---

١. محمد: ٣٥

٢. محمد: ٨

٣. محمد: ١٠

٤. محمد: ٧

٥. محمد: ١١

٦. محمد: ١٢

المنافقين، وتفريقًا على سُنّة الله في البلاء ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّٰابِرِينَ﴾[1]. تفريقًا على هذه الأمور كلّها، يصدر الله تبارك وتعالى لنا مجموعة تكاليف لجبهة الإيمان وجبهة الحقّ، من هذه التكاليف: ﴿فَلاٰ تَهِنُوا﴾، النّهي عن الفتور والخواء والتخلخل وسيطرة اليأس والقنوط والكآبة داخل جبهة الإيمان، فهذا حرام تكليفًا، ويجب الابتعاد عنه، فلاحظوا في أثناء غزوة أحد بعدما تركوا الجبهة لجمع الغنائم، وفرّت مجموعة من المقاتلين من الجبهة، واستُشهد من استشهد وجُرِح من جُرِح، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله والسّيدة الزهراء عليها السلام تضمّده، والشيطان قد صاحَ: إنّ النبيّ قُتل، فانتشرت الإشاعة بأنّ النبيّ قُتل، ونزلت الآية الشريفة ﴿وَمٰا مُحَمَّدٌ اِلّٰا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ اَفَاِئْنٰ مٰاتَ اَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلٰى اَعْقٰابِكُمْ﴾[2]، في هذه الأجواء، الأجواء التي تسيطر فيها حالة الضعف والفتور والكآبة والحزن والانكسار على جبهة الحقّ، يصدر الله تبارك وتعالى أمرًا لنبيّ الإسلام محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله أن اجمع هذه القوى المتبقّية من المجروحين ومن الباقين من الجنود الأحياء، واذهبوا إلى حمراء الأسد واستعدّوا للقتال مرّةً أخرى، ونزلت الآية الشريفة: ﴿وَلاٰ تَهِنُوا وَلاٰ تَحْزَنُوا وَاَنْتُمُ الْاَعْلَوْنَ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]؛ يعني لا يجوز لكم الفتور والتوقّف والضعف والحزن والكآبة وأنتم الأعلون؛ أي الغالبون، بشرط الإيمان والاعتماد على الله تبارك وتعالى. وهكذا كان الأمر، فعندما ذهبوا إلى حمراء الأسد، رأى جيش أبي سفيان وجماعته من خلال المتغلغلين استعدادًا جديدًا، فانهزموا إلى مكة وظنّوا أنّه قد جاءت قوّة جديدة من المدينة إلى المسلمين، وهذه الآية تتحدّث عن الأمر نفسه، فتقول: طالما أنّ الله معكم ينصركم ويخذل الكفّار، كما مرّ علينا في هذه السورة، وأنتم على استعداد لانتصار نهائي وتريدون

---

١. محمد: ٣١

٢. آل عمران: ١٤٤

٣. آل عمران: ١٣٩

أن تنتصروا وقدّمتم ضحايا، وشهداء، فالله سبحانه يقول: إنّه لن يُضيع أعمال الشهداء ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾، وقدّمتم وتقدّمتم في جبهة الحقّ ومواجهة الباطل، إذًا؛ لماذا يصيبكم فتور وضعف وتراجع إلى الوراء؟! لا يجوز لكم ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾[1]، فمن هذا المنطلق، لا يجوز أن تدعوا إلى السلم، فالدعوة إلى السِّلم هنا بعد حالة الاسترخاء والراحة المؤدّية إلى الضعف، هي سقوط في ميدان المنافقين، فهنا تحذير من مكائد المنافقين؛ حيث يحاول المنافق دائمًا إيجاد الفتور والانتكاسة في جبهة الحقّ، كأن يقول للمؤمنين: لابدَّ أن تستريحوا من القتال مدة من الزمن، وأمثال ذلك حتى يحصل الفتور.

المراد بالدعوة إلى السِّلم في الآية

إنّ هذه الآية الشريفة تقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾[2]، والمراد بالسِّلم هنا ليس الصلح المشرّف؛ بل المراد منه الاستسلام، فتقول: أنتم على وشك الانتصار النهائي فلا تستسلموا. والاستسلام يختلف عن التهدئة، فالهُدنة لمصلحة الإسلام والمسلمين، وهي من خيارات ولي الأمر والقائد الشرعيّ، لكنّ الهُدنة ليست بمعنى الاستسلام؛ فالاستسلام الناشئ من الفتور والكآبة والضعف حرام، خصوصًا أنّكم قاب قوسين أو أدنى من الانتصار النهائي، فلماذا يصيبكم الفتور والضّعف؟ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾؛ يعني أنّ الفتور يسبّب الدعوة إلى السِّلم بمعنى الاستسلام.

﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[3]؛ أي أنتم الغالبون وأنتم المنتصرون، كقوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾[4]؛ يعني أنّك أنت الغالب، أو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

---

١. محمد: ٣٥

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

٤. طه: ٦٨

﴿مَعَكُمْ﴾؛ أي جعلكم غالبين.

عدم جواز الاستسلام

ثمّ هناك سؤال في هذا الخصوص؛ وهو: الوهن دليل على أي شيء؟

الجواب: هو دليل على الاستسلام، والاستسلام دليل على الهزيمة. أما إذا لم يكن هناك ضعف وفتور، فإنّكم تكونون أقوياء، والقوّة سبب للانتصار والغلبة، والله معكم ويساعدكم، وطمأنكم بالمساعدة والانتصار، وهذه المعيّة - كما قلنا - معيّة الرعاية ومعيّة الإعانة والنصرة ومعيّة الرحمة الخاصّة الإلهيّة، وهي غير المعيّة القيمومية، فتختلف مع ﴿هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[1]، وتختلف أيضًا مع المؤمنين ومع المتّقين؛ فمع المؤمنين تكون بالرحمة الخاصّة وباللطف الإلهيّ، لكن هنا ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ تعني: الله ينصركم، فاعتمدوا على قوّة الله.

رحم الله الإمام الراحل؛ حيث كان قد قال مقولته العجيبة في السنوات الأولى من انتصار الثورة بعد أن اقتحم الطلاب الجامعيون من خطّ الإمام وكر التجسس الأمريكي أو ما يُسمّى بالسفارة الأمريكية. في حينها أصاب الذعر الكثير من الجماعات من هنا وهناك، وأخذوا يدعون إلى التفاوض مع أمريكا في تلك الظروف، ونحن كنّا في بداية الثورة، ولم تكن لدينا قوة عسكرية ظاهرية، فتكلم الإمام بكلمة تاريخية عجيبة قال فيها: «إنّ أمريكا لا تستطيع أن ترتكب أيّ حماقة». فلماذا تكلّم الإمام بهذه الكلمة؟ كما أنّ هذه الكلمة لها تكملة أخرى، وعادةً لا يذكرونها، فما هي هذه التكملة؟

الإمام ﷺ قال: «إنّ جميع القوى في العالم هي قوى وهميّة اعتبارية، إنّ القوّة الحقيقية هي قوّة الله، إذًا؛ أمريكا لا تستطيع أن ترتكب أيّ حماقة، أمريكا هي الشيطان الأكبر». هذا اعتماد على الله، فالآية الشريفة هنا تقول: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛

---

١. الحديد: ٤

أي أنّ الله ينصركم، ويرعاكم، إنّ الله مولاكم، وولاية الله ولاية خاصّة لكم، إذًا لماذا تدعون إلى الاستسلام؟!

القائد المعظّم السيّد الولي الإمام الخامنئي ﷾ قد سار أيضًا على نهج المقاومة ومجابهة أمريكا والصهيونية، ولم يتنازل بمقدار ذرّة عن هذا المنهج، فأنا أذكر في زمن الولاية الثانية لرئاسة المرحوم الشيخ الهاشمي الرفسنجاني، قال وزير الإرشاد آنذاك - وهو المخوّل من قبل الشيخ الهاشمي بكثير من الأمور - عطاء الله مهاجراني الذي هو الآن موجود في لندن: لابدَّ من أن تُمرّر ولاية الشيخ الهاشمي - ولو كان الأمر خلافًا للدستور - دورة ثالثة حتى يستطيع الشيخ الهاشمي أن يُنجز برنامجه الذي يتعلّق بالتنمية الشاملة، وإضافةً إلى ذلك أن نجري مفاوضات مباشرة مع أمريكا، وننهي هذا الملف الأمريكي، وطُرح هذا البحث بشكل جدّي في المجلس الأعلى لأمن الجمهورية الإسلامية. السيّد القائد عندما اطّلع على الأمر، قال لهم: ما لم يتوافق مع الدستور فلا يجوز، أمّا أن تتحدّثوا لمجلس الأمن القومي للجمهورية الإسلامية عن إجراء المفاوضات مباشرةً مع أمريكا - كان هذا الاقتراح ذاك الوقت بشكل سرّي -، فهذا بمعنى الاستسلام والتنازل عن المبادئ، وهذا لا يجوز، واعتبِروه طريقًا مسدودًا، وابحثوا عن حلول أخرى لا تؤدّي إلى التنازل والاستسلام لأمريكا. هذا كان كلامه.

وأذكر لكم نماذج أخرى من هذا القبيل، فأحمدي نجاد في الولاية الثانية له كان عنده برنامج للتفاوض والتنازل، على الرّغم من الشعارات التي كان يرفعها ضدّ أمريكا والصهيونية، وهو من الناحية العمليّة يعني الاستسلام لأمريكا وبعض الخطّ الغربي، كان متغلغلًا فيه، فأوعز إلى بعض المسؤولين الكبار أن يكتبوا رسائل سريّة للسيّد القائد بأنّ الوضع الاقتصادي في الجمهورية الإسلامية متأزّم بسبب العقوبات ووصل إلى طريق مسدود بنحوٍ لا يمكن التخلّص منه إلّا بأن نجري المفاوضات، وهذا يعني أن تكون النتيجة هي أنّنا ننتصر وهم ينتصرون على قاعدة لا غالب ولا مغلوب، فنتنازل وهو نوع من أنواع التعامل. وقيل إنّ

بعضهم قد كتب رسالة ورسالتين وثلاث أو أربع للسيّد القائد، فاستدعاهم السيد القائد حفظه الله، وهذه القضية لم تبث على شاشات التلفاز وفي الإعلام، استدعى جميع هؤلاء المسؤولين الأساسيين في الحكومة في الولاية الثانية لأحمدي نجاد، ولا أريد أن أذكرهم بالأسماء، وقال لهم: ماذا لديكم؟ فأخبروه بأنّ الحظر الاقتصادي خانق، ولا يمكن أن تتحرّك السفن ولا يُسمح لها أن تُبحر؛ فماذا نصنع والبلاد على وشك أن تتوقف عجلة الاقتصاد فيها؟ فتصدير النفط سوف يصل إلى الصفر، ويصبح عندنا حالة شلل مائة بالمائة في الاقتصاد وغير الاقتصاد، فليس لدينا طريق إلّا التفاوض المباشر مع أمريكا.

قال لهم السيّد الولي القائد: في زمان حرب صدام، كانوا يضربون السفن، والآن السفن محمّلة بالنفط ولا تستطيع أن تبحر وتبيعه، اذهبوا وابحثوا عن حلول، وتوسّلوا ببقية الله المنتظر صاحب الأمر والزمان سوف تجدون حلًا بلا شك، ثمّ ذكر لهم هذا الدعاء وهذا التوسّل المعروف: «**يا مَنْ إذا تَضايَقَتِ الأُمورُ فَتَحَ لها بابًا لمْ تَذْهَبْ إلَيْهِ الأوهامُ، فَصَلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْتَحْ لأُموري المُتَضايِقةِ بابًا لمْ يَذْهَبْ إليْهِ وَهْمٌ يا أرحَمَ الرَّاحِمين**». هذا الدعاء موجود في كتاب قصص الأنبياء لقطب الدين الراوندي في ذيل دعاء الفرج، وهو من الأدعية المجرّبة في الشدائد والملمّات، وكان السيّد القاضي الكبير وبعده المرحوم آية الله بهجت والمرحوم السيّد الكشميري ملتزمين بقراءته على أنه دعاء الحجّة. وفي حرب تموز حرب الثلاثة والثلاثين يومًا، كان هذا الدعاء قد عُمِّم على المقاتلين في الجبهة؛ إضافةً إلى زيارة عاشوراء ودعاء الجوشن الصغير والتوسلات الخاصّة بالحجة، وهو سبب الانتصار على ما يقول قادة حزب الله، ومنهم القائد الكبير الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله حفظه الله.

إنّ السيّد مرشد الثورة الإسلامية يرى أنّ المقاومة هي رمز الانتصارات الكبرى ورمز التطوير والتقدّم، والضريبة التي يدفعها الإنسان بالاستسلام أكثر من الضريبة والمشاكل التي يدفعها من خلال المقاومة. والكلام يطول حول

هذا الأمر.

إلى أن يقول تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَاَنْتُمُ الْاَعْلَوْنَ وَاللّٰهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ اَعْمٰالَكُمْ﴾[1]؛ أي لم ولن يترككم في أعمالكم وحدكم وترًا بدون تسديد؛ يعني لن ينقص أعمالكم بل يكملها لكم. إذًا؛ لماذا تدعون للاستسلام؟! فإنّ الدعوة إلى الاستسلام لا تجوز.

إذًا؛ في هذه الآية الشريفة عدّة مطالب:

المطلب الأول: حرمة الوهن والفتور ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾.

المطلب الثاني: عدم جواز الدعوة إلى الاستسلام بذريعة السّلم والراحة ﴿وَتَدْعُوْا اِلَى السَّلْمِ﴾.

المطلب الثالث: ﴿وَاَنْتُمُ الْاَعْلَوْنَ﴾، أنتم الغالبون.

المطلب الرابع: ﴿وَاللّٰهُ مَعَكُمْ﴾، الله ينصركم.

المطلب الخامس: ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ اَعْمٰالَكُمْ﴾؛ أي لن ينقص أعمالكم بل يكملها. وكلّ جملة من هذه الآية دليل على الجملة الأخرى ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ اَعْمٰالَكُمْ﴾ لن ينقصها؛ لأنّه معكم، ولأنّه معكم ﴿وَاَنْتُمُ الْاَعْلَوْنَ﴾ أنتم الغالبون، ولأنّكم أنتم الغالبون، فلا تدعوا إلى الاستسلام والسّلم، وكونوا على استعداد فلا يصيبنّكم الوهن؛ بل يجب إنتاج القوّة وتحويل الضعف إلى قوّة.

دعوى المنافاة بين آية رفض السّلم وآية قبوله

ربّما يقول البعض: إنّ هذه الآية الشريفة تتنافى مع الآية الشريفة في سورة الأنفال، وهي قوله تعالى: ﴿وَاِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَاِنْ يُرِيدُوْٓا اَنْ يَخْدَعُوكَ فَاِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِيٓ اَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ

---

١. محمد: ٣٥

﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ...إلخ[1]، فهل يوجد تنافٍ بينهما فعلًا كون هذه الآية تدعو إلى قبول السلم إذا دعا إليه الكافر المحارب؟

الجواب: لا تنافي بين الآيتين، ووجه عدم التنافي أنّ هذه الآية في هذه السورة المباركة (محمد) التي بدأنا بها تفرض أنّنا نحن ندعو إلى الاستسلام، أما الآية (٦١) من سورة الأنفال، فهي تفرض أنّ جبهة الإيمان في موقع القوة، وليست في موقع الضعف، فإذا دعا الكافر إلى السِّلم من موقع ضعفهم وقوتنا، فحبذا بالسِّلم، والمقصود أنّ الكافر هو الذي يستسلم، وليس أنت المؤمن، فلا منافاةَ بين هذه الآية وتلك الآية كما هو واضح وبيّن. ومن هنا؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته لمالك الأشتر: «**لاَتَدْفَعَنَّ صُلحًا دعاكَ إليه عَدُوك ولله فيه رِضى**». فالعدو إذا كان يدعو إلى الصلح الحقيقيّ، وكان هذا الصلح فيه رضا الله تبارك وتعالى، فلا ترفضه. لماذا؟ لأنّ في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنًا لبلادك.

وهذا الكلام لأمير المؤمنين يتعلّق بأصل الصلح بما هو صلح، فالصلح جيّد، كما أشارت إليه الآية التي بدأنا بها في تفسير السورة المباركة ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[2]، فهو أحد أسباب وضع أوزار الحرب. إنّ فلسفة الجهاد إنهاء حالة الحرب وإيجاد الصلح العالمي، وتحقيق الصلح على ضوء العدل والأمن العالمي إنما يكون من خلال الجهاد والمقاومة وامتلاك القوة، فالجهاد والمقاومة جسر لتحقيق هذا الصلح. وقد وضع الإسلام أحكامًا خاصة بالهدنة والصلح بحسب تقدير المصلحة التي يراها إمام المسلمين للأمة.

النهي عن حبّ الدنيا

المطلب الآخر: تقول الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا

---

١. الأنفال: ٦٣-٦١

٢. محمد: ٤

﴿وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[1]. هذه الآية بيان لعلة دعوة البعض للتنازل والاستسلام. لماذا يدعون للاستسلام ولا يريدون خطّ المقاومة؟ يقول: لأنّهم في الواقع مأخوذين بحبّ الدنيا، والآية تؤكّد على أن لا يأخذكم حبّ الدنيا والاعتماد عليها لتتركوا الجهاد ومواجهة العدو بسببها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾. وتؤكّد على أنكم إذا آمنتم بأنّ الله ينصركم واتقيتم الله في نصرة دينه وعدم التنازل عن المقاومة، يؤتكم أجوركم، فالله تعالى يثيبكم ولا يسألكم أموالكم؛ فهو سبحانه لا يريد أن يأخذ أموالكم منكم، وهو تأكيد على هذا الأمر.

مراحل حياة الإنسان

توجد آية أخرى حول هذا المطلب تشرح لنا الدنيا وتقول: ﴿اَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ﴾[2]. العلامة الطباطبائي﵀ ينقل في الميزان عن الشيخ البهائي أنّ هذه الآية تشرح مراحل حياة الإنسان، فحياة الإنسان تبدأ بالطفولة: ﴿اَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾، ثمّ ﴿لَهْوٌ﴾ في زمن الصّبا، ﴿وَزِينَةٌ﴾ في زمن الشباب، ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾ في الزمن الذي يصل فيه الإنسان سنّ الكهولة، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ﴾، فعندما يكبر ويطعن في السنّ يحسب الأموال كذا والسلطة كذا والشُّهرة كذا، وهذا الأمر مهم له. هذه هي الأدوار الخمسة للدنيا المتمثّلة في الشهوة، والثروة، والسلطة، والشهرة، والقوّة. يقول الله تبارك وتعالى: إنّ هذه المراحل الخمسة ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[3]، مثل الغيث والمطر الذي يُعجب به الكفار؛ أي يعجب الزرّاع، ﴿ثُمَّ

---

١. محمد: ٣٦

٢. الحديد: ٢٠

٣. نفس المصدر

يَهِيجُ فَتَرٰىهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطٰامًا وَفِي الْاٰخِرَةِ عَذٰابٌ شَدِيدٌ﴾[1]، في الآخرة، هذه هي الدنيا التي يركع لها الإنسان، تتحوّل إلى عذابٍ شديدٍ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوٰانٌ﴾[2]، وعوضًا هذه الدنيا توجد مغفرة من الله ورضوان من خلال الجهاد، ﴿وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰٓا اِلَّا مَتٰاعُ الْغُرُورِ﴾[3]، لا تغرّنكم الدنيا، ﴿سٰابِقُوٓا اِلٰى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ السَّمٰٓاءِ وَالْاَرْضِ اُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءٰامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهٖ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰٓاءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4]، إلى أن يقول الله تعالى: ﴿وَاِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ اُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ اَمْوٰالَكُمْ﴾ قد يكون الباعث للسّلم والاستسلام هو الدعوة إلى حبّ الدنيا وحبُّ الاحتفاظ بالأموال التي من المفترض أن تُنفق في الجهاد، فالله تبارك وتعالى يؤكّد على أنه لكي تكون عندكم تقوى في الحضور في ميدان الجهاد وتقوى في إنفاق أموالكم، فإنّه سبحانه لا يريد أن يأخذ أموالكم كلّها، فالنهي عن الوهن والأمر بالتوجّه إلى علوّهم وغلبتهم، دعوة إلى الإيمان والتقوى، والدعوة إلى التقوى من خلال الكف عن السِّلم والاستسلام، فهذا نوع من التقوى، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ اَمْوٰالَكُمْ﴾؛ لأنّه ليس بحاجة إليها، وإذا أمركم الله بالإنفاق في سبيله فذلك لمصلحتكم.

التقوى خلاصة خير الدنيا والآخرة

التقوى كلمة مختصرة تختصر في حروفها خير الدنيا والآخرة؛ لذلك، فإنّ خطيب الجمعة يدعو المؤمنين في الخطبتين إلى تقوى الله باعتبار أنّ صلاة الجمعة عبادة من اللازم أن ينبّههم فيها على تقوى الله؛ أي اتقوا الله في المصاديق المتنوعة؛ اتقوا الله في لقمة الحلال، واتقوا الله في الحضور في

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

٤. الحديد: ٢١

ميدان الجهاد، واتقوا الله في الكفّ عن المعاصي، واتّقوا الله في إقامة الدين، واتقوا الله في الصغيرة والكبيرة، حتى فلسفة الصيام هي التقوى. هذه التقوى التي تجمع خيرات الدنيا والآخرة، الله تبارك وتعالى يذكّرنا بها في آيات عديدة.

وأنا سأذكر من خلال هذه الآيات اثنتي عشرة خصلة وصفة للتقوى، ويوجد أكثر من هذا العدد، ولكن من باب التذكير لنفسي وللمؤمنين، فأقول:

أولًا: المدح والثناء في القرآن ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

ثانيًا: الحفظ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[2].

ثالثًا: التأييد والنصر ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3]، هذه معيّة النصرة.

رابعًا: النجاة في الشدائد والرزق الحلال ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4].

خامسًا: صلاح العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[5].

سادسًا: غفران الذنوب ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[6].

سابعًا: محبّة الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[7].

---

١. آل عمران: ١٨٦
٢. آل عمران: ١٢٠
٣. النحل: ١٢٨
٤. الطلاق: ٢-٣
٥. الأحزاب: ٧١-٧٠
٦. الصف: ١٢
٧. آل عمران: ٧٦

ثامنًا: قبول الأعمال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

تاسعًا: الإكرام والإعزاز ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

عاشرًا: البشارة عند الموت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٣].

حادي عشر: النجاة من النار ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٤]، إلى أن يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٥].

ثاني عشر: دخول الجنة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٦]، فالجنة أعدّت للمتّقين. إذًا؛ هذه الآية هنا تأكيد أيضًا على ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[٧].

سنتحدث - إن شاء الله تعالى - عمّا بقي من الآية والآيات الشريفة المتبقية في الجلسة القادمة والأخيرة. وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

---

١. المائدة: ٢٧
٢. الحجرات: ١٣
٣. يونس: ٦٤-٦٣
٤. مريم: ٧١
٥. مريم: ٧٢
٦. آل عمران: ١٣٣.
٧. محمد: ٣٦

المحاضرة الثانية عشرة

﴿إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1].

---

١. محمد: ٣٨-٣٦

انقسامات المجتمع في صدر الإسلام

في نهاية المطاف في هذه السورة المباركة، بات واضحًا الاصطفاف بين جبهة الحقّ والإيمان من ناحية، وجبهة الباطل والكفر من ناحية أخرى، وإذا أردنا أن نذكر باختصار جدًا انقسامات المجتمع الإسلامي آنذاك في صدر الإسلام، فهو كان ينقسم إلى ما يلي:

االأول: قيادة رسالية تتمثّل بشخصية الرسول القائدﷺ، والثُّلّة المؤمنة من القيادات من المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي المقابل قيادة جبهة الكفر ومشركي قريش المتمثّلة بأبي سفيان ومن لفّ لفّه من رؤوساء قريش ورؤساء القبائل الأساسيين.

الثاني: المنافقون، فالمنافقون بحسب الظاهر يحسبون على جبهة الإسلام، لكنّهم بحسب الواقع والحقّ مع جبهة الكفر ومع جبهة الباطل. والمنافقون أيضًا بدورهم ينقسمون إلى أقسام: قيادة نفاق، وطلائع قيادية، وجمهور منافق، كما أنه هناك جمهور تابع لجبهة الإيمان، إضافةً إلى القيادة والمجموعة القيادية الأساسية والقاعدة من المؤمنين الصادقين. لكن يوجد هناك جمهور، وهذا الجمهور يحتاج دائمًا إلى تبيين الحقائق؛ فهذا الجمهور يتأثّر بكلام

الطلائع الرسالية لجبهة الحقّ، ويتأثّر بكلام قيادات ورؤوس النفاق والمتنفذين من جماعة النفاق، فهم في مهبّ الريح؛ فتارةً مع الحقّ، وتارةً أخرى ضد الحقّ، وإذا صحّ التعبير نوضّح المطلب عن طريق الألوان، فالبعض لونه أبيض وهذا لون الإيمان، والبعض لونه أسود وهذا لون الباطل ولون الكفر، والبعض لونه أصفر متمايل إلى الأسود وهذا لون النفاق، لكنّ البعض لونه رماديٌّ، وهذا اللون الرماديُّ في المجتمع هو السواد العظم في المجتمع حتى في صدر الإسلام، فأصحاب اللون الرماديّ هم الذين يتأثّرون بالقيادات وبالطلائع وبأصحاب النفوذ، وأصحاب الثروة، وأصحاب السلطة، ويتأثّرون بالإعلام، يتأثّرون بعوامل متعددة.

فجبهة الحقّ والإيمان، إذا استطاعت أن تحتوي هؤلاء أصحاب اللون الـرماديّ، وتجعلهم يحضنون الإيمان والجهاد، ويتحلّون بالقيم الأخلاقية الرائدة، فالنصر يكون حليفًا لجبهة الإيمان. وإذا حصل عكس ذلك، يكون في النصر خلل، فالله تبارك وتعالى عندما يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فيقول له: ﴿هُوَ الَّذِيٓ اَيَّدَكَ بِنَصْرِهٖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ليس بالضرورة أن يكون المؤمنون الأكثرية الساحقة من المجتمع، فالمؤمنون هم طلائع الرسالة مثلًا، حتى إنّكم ترون في الصدر الأول أنّ القرآن الكريم يقسّم هؤلاء «٣١٣» من أصحاب بدر إلى قسمين: ﴿وَاِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ اِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ اَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ اَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، و﴿اِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[3]، ثمّ إنّ القسمين لأصحاب بدر انقسما في زمن أمير المؤمنين عليه السلام إلى ثلاثة أقسام:

- قسم قليل مع أمير المؤمنين عليه السلام.

---

١. الأنفال: ٦٢

٢. الأنفال: ٧

٣. الأنفال: ٥

- قسم مع الناكثين ومع القاسطين ومع المارقين.
- قسم ثالث حيادي؛ نتيجة الغباء والحماقة وعدم البصيرة؛ مثل أبي موسى الأشعري، الذي عندما دعوه ليقاتل في جبهة الحقّ والنهوض ضدّ الناكثين، أخذ يصف أمير المؤمنين عليه السلام بأوصاف عالية؛ بأنّه إمام هدىً وحقّ، لكن هناك إشكاليّة صغيرة عند هذا الإمام، فإنّه لا يجوز القتال ضدّ أهل القبلة، ففي زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن اقتتال ضدّ أهل القبلة، وهؤلاء أهل القبلة أيضًا، فنحن نقف موقف الحياد. أو الزبير بن العوام مع أنّه كان - كما يذكر السيوطي في الدر المنثور عنه - يقول: كنّا نقرأ هذه الآية ردحًا من الزمن ولا نفقهها ﴿وَاتَّقوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنكُم خاصَّةً﴾[1] حتى وقع الاقتتال، وأصحاب بدر انقسموا إلى قسم مع علي وقسم ضدّ علي، فسقط في الفتنة.

كيفية انتصار الإسلام

الشاهد في ذلك أنّ الإسلام دائمًا ينتصر بالقيادة الصالحة أوّلًا، وبالطلائع الرسالية الذين يقفون إلى جانب القائد ثانيًا؛ أي المجموعة القيادية أو (مؤسّسة القائد) إذا صحّ التعبير. وثالثًا بالكوادر المؤمنة الواعية المجاهدة المضحّية الحاضرة في الساحة التي تريد للإسلام أن يتقدّم، وهؤلاء لا يمثّلون بالضرورة أكثرية المجتمع؛ بل ربما يكونون أقليّة في المجتمع، والأكثرية الساحقة لغيرهم، ولكن كلّما كانت الصفوف بين المؤمنين المجاهدين الواعين مع القيادة أكثر، فاستحكام الانتصار يكون أكبر ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذينَ يُقاتِلُونَ فى سَبيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيانٌ مَرصُوصٌ﴾[2].

مع هذه المقدّمة ندخل في تفسير الآية، فالآية في نهاية المطاف تخاطب

١. الأنفال: ٢٥

٢. الصف: ٤

أصحاب اللون الرماديّ من المجتمع، وهم الأكثرية الساحقة، فالخطاب ليس للمؤمنين الخُلّص المضحّين، والخطاب ليس موجّهًا لجبهة الباطل الذين هم مستمرون بباطلهم، وليس موجّهًا لرؤوس النفاق، وإنّما هو للقاعدة لقاعدة الناس، فالآيات في النهاية تدعو إلى التضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وأنّ هذا أفضل لهم وأفضل للمجتمع إذا كانوا يعون. ثم تحذّرهم في النهاية من أنّ الإسلام ليس قائمًا بالأشخاص، فإن لم تكونوا أهلًا لنصرة الدين ولحمل هذه المسؤولية، فإنّ الله يستبدل بكم أقوامًا آخرين ينصرونه. هذه خلاصة السورة ونهاية المطاف فيها.

صفة أكثرية الناس

انتبهوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ اَمْوَالَكُمْ﴾[1]، ففي هذا المقام أذكر كلام سيّد الشهداء عليه السلام يخاطب أهل الكوفة قائلًا: «النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُون». فالإمام يقصد بهؤلاء الناس الأكثرية، والأكثرية تعني أصحاب اللون الرماديّ، فقد قلنا: عندنا لون أبيض ولون أسود، والأبيض جبهة الحقّ، والأسود جبهة الظلام، والأصفر المتمايل إلى الأسود جبهة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، لكنّ الأكثرية الساحقة من المجتمع لونها رماديّ، مذبذبون يريدون أن يعيشوا وتسير أمورهم في الحياة بعيدين عن منطق الإيمان ومنطق الجهاد والتضحية والفداء وأمثال ذلك، فالآية تخاطب هؤلاء ﴿وَلَا يَسْئَلْكُمْ اَمْوَالَكُمْ﴾، إنّ الله تبارك وتعالى لا يريد - أيّها الناس أيّها الجمهور - أن يأخذ كل أموالكم عندما يأمركم بالزكاة أو الخمس أو الإنفاق في سبيله؛ فأولًا: هي ليست لكم؛ بل هي حقٌّ لغيركم. وثانيًا: الإنفاق والخمس والزكاة ومساعدة الفقراء هو لصالحكم، فالله سبحانه لا يريد

---

١. محمد: ٣٦

أن يأخذ جميع أموالكم. بالمناسبة؛ إنّ الإنسان المؤمن المتعبّد حتى لو يأمره الله تبارك وتعالى بتقديم جميع أمواله في سبيل الله، فهو مستعدّ أن يقدّمها ويقدّم روحه ونفسه معها.

قصة كاظم كربلائي

في المقام أذكر لكم قصة واقعية ومؤثّقة: أحد الأشخاص من أراك (قصبة العراق) تُسمّى (عراق إيـران)، اسمه (كاظم كربلائـي)، كان في زمن آية الله العظمى البروجردي، وهو أمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، أتى إلى أحد المزارات، ففجأةً رأى نورًا يشعُّ في الآفاق، فأصبح قادرًا على تلاوة القرآن والتعرّف على الآية القرآنية وكان يرى في الآية نورًا إلهيًّا، وهو أصلًا لا يعرف القراءة والكتابة. فجاءوا به إلى المراجع، ومنهم السيّد البروجردي، وهو من كبار المجتهدين آنذاك، فأخذوا يمتحنونه، فكانوا يجمعون الآية مع رواية مثلًا، ومع أنّ الروايات هي نور أيضًا، لكنّه يقول: هذه تختلف عن الآية القرآنية، فهذه ليست بآية، فحتى لو أضافوا كلمة ضمن الآية فهو يعرفها ويميزها عن الآية، وكذلك إذا أنقصوا كلمة، كان يعرف ذلك أيضًا، ويسألونه عن ظهر الغيب فيحيب، فهو حافظ للقرآن. لقد انفتحت له القدرة الباطنية مع أنّه أمّيّ، فكيف حصل على هذه القدرة؟ سألوا عن حياته، فكان إضافةً إلى أنّه ملتزم بالحلال والحرام، يزكّي أمواله، لكنّه كان قد فهم مسألة الزكاة بهذه الصورة: عُشر أو نصف العشر له، وتسعة أعشار وباقي الأموال يدفعها زكاة؛ أي تسعة من عشرة يدفها زكاة ويُبقي واحدًا لنفسه، فكان قد فهم المسألة خطأ، لكنّه مع ذلك مستسلم للأمر متعبّد بالوظيفة الشرعية، فيقول: طالما عليّ أن أقدم تلك الأموال فلابدَّ أن أقدّمها. كان مخلصًا وعصاميًا، ففُتحت الآفاق له. وتلك القصة وثّقت في كتاب ونشرتها بدايةً مؤسّسة (في طريق الحقّ)، وهي قصة معروفة جدًا أخذها السيّد نواب صفوي إلى مصر.

الإنفاق في سبيل الله وصفة البخل

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ اَمْوَالَكُمْ ۝٣٦ اِنْ يَّسْـَٔلْكُمُوْهَا﴾[1]، الله تبارك وتعالى لا يريد أن تقدّموا جميع أموالكم، ﴿فَيُحْفِكْكُمْ﴾؛ أي: ويَصرُّ عليكم بالسؤال ويتشدّد عليكم، إحفاء: يعني شدّة وتشدّد بأنّه لابدّ أن تقدّموا جميع أموالكم، ﴿تَبْخَلُوْا﴾، أنتم غير ذاهبين لتقديم أموالكم، فالأموال عزيزة عليكم، ﴿وَيُخْرِجْ اَضْغَانَكُمْ﴾ أحقادكم نتيجة بخلكم، ﴿هٰٓاَنْتُمْ هٰٓؤُلَاۤءِ﴾[2]، (ها) للتنبيه والتأكيد، لماذا تبخلون؟ ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾، الإنفاق في سبيل الله لا يعني إعطاء جميع الأموال؛ بل بعضًا من الأموال، ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَّبْخَلُ﴾، قسمٌ منكم يبخلون، وقسم آخر لا يبخلون؛ كالمهاجرين والأنصار الذين ﴿وَيُؤْثِرُوْنَ عَلٰٓى اَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3]، هم بحاجة، ولكن يؤثرون على أنفسهم، ﴿وَمَنْ يَّبْخَلْ فَاِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَّفْسِهٖ﴾[4]، هذا المسكين يضرُّ نفسه بالبخل، والبخل ليس بصالح الإنسان، ﴿وَاللّٰهُ الْغَنِيُّ﴾، لو تلتفتون إلى أنّ مصدر الثروة هو الله الغني المطلق، ﴿وَاَنْتُمُ الْفُقَرَاۤءُ﴾، الإنسان هو الفقير المطلق، إذًا؛ لماذا تبخلون؟ ﴿وَاِنْ تَتَوَلَّوْا﴾، يعني وإن تتركوا الدّين، يسيطر عليكم حبّ الدنيا، ويسيطر عليكم، إضافةً إلى حبّ الدنيا، الشيطان ويوسوس لكم، وتركنون إلى الدنيا وتتركون خطّ الإيمان والجهاد والتضحية والفداء، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يبدّلكم الله بأقوام آخرين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُوْنُوْٓا اَمْثَالَكُمْ﴾، فالقوم الآخرون الذين يأتون ليسوا مثلكم؛ يعني لا يحبّون الدنيا ولا تأخذهم وسوسة الشياطين ويضحون في سبيل الله وينصرون الإسلام. وهذا يطلق عليه (قانون الاستبدال)، وهي سُنّة مشروطة. طبعًا؛ فيما يتعلق بهذه الآيات الشريفة، نقول:

---

١. محمد: ٣٧-٣٦

٢. محمد: ٣٨

٣. الحشر: ٩

٤. محمد: ٣٨

البخل لصيق بوجود الإنسان؛ لأنّ الإنسان يحبُّ ذاته، وحبّ الذات يسبّب البخل؛ لذلك، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾[1]، النفس الشحيحة أي: كثيرة البخل. الإنسان يحبُّ نفسه ويحب المِلك والثروة التي يمتلكها.

ثمّ إنّ الإنسان هلوع، والهلع يعني الجزع والحرص والبخل.

وكذلك؛ الإنسان قتور، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[2]، إذا كان عنده خير يمنعه ولا يعطي، ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾، القتور موجود في آية أخرى.

عوامل البخل

إنّ عوامل البخل باختصار هي:

العامل الأول: وسوسة الشيطان، فالشيطان يحرّك الإنسان ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾[3]، فيوسوس له الشيطان ويقول له: إذا أنفقت من أموالك فستصير فقيرًا، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، الفحشاء هنا مفسّرة بالبخل؛ أي لا تقدم ولا تنفق أموالك، كما في مجمع البيان.

العامل الثاني: الخوف من الفقر، كما في آيات كثيرة، ومن جملتها هذه الآية الشريفة: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾[4]؛ يعني لو نفترض أنّ الله تبارك وتعالى قدّم للإنسان خزائن السماوات والأرض، فهذا الإنسان يمسك ولا ينفق منها للآخرين خشية الفقر،

---

١. النساء: ١٢٨

٢. المعارج: ٢١-١٩

٣. البقرة: ٢٦٨

٤. الإسراء: ١٠٠

﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾؛ يعني خشية الفقر بسبب الإنفاق من المال، فيقول: إن أبذل أموالي أصبح فقيرًا.

العامل الثالث: التفسير الخاطئ للقضاء والقدر الإلهيين، فيقول: إنّ الله تبارك وتعالى هو الرزاق، فهو سبحانه رزقني، ولو شاء أن يرزق هذا الفقير لرزقه، فليس من الضروري أن يرزقه، فلا ينفق من أمواله له، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾[1]، فلماذا نحن نطعمه؟ لو أراد الله أن يطعمه لأطعمه، فلو جاءه الفقير سائلًا، يقول له: إنّ الله يعطيك. هذه هي عوامل البخل بالإجمال إضافةً إلى حبّ الذات الذي تكلّمنا عنه.

علاج البخل

أمّا علاج البخل، فيكون من خلال ما يلي:

أولًا: الالتفات والتوجّه إلى وعد الله للمنفقين في سبيل الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾[2] **خلافًا لوعد الشيطان** ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3].

ثانيًا: الاعتقاد بأنّ الرزّاق هو الله ﴿أَلَّا إِنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾[4]، فإذا أنفق أحد الأشخاص أمواله، فلا تقل له: أكثرت. وهذا ثابت بالتجربة أيضًا.

ثالثًا: معرفة أنّ البخل بضرر الإنسان ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[5].

رابعًا: التمرّن على الإنفاق، على الإنسان أن يمرّن نفسه على ممارسة الإنفاق،

---

١. يس: ٤٧

٢. البقرة: ٢٦٨

٣. المزمل: ٢٠

٤. الرعد: ٢٦

٥. محمد: ٣٨

فيكون عنده رياضة في الإنفاق، ويكرره حتى يعالج البخل، والآية الشريفة تقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]؛ أي أنّ كلَّ من يحفظ نفسه من البخل الشديد يكون ناجيًا وناجحًا، فالمجاهد ليس ببخيل؛ بل هو منفق، فأوّل شيء هو مستعدّ لإنفاقه في سبيل الله هو نفسه، والثاني هو أمواله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾[2].

الجهاد تجارة مربحة في إنفاق النفس وإنفاق المال ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3]، لكنّ المجاهد له مواصفات، فالمجاهد الحقيقي هو: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. جاء شخص اسمه عبّاد البصريّ ينصح الإمام السجاد عليه السلام في طريق الحجّ، وكان يقول له: يا عليّ بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته، واخترت الحجّ ولينته وإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّه﴾[5]، فقال له: «أكمل الآية». بدأ يقرأ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾[6] إلى آخر الآية، ثمّ قال الإمام عليه السلام: «إذا وجدت هؤلاء، فالجهاد معهم أفضل من الحجّ». من شروط الجهاد ومن شروط الحركة في سبيل الله لنصرة دين الله أن يجاهد الإنسان نفسه، ويوجد باب في وسائل الشيعة بعنوان: باب من يجوز له تجميع العساكر؛ يعني شروط القيادة العسكرية الجهادية، ذُكرت

---

١. الحشر: ٩

٢. التوبة: ١١١

٣. نفس المصدر

٤. التوبة: ١١٢

٥. التوبة: ١١١

٦. التوبة: ١١٢

فيه هذه الرواية، وهي أكثر من خمس صفحات، جاء في آخر الرواية أنّ السائل يقول للإمام عليه السلام: إذا كانت هذه الشروط كلّها موجودة، فقل لنا أن نترك الجهاد، فنحن لا نستطيع أن نحققها، فقال له الإمام: لا؛ لا أقول لكم اُتركوا الجهاد؛ بل أقول لكم: حقّقوا هذه الشروط.

ولعمري لقد جاء الأثر في أنّ الله ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم - نستجير بالله -، يمكن أن ينتصر الدين من خلال جهاد المجاهدين، لكنّ المجاهد إذا لم يزكّ نفسه، فهو لا يحصل على شيء، وبالتالي يضيع بالمسير.

استبدال قوم بقوم آخرين

وصلنا إلى الآية الشريفة: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾. هذه الآية خلاصة ما ورد في السورة من أنه إذا تركتم نصرة الإسلام ونصرة الدين، فالله ينصر هذا الدين، وهذه سنّة الله القطعية المشروطة، فيها شرط وقيد ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي تركتم الإيمان والجهاد والتضحية والفداء بالنفس والمال، فالله يأتي بقوم غيركم لا يتركون الإيمان والجهاد والتضحية والفداء، وينصر الإسلام بهم. وهذا نسميه (قانون الاستبدال وسنُّة الاستبدال). ففي التوظيف الإداري، إذا رأى رئيس الإدارة أنّ أحد الموظفين في إدارته غير مؤهل وغير كفوء، يعزله ويوظف شخصًا آخر غيره، وكذلك إذا كان هناك وزير لا يقوم بواجباته، فيُقال من الوزارة، وينصّبون وزيرًا آخر بدلًا منه. وقضية نصرة الدين من هذا القبيل، فالآية خطابها للأفراد والمؤسسات والبلدان والمجتمعات والأجيال عبر الزمان والمكان على طول التاريخ، ليس فيها استثناء، فهي قاعدة عامّة مفترضة.

سؤال: هل تحقّقت هذه الآية في الواقع الخارجي؟ وهل صار هناك تولٍّ واستبدال؟ وهل هناك بعض الناس تركوا نصرة الدين أو لا؟ المقصود بالتولّي ليس ترك الإسلام فقهيًا، فقد يكون الناس على الإسلام شكلًا، فمثلًا الأجيال التي تلي

المسلمين الأوائل تبقى على الإسلام، وهو مسلم بالجنسية والهوية، لكنّ الحضور الفاعل في الميدان هو للمؤمن الصادق المجاهد الذي يضحّي في سبيل نصرة الإسلام، ولا يريد أن يعيش، ويدبّر حاله ومعيشته كيفما اتّفق، فهذا يعتبر توليًا.

هناك آيات أخرى تشرح لنا التولّي في سورة المائدة؛ هي: ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ اَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ اِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَاِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1]. هذه الآيات تشرح أنّ التولّي عن الإسلام هو الإعراض عن الإسلام، فعندنا ارتدادٌ فقهيٌّ وارتدادٌ اجتماعيّ سياسيّ، والارتداد الفقهيّ يعني ترك الشهادتين، أو الارتداد مثلًا بالنسبة للتشيع ترك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام نستجير بالله. وليس هذا هو المقصود من التولي في بحثنا؛ وإنما يبقى بالجنسية والهوية مسلم، مؤمن شيعي، لكن من حيث نصرة الإسلام يصبح مرتدًا سياسيًا واجتماعيًا؛ أي بعيدًا عن نصرة الإسلام. وكذلك المجتمع قد يكون مرتدًا سياسيًا..

خصائص المجتمع المرتد سياسيًا واجتماعيًا

أولًا: يحبّون الدنيا والدنيا تحبّهم بدلًا من أن يحبهم الله ويحبوه، وتعاطفهم يكون على أساس حبّ الدنيا؛ بيع وشراء، وأخذ وعطاء، أعطني وأعطيك ﴿اَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ثانيًا: الأخوّة الإيمانية تكون قوية عند الذين ينصرون الإسلام، ويُعتبرون كمجتمع واحد، لكنّ المجتمع المرتد سياسيًا واجتماعيًا مجتمع أنانيٌّ؛ فكلُّ فرد فيه يفكّر في نفسه ويتّبع مصلحته، ومصلحته حتى لو كانت عند اليهوديّ

١. المائدة: ٥٦-٥٤

٢. المائدة: ٥٤

والمسيحي والمجوسيّ والملحد والكافر وعدو الإسلام، فإنّه يتبعها ويراعيها، فيصير ذليلًا على الكافر، كما نرى اليوم هؤلاء الذين يهرولون خلف أمريكا والصهيونية ويتحدّثون بالتطبيع السياسيّ والتطبيع الاجتماعيّ، فإنّ منطقهم الثروة والمال وحبّ الذات، وليس لديهم منطق آخر، ويظنّون أنّه نوع تجارة ومعاملة حتى لو ضيّعوا الإسلام، فالأمر ليس مهمًّا عندهم، فيصيرون أذلة عند اليهود، قِبلتهم أمريكا وإسرائيل، وليست قبلتهم الكعبة المشرفة. فهذا ارتداد سياسيٌّ اجتماعيٌّ.

المجتمع المؤمن المجاهد

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]، المجتمع المؤمن المجاهد المضحّي يكون صلبًا في مواجهة أعداء الإسلام، وهم بعكس المجتمع المرتد، والمجتمع المرتد متشدد وقاسٍ تجاه المؤمنين المجاهدين؛ فهم يعذّبونهم ويسجنونهم ويخطفونهم ويقتلونهم ويحاصرونهم، لكنهم بالنسبة للكفّار ليّنون يفتحون لهم المجال في كلّ شيء.

من جملة خصائص المجتمع المجاهد أنهم يجاهدون في سبيل الله، لكنّ ذلك المجتمع المرتد سياسيًا واجتماعيًا يترك الجهاد في سبيل الله. المجتمع المجاهد لا تأخذه في الله لومة لائم، لكنّ هؤلاء يحتاطون متحفّظين على كلّ شيء يخافون من ظلّهم، ويسمّون أنفسهم معتدلين، أمريكا تسمّي البعض (جبهة الاعتدال العربي)، ويقصدون بجبهة الاعتدال العربي، جبهة المتسكّعين وراء أمريكا وإسرائيل، وليس هو باعتدال، وإنما هو الإسلام الليبرالي. يخافون من كلّ شيء، يريدون أن يحفظوا مصالحهم المادية.

البعد الآخر لهذا الخط الجهادي؛ اتّباع ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ

---

١. نفس المصدر

اللهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رٰاكِعُونَ﴾[1]، لكنّ جبهة الارتداد السياسيّ الاجتماعيّ بعيدون عن خطّ ولاية محمّد وآل محمّد عليهم السلام، وبالتالي هذا الخطُّ خطّ نصرة دين الله وخطُّ حزب الله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2]، أمّا أولئك فهم مقابل خطّ حزب الله.

وبالعودة إلى السؤال الذي طرحناه أولًا؛ وهو أنّ هذا الاصطفاف بأن يأتي قوم ينصرون الإسلام بدلًا من قوم كانوا ينصرون الإسلام سابقًا واليومخذلوه ، هل تحقّق أو لم يتحقّق في زماننا؟

نقول في الجواب: إنّ واحدة من علامات صحّة نبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه أخبر في ذلك الوقت بأنّ هذا التولّي والإعـراض عن الإسلام للمسلمين الأوائل والأجيال سوف يتحقّق، ويأتي قوم، هؤلاء القوم أنتم تقاتلونهم على التنزيل وهم يقاتلونكم على التأويل؛ على تطبيق الإسلام، أيّ قوم هؤلاء؟ المذكور في الروايات سلمان وقوم سلمان. وهنا أذكر لكم الروايات الواردة في سلمان الفارسي وقوم سلمان (إيران الإسلام)، ولا يبعد أنّ هذه الروايات فيها إطلالة وإشارة إلى الثورة الإسلامية.

الإمام الـراحـل رحمه الله، عندما يتحدّث عن مصحف فاطمة عليها السلام، يقول: كان جبريل ينزل ويسأل فاطمة الزهراء ويحدّثها، ومن جملة الأحاديث؛ أحاديث ما يجري على ذرّيتها إلى زمان ظهور الحجّة عجل الله تعالى فرجه الشريف. ثمّ يقول الإمام رحمه الله: وليس من المستبعد أنّ في ضمن أخبار مصحف فاطمة أخبار ما يجري اليوم في إيران؛ يعني في الثورة الإسلامية، وهذا ليس بعيدًا، فعندما نزلت هذه الآية الشريفة؛ وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا اَمْثَالَكُمْ﴾،

---

١. المائدة: ٥٥

٢. المائدة: ٥٦

فرح رسول الله، وقال: هذه الآية بشّرتني بشارة أفضل لي من الدنيا وما فيها، وهذه البشارة الامتداد لنصرة الإسلام. ما هي تلك الروايات؟

الروايات الواردة في سلمان الفارسي وقومه

الرواية الأولى: عن الإمام الصادق عليه السلام: «لاَ يَخْرُجُ مِنْ شِيعَتِنَا أَحَدٌ إِلاَّ أَبْدَلَنَا اللَّهُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؛ وذلك لأنّ الله يقول: ﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾»[1]. ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾[2]، الذي يخرج عن الخطّ يضرّ بنفسه.

الرواية الثانية: علي بن إبراهيم عن محمّد الحميري عن أبيه عن السندي ابن محمّد عن يونس بن يعقوب عن يعقوب بن قيس، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا ابن قيس ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ عنى أبناء الموالي المعتقين»[3]. يعني أبناء الموالي هؤلاء ليست عندهم قبيلة وليسوا بعرب، هم معتقون، يُعتقون لوجه الله، فهؤلاء يصيرون بدلًا، والموالي المقصود بهم الإيرانيون.

الرواية الثالثة: وهي رواية مشهورة لدى الفريقين: عن ابن طريف عن ابن علوان عن جعفر عن أبيه عليهما السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **لو كان العلم منوطًا بالثريا لتناولته رجال من فارس**»[4].

الرواية الرابعة: وبهذا الإسناد قال النبيّ صلى الله عليه وآله في فارس: «**ضربتموهم على تن زيله، ولا تنقضي الدنيا حتى يضربوكم على تأويله**»[5].

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٨٧.

٢. الفتح: ١٠

٣. بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٧٤.

٤. المصدر نفسه.

٥. بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٥

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قومًا آخرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في التولي والزهد والإيمان، وهم الفرس، وليس المقصود بالفرس الفرس بالجنسية، المقصود بهم البيئة والجوّ العام، فإذا أردنا أن نترجم كلمة الفرس في هذا الزمان، فهي تعني خطاب الثورة الإسلامية ومن ينضوي تحت هذا الخطاب ممن ينصر الثورة الإسلامية.

الرواية الخامسة: قال الطبرسي في مجمع البيان: «روى أبو هريرة أنّ أناسًا من أصحاب رسول الله قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ وكان سلمان إلى جنب رسول الله، فضرب يده على فخذ سلمان، فقال: هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان - وليس العلم فقط - منوطًا بالثريا لتناولته رجال من فارس»[1].

الرواية السادسة: وفي مجمع البيان: أبو بصير عن أبي جعفر، قال: «﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني الموالي»[2].

الرواية السابعة: عن أبي عبد الله، قال: «**قد والله أبدل بهم خيرًا منهم الموالي**»[3].

هذا من المصادر الشيعية. أمّا من المصادر السنيّة، فتفسير البيضاوي، وتفسير القرطبي، قول المحاسبي رواية ابن أبي حاتم وابن الجرير وعبد الرزاق والبيهقي والترمذي وغيرهم، ثمّ يأتون إلى هذه الرواية ويذكرون رواية أخرى أيضًا: «**أنّه لمّا نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله، وقال: هي أحبُّ إليّ من الدنيا**»[4].

والزمخشري في الكشّاف يغيّر البحث في هذه الآية ويقول: إنّه يأتي بخلق جديد، والخلق الجديد الملائكة. بينما هناك تناقض في كلام الزمخشريّ؛ لأنّه

---

١. الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٨٠

٢. نفس المصدر

٣. بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٢؛ ومجمع البيان، ج٩، ص١٠٨.

٤. القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٦، ص٢٥٨

توجد آية أخرى حول الخلق الجديد تتعلّق بخلق السماوات والأرض ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[1]، وهذه الآية غير التولّي؛ فالمقصود بالتولي؛ التولي عن الجهاد وعن الإيمان وهذه الأمور.

خلاصة الكلام أنّ هذه الآية لا تتعلّق بالأقوام فقط، وهذا الخطاب ليس هو بخطاب تفضيل قوم على قوم؛ بل بيان سُنَّة إلهيّة. وهذه السنّة الإلهية تتجدّد في كلّ الأجيال، وفي زماننا الحاضر الثورة الإسلامية انطلقت من إيران، وهذه الثورة صار لها أنصار في العالم، منهم في لبنان وفي اليمن وفي المنطقة بشكل عام، وتشكّل محور المقاومة الإسلامية، فلو افترضنا أنّ بعض الإيرانيين يريدون أن يكفروا بالنّعمة ويتركوا هذه الثورة، فالله تبارك وتعالى يعطيها إلى أقوام آخرين ينصرون هذه الثورة إلى أن يظهر الحجّة عجل الله تعالى فرجه الشريف. فالمهمّ على الإنسان أن يستمرَّ في الخطّ ويلتفت إلى أنّ هذا تحذير إلهيٌّ كبيرٌ ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2]. وفي نهاية المطاف ينبغي أن نأخذ هذا التحذير الإلهيّ بعين الجدّ والاعتبار، ونستلهم منه درس الاستقامة والمقاومة والثبات على الإيمان والجهاد والاستعداد للتضحية والفداء في سبيل الله وحبّ الشهادة، وأن نكون من الطلائع الرساليين ومن الجنود الحقيقيين لصاحب الأمر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

اللّهُمَّ اجعَلنا مِمَّن تَنتَصِرُ بِهِ لِدينِكَ، وتُعِزُّ بِهِ نَصرَ وَلِيِّكَ، ولا تَستَبدِل بِنا غَيرَنا؛ فَإِنَّ استِبدالَكَ بِنا غَيرَنا عَلَيكَ يَسيرٌ وهُوَ عَلَينا كَثيرٌ، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

---

١. فاطر: ١٦

٢. محمد: ٣٨

صدر لدار الوفاء للثقافة والإعلام

سلسلة رجالٌ صدقوا:

١. هكذا عرفوه، الشهيد رضا الغسرة

٢. المؤمن الممهد، الشهيد علي المؤمن

٣. فخر الشهداء، الشهيد عبدالكريم فخراوي

٤. الخارجون من الماء، كمال السيّد، رواية أدبية حول حياة المحرر من السجون الخليفية محمد طوق

٥. القادم من هناك، كمال السيّد، رواية أدبية حول حياة الشهيد القائد رضا الغسرة

٦. ألم وأمل، السيد مرتضى السندي، تجربة واقعية في السجون الخليفية

٧. فارس التحرير، أحمد العرب، حول الشهيد علي العرب

٨. بين غياهب الموج، الشهيد ميثم علي

٩. أبو قسّام، الشهيد الفدائي محمد سهوان، علي معراج

١٠. ذلك يوم الخلود، الشهيد أحمد الملالي، كمال السيد

سلسلة نهج الولاية:

١. العمل المؤسساتي في فكر الإمام الخامنئي

٢. الاستغفار والتوبة، الإمام الخامنئي

٣. التحليل السياسي في فكر الإمام الخامنئي

٤. العبد الصالح، الإمام الخامنئي، رواية الإمام الخامنئي حول الإمام الخميني

٥. سيد شهداء محور المقاومة، قاسم سليماني

٦. عهد الأمير إلى المسؤول والمدير، شرح رسالة الإمام علي لمالك الأشتر، الإمام الخامنئي

٧. النفوذ في فكر الإمام الخامنئي

٨. الحياة بأسلوب جهادي، الإمام الخامنئي

٩. الثورة الإسلامية في فكر الإمام الخامنئي

١٠. الثوري الأمثل، الإمام الخامنئي
١١. صلح الإمام الحسن عليه السلام، الإمام الخامنئي
١٢. النهضة البرمجية، الإمام الخامنئي
١٣. يحبهم ويحبونه - كلمات السيد حسن نصرالله حول الشهيد قاسم سليماني
١٤. في محضر الحبيب، خواطر الإمام الخامنئي بلسانه وبيانه
١٥. السياسة الخارجية والعلاقات الدولية في فكر الإمام الخميني
١٦. نهاية السرطان الصهيوني في فكر الإمام الخامنئي

سلسلة من داخل السجن:

١. التغيير في سبيل الله، الشيخ زهير عاشور
٢. تأملات في الفكر السياسي، الشيخ زهير عاشور
٣. الإسلام والعلمانية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٤. الرحيل نحو الأبدية، الساعات الأخيرة للشهيد علي العرب قبل إعدامه، كمال السيّد
٥. يسألونك عن عاشوراء، الأستاذ محمد فخراوي
٦. رسول الرحمة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٧. على ضفاف الحسين، الأستاذ محمد سرحان
٨. نشيد الشهادة، شرح وصية الشهيد القائد قاسم سليماني، الأستاذ محمد سرحان
٩. ماضون على دربك، قصص أسرى البحرين بعد استقبال خبر شهادة القائد قاسم سليماني
١٠. مرج البحرين يلتقيان، حياة الإمام علي وفاطمة الزهراء، الأستاذ محمد فخراوي
١١. خط الإمام الخميني، الشيخ جاسم المحروس
١٢. الإسلام دين الفطرة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
١٣. شقشقة المظلوم، شرح الخطبة الشقشقية لأمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ

زهير عاشور

١٤. إلى أحبتي، نصائح تربوية إلى الشباب، الشيخ زهير عاشور

١٥. وذكرهم بأيام الله، شذرات من فكر الإسلام المحمدي الأصيل، الأستاذ محمد سرحان

١٦. اللامنطق في الفكر والسلوك (مجلدين)، مواجهة النبي موسى لفرعون، الأستاذ عبدالوهاب حسين

١٧. رحيق كربلاء، الشيخ زهير عاشور

١٨. معرفة النفس طريق لمعرفة الرب، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

١٩. شمعة في وسط الظلام، الشيخ زهير عاشور

٢٠. إضاءات فكرية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٢١. فارس التحرير، أحمد العرب، حول الشهيد علي العرب

٢٢. مشكاة - فضيلة أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين، حسن مرهون

٢٣. أبو قسّام، الشهيد الفدائي محمد سهوان، علي معراج

٢٤. إضاءات على السيرة السياسية للمعصومين عليهم السلام، الشيخ زهير عاشور

٢٥. تراتيل السكينة - دراسات في سيرة أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين، الأستاذ محمد سرحان

٢٦. حكومة العالِم العادل، الشيخ جاسم المحروس

سلسلة الاستكبار العالمي:

١. تاريخ أمريكا المستطاب، الدكتور محمد صادق كوشكي

٢. دواعش بربطات عنق، سيد هاشم ميرلوحي

٣. أمريكا مهد الديمقراطية والحرية، سيد هاشم ميرلوحي

سلسلة تاريخ البحرين:

١. آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود

٢. شهادة وطن، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم

٣. الإبادة الثقافية في البحرين

٤. تيار الوفاء الإسلامي، المنهج الرؤية الطموح

كتب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين:

١. الاستعاذة
٢. إضاءات فكرية
٣. معرفة النفس طريق لمعرفة الرب
٤. اللامنطق في الفكر والسلوك، مواجهة النبي موسى لفرعون
٥. الإسلام دين الفطرة
٦. رسول الرحمة
٧. الإسلام والعلمانية
٨. الجمري في كلمات أمينه وخليله
٩. القدس صرخة حق
١٠. إضاءات على درب سيد الشهداء عليه السلام
١١. قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين عليه السلام
١٢. الدولة والحكومة
١٣. الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الثاني
١٤. الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الأول
١٥. في رحاب أهل البيت عليهم السلام
١٦. الشهادة رحلة العشق الإلهي

كتب آية الله الشيخ عباس الكعبي:

١. تفسير سورة العصر بمنظور حضاري
٢. تفسير سورة محمد **(هذا الكتاب)**

سلسلة الثقافة التنظيمية:

١. العمل التنظيمي، ماهيته وفلسفته وكيفيته، الدكتور حسين عرب أسدي

والدكتور حميد رضا محمدي ومحمد مهدي زارع مهرجردي

كتب أخرى:

١. قافلة الخلود - شهداء البحرين
٢. عاشوراء البحرين ٢٠١٩
٣. كتيّب المقاوم العارف، الشهيد المقاوم أحمد الملالي
٤. عاشوراء البحرين ٢٠١٨
٥. حصاد البحرين ٢٠١٧
٦. عاشوراء البحرين ٢٠١٧
٧. في رحاب مدرسة الإمام الخميني
٨. المهدوية في الفكر الولائي
٩. الحصاد السياسي ٢٠١٦

كتب باللغة الفارسية:

١. تغيير در راه خدا (التغيير في سبيل الله)، الشيخ زهير عاشور
٢. بازخوانى خطبه هاى امام حسين (قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين)، الأستاذ عبدالوهاب حسين
٣. بر آستان اهل بيت (في رحاب أهل البيت)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين
٤. رنج و اميد (ألم وأمل)، السيد مرتضى السندي
٥. گواه ميهن (شهادة وطن)، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم
٦. تاريخ سياه آل خليفة (آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود)
٧. بت شكن (رواية الخارجون من الماء)، كمال السيّد

مجموع الإصدارات: ٩٤

تفسير

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

أنّ هذه السورة هي سورة الولاية لمحمّد وآل محمّد، وهي أيضًا سورة البراءة من أعداء محمّد وآل محمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من خلال الحضور في ميدان المواجهة والمعركة والحضور الجهادي الفاعل والنشيط؛ أي أنّ ذلك يعني تطبيق مبدأ «سلمٌ لمن سالمكم وحربٌ لمن حاربكم». إنّ بعض السور يدلُّ مضمونها على الولاية؛ مثل سورة المائدة، وبعض السور يدلُّ مضمونها على البراءة؛ مثل سورة البراءة، لكنّ هذه السورة جمعت بمفادها بين الولاية والبراءة معًا.

دار الوفاء للثقافة والإعلام

الموقع الرسمي